كلية الدراسات العليا

برنامج الدراسات الاسرائيلية

الوعي الجسدي تحت التحقيق: دراسة في تجارب الفلسطينيين في المُعتقلات الاسرائيلية

Bodily Awareness under Interrogation: A Study of Palestinian Experiences in the Israeli jails system

مي كمال أحمد هماش

2020

اشراف: د. أميرة سلمي

الوعي الجسدي تحت التحقيق: دراسة في تجارب الفلسطينيين

في المُعتقلات الاسرائيلية

Bodily awareness under Interrogation: A Study of Palestinian Experiences in the Israeli jails system

رسالة ماجستير مقدمة من:

مي كمال أحمد هماش

إشراف: د. أميرة سلمي

تاريخ المناقشة: 1/2/2020

أعضاء لجنة النقاش:

د. أميرة سلمي (رئيسًا): أميرة سلمي

د. علاء العزة (عضوًا): علاء العزة

د. رامي سلامة (عضوًا): رامي سلامة

قدمت هذه الرسالة استكمالًا لمتطلبات درجة الماجستير في برنامج الدراسات الاسرائيلية

من كلية الدراسات العليا في جامعة بيرزيت – فلسطين

شباط، 2020

شكر وعرفان

لم يكن لهذا العمل أنّ يتم دون مساعدة وإشراف وتوجيه د.أميرة سلمي، والّتي قدمت لي الكثير من المعارف والإرشاد بكل إخلاصًا وإيمانًا بي، لها كل الحب والاحترام.

لأمي مصدر القوة والدعم والحب، لمن دفعتني نحو الحياة، إلى أخي سيف الّذي شاركته تفاصيل هذه التجربة، إلى عائلتي الّتي استمرت في دعمي واحتضاني، إلى أبي، وأخوتي أحمد، وعادل، وقصي، وسيف، وسوار كل الحب، وإلى الأصدقاء جميلة عويس، وياسمين أبو شخيدم، وفيروز هماش، ورنا أبو عكر، وهالة مخول، , والأصدقاء محمود، ومحمد، وأنس وابراهيم، وإلى وليد حباس الصديق الّذي كان إلى جانبي طوال فترة الرسالة.

كما وأشكر من ساندني خلال سنواتي التعليمية، وكان لهم دورًا كبيرًا في بلورة معرفتي؛ أسرة برنامج الدراسات الاسرائيلية ممثلة بالأساتذة والطلاب، وإلى من ساهم في إثراء النقاش وتطويره خلال فترة البحث، د.لينا ميعاري، د.رلى أبو دحو، ود.علاء العزة، ود. رامي سلامة.

إلى الأسرى الّذين شاركوني تجاربهم، من تعلمت منهم ما هو أكثر من المعرفة، تعلمت منهم معاني الحب والمشاركة والتضحية، تعلمت منهم كيف أنّ تتمثل القوة وتُمارسها، وكيف أنَّ تكون إنسانًا في أي ظرف غير إنساني، لهم الحب والامتنان والفضل في استكمال هذه الرسالة.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الشكر والعرفان	1
فهرس المحتويات	2
ملخص باللغة العربية	6
ملخص باللغة الانجليزي	9
مقدمة	10
الإشكالية	12
الفرضية	13
الأهمية	15
المنهجية	18
خلفية عامة	20
الفصل الأول: كتابة الذاكرة المستعمَرة	
مقدمة	25
المحور الأول: الذاكرة الفردية والجماعية	27
المحور الثاني: الذاكرة الشفوية والمكتوبة	29
المحور الثالث الذاكرة الجماعية والتاريخية	34

المحور الرابع: الحقيقة في كتابة الذاكرة: بين التذكر والتأويل 38

المحور الخامس: كتابة الألم من خلال الذاكرة 41

الفصل الثاني: الاستعمار والاستعمار الاستيطاني

مقدمة 49

المحور الأول: نظرة مفاهيمية حول الاستعمار والاستعمار الاستيطاني 50

المحور الثاني: مبدأ المحو في الاستعمار الاستيطاني 58

المحو على الأرض والمكان 58

المحو الثقافي 69

المحو على الجسد المقاوم 71

السيطرة على الجسد المقاوم 75

الفصل الثالث: (السجن): فرض السيطرة على الجسد

المحور الأول: قراءة في وظيفة السجن 82

المحور الثاني: السجون الاستعمارية/ الاستيطانية 91

المحور الثالث: السجون الصهيونية 101

وظيفيًا 102

سياسة الاعتقال 106

داخل السجن 109

سياسة العزل والمراقبة داخل السجون 113

دور المؤسسة الطبية والقضائية في العقوبات السجنية 115

الفصل الرابع: قراءة في أدوات المحو والمقاومة داخل زنازين التحقيق

مقدمة 119

المحور الأول: الألم الجسدي والتعذيب 121

الاقتحام والمداهمة 122

المواجهة الأولى مع الزنازين 133

زنازين التحقيق 138

التعذيب دون وسائل تعذيب 148

استهداف الجسد كموضوع جنسي 154

استهداف جسد العائلة 159

المحور الثاني: العزل 161

العزل قبل التحقيق 162

العزل داخل غرف العار 170

العزل داخل زنازين التحقيق 175

التحقيق الجماعي/ الثنائي مع الأسير 177

الفصل الخامس: الوعي الجسدي للأسرى في زنازين التحقيق

مقدمة	181
المحور الأول: الألم الجسدي علاقته بالوعي	187
المحور الثاني: الوعي الجسدي خلال العزل، والمقاومة بالإيمان والحق والعقيدة	198
المحور الثالث: المعرفة والوعي	202
السلطة المعرفية بين المحقق والأسير، وتأثيرها على الوعي الجسدي للأسرى	202
الصمت استراتيجية مقاومة مواجهة للسلطة المعرفية	210
سلطة/ قوة المعرفة الثقافية والسياسية والاجتماعية	212
خاتمة	220
المراجع والمصادر	223

ملخص باللغة العربية

اهتمت الدراسة بمعرفة التحولات الّتي تطرأ على الجسد الفلسطيني الأسير خلال مرحلة الاستجواب والتحقيق، وتفترض هذه الدراسة أنَّ الأدوات الّتي يستخدمها المُستعمِر "الاسرائيلي" لها دور كبير في إعادة صياغة الوعي المفاهيمي والهوياتي اتجاه أجساد الأسرى بشكل خاص والفلسطينيين خارج المعتقلات بشكل عام؛ لذلك تهدف الدراسة لفهم هذا التحول المفاهيمي الّذي يحمل (الاستسلام- المقاومة) خلال التحقيق، وتستخدم الدراسة المنهج الكيفي القائم على تحليل روايات الأسرى الشفوية والمكتوبة حول تجاربهم في مرحلتي التحقيق والاستجواب.

بحثت الدراسة في أهمية البحث في الذاكرة المروية والمكتوبة، باعتبارها أداة مقاومة لمحاولة التهميش والاقصاء الّتي يحاول المستعمِر الصهيوني فرضها على الفلسطينيين، من خلال تغييب رواية الفلسطيني، وترسيخ روايات آخرى تهدف إلى تغييب الفلسطيني من جهة، وكي الوعي الفلسطيني من جهة آخرى، لذلك فالبحث في الذاكرة، وبالتحديد الذاكرة المقموعة الّتي تعرضت للألم والقمع والاضطهاد يُعد ضروري في المجتمعات الاستعمارية بشكل عام، وفي المجتمع الفلسطيني بشكل خاص، وذلك لأنَّ سرد الذاكرة يُعطي صوتًا للصمت الّذي يُفرض على التجربة الفلسطينية، وخصيصًا في دراسة الأسرى كما قُدم في هذه الدراسة، فدراسة ذاكرة تجربة الألم الناتجة من التحقيق والاستجواب، تُعد الوسيلة المناسبة لكتابة تاريخ السجون، من وجهة نظر من خاضوا التجربة، والّذين يُعبرون عنها كما تمثلت لهم، وكما انعكست في وعيهم.

كما خاضت الدراسة في تحليل المحو كمبدأ وأداة في آن واحد، وكيف يتم استخدامه في حالة الاستعمار والاستعمار الاستيطاني، من خلال البحث في النماذج المادية الّتي مورست عليها هيمنة المحو، سواء على السكان أو الأرض، أو المحو الثقافي، بالإضافة لمحاولات محو الذوات الفاعلة المتشكلة في مجموعات سياسية من جهة، والذوات الفاعلة الفردية، وتختلف الأدوات الّتي تستخدم في

عمليات المحو تبعًا لعدة متغيرات، مثل الفترة الزمنية، والضرورات الأمنية والاعتبارات السياسية الاستعمارية.

تركزت الدراسة أيضًا في البحث حول فكرة فرض السلطة على الجسد من خلال نظام السجن، حيث تم تحليل الأيديولوجية الأساسية الّتي يقوم عليها السجن؛ والمتمثلة بإعادة إنتاج الأفراد الطيعيّن؛ ومعنى الطاعة تتمثل في الولاء والامتثال أمام السلطة وتمثلاتها، بغض النظر عن نوع السلطة وأهدافها، ولهذا فإنَّ هذه الوظيفة في المجتمعات الاستعمارية والاستعمارية الاستيطانية تتكثف بشكل يُهدد الوعي الوطني للأفراد المستعمَرين، ولهذا تُعد دراسة السجون تحت الاستعمار ذات أهمية كبيرة، فمن جهة يمكن من خلال السجون قراءة الواقع السياسي العام خارج السجون، ومن جهة آخرى يعمل هذا النوع من الدراسات على إعادة من يتم إقصاءهم (الأسرى) إلى المركز، وبالتالي إخراجهم من الهامش الّذي يتم فرضه قسرًا عليهم.

إنَّ الإجابة عن تساؤل الوعي الجسدي للأسرى في زنازين التحقيق، تتمثل في معرفة الكيفية الّتي يقوم بها الأسير خلال مرحلة التحقيق بفهم تجربته، وتقييمها واحتوائها، فتضمين التجربة الاعتقالية داخل معانيها السياسية والثقافية له دور كبير في تحديد الآثار الّتي من الممكن أنّ تنقشها تجربة الألم على وعي وجسد الأسير.

كما أنَّ الخبرات السابقة المخفية الّتي يكتسبها الأسير في تجاربه الحياتية المختلفة، تلعب دورًا كبيرًا في تحديد الكيفية الّتي يتعامل فيها الأسير مع تجربة الألم والعزل اللّتان يتعرض لهما خلال مرحلة التحقيق، فمن جهة تلعب هذه المعارف دورًا في جعل الأسير ندًا وخصمًا ومقاومًا في أضعف لحظاته وأكثرها قهرًا بفعل ظروف وعوامل الاعتقال والتحقيق، ومن جهة آخرى فإن هذه المعارف والتجارب قد تلعب دورًا سلبيًا في إحباط الأسير والإحاطة به تجهيزًا لاستسلامه، وهذه المعارف وفق ما أكد عليها الأسرى مرتبطة بشكل أساسي بتأويل للثقافة العربية والفلسطينية الخاصة الخاصة بالعلاقة بين

الجنسين والعائلة، ودور الأسرة كمؤسسة تربية ودعم اجتماعي من جهة آخرى، ودور القيادات السياسية الحزبية أو تلك الموجودة في السلطة أيضًا، حيث أنَّ هذه العناصر الثلاث تُشكل عبئًا وضغطًا في مرحلة معينة على الأسير، ولكن يتم التغلب عليها في كثير من الأحيان، من خلال تضمين هذه التجربة مرة آخرى ضمن سياق التجربة الأعم، وهو أنَّ يعتبر الأسير ذاته ضمن مشروع أكبر؛ وهو مشروع المقاومة ضد الاستعمار، وأنَّ ما يحدث داخل زنازين التحقيق ليس حالة فردية مرتبطة به كأسير منعزل ومنفرد عن المجتمع، وإنَّما هيَّ حالة عامة، وجزء من تاريخ من معاناة ونضال شعب بأكمله.

Abstract

This study explores the transformations of the Palestinian imprisoned body during interrogation and investigation. It argues that the tools used by the Zionist Colonialism seek to alter the prisoner's consciousness of his/her body, his/her identity and relation to the collective body of Palestinians in general. Thus, this study's aim is to understand the conceptual transformation, which includes the dual potentialities of Surrender-Resistance during interrogation. The study relies on the written and oral narratives by the Palestinian political prisoners about their experiences of the interrogation stage in Israeli prisons.

The study demonstrates the importance of oral and written memory of the prisoners, as it is considered a tool of resistance in the face of Zionist attempts to exclude and marginalize the Palestinian voices, absenting them and substituting them with a Zionist narrative, in an attempt to dissolve their national consciousness. Giving voice to the silenced memory of those who suffered pain and oppression is necessary, especially in a colonial context, like Palestine, because narrating memory gives a voice to the silence imposed on the Palestinian experience. In the case of prisoners, studying the memory of pain and torture, of resistance and steadfastness in Occupation prisons, is a main and necessary step in writing the history of colonial imprisonment in Palestine.

The study also analyses erasure as a concept and a process at the same time, in colonial and settler-colonial contexts. The analysis thus focuses on the physical forms of erasure of r the people, the land, and/or the culture. In addition to attempts to erase active, resistant bodies, which develop individually as well as in political groups. Here, the tools of erasure differ depending on variables such as period and colonial security and political considerations.

The thesis also focuses on the operations of power over the body in the prison system. The thesis demonstrates that this power seeks to reproduce obedient individuals, loyal to and compliant to authority and its representations, regardless of the authority's type and aims. This becomes more salient in a colonial and settler-colonial situations, where the colonial authority seeks to obliterate the national consciousness and identity of the colonized people, through its prison system. Thus, studying prisons under colonialism, sheds light on the ways the colonizer seeks to control the colonized by controlling their bodies and suppressing their national consciousness, inside as well as outside prisons. Which means that studying the prisoners' experience of imprisonment is also important to understand the general political situation in the Palestinian society, as well as bringing those who have been forcibly excluded (prisoners) back to the centre.

مقدمة

قام الكيان الصهيوني على إنكار وجود الشعب الفلسطيني، وقدَّم ذاته بأنَّه مشروع "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، ومع اصطدام مشروعه بالوجود الفلسطيني بتشكلات ذات بُعد سياسي وديني حاربته، فبدأت العصابات الصهيونية بعملية إفراغ للأرض من خلال القتل والمجازر والترويع، وهذا أدى إلى تهجير الفلسطينيين عن مساحة كبيرة من الأرض، ولجوئهم إلى مناطق مختلفة؛ مثل المناطق الّتي سيطر عليها الكيان الصهيوني عام 1948، وفي القدس، والضفة الغربية وقطاع غزة، وإلى الدول العربية المجاورة، ومنها إلى دول العالم المختلفة.

لم يتوقف المشروع الصهيوني عند هذا الشكل من تهجير للسكان والسيطرة العسكرية على الأرض، فاستخدم طُرقًا مختلفة لحصر وجود الحيز الجسدي للفلسطينيين المتبقين على أرض فلسطين، ومن هذه الطرق على سبيل المثال لا الحصر: التهجير القسري والصامت بالوسائل العنيفة والاستيطان، وجدار الفصل العنصري، والمعتقلات، والطرق الالتفافية، والحواجز، والوحدات الاستيطانية، وتخطيط الأراضي والسيطرة العسكرية عليها إداريًا وأمنيًا، وقطع العلاقات بين الفلسطينيين من خلال سحب التصاريح الخاصة بالدخول والمغادرة للمناطق جانبي ما يعرف بالخط الأخضر.

أصبحت هذه الأدوات أساسية في تشكيل وعي جسدي للفلسطينيين؛ من خلال احتكاك جسدهم وتجاربهم مع ممارسات العزل للفرد والجماعة؛ من أجل هندسة المشهد الفلسطيني، بتغييب الفلسطيني وتقليصه وإنهاء وجود الأجساد الفاعلة، والحد من إمكانية تحقيق مشروع هوية وطنية أو مجتمع فلسطيني.

تُعد المعتقلات أحد أهم أدوات ممارسة الهيمنة الاستعمارية على أجساد الفلسطينيين، حيث أنَّها تعمل على محاصرة الأجساد داخل جدران ووراء قضبان حديدية وظروف حياتية قاسية، وتعمل على التحكم في الأسرى من خلال ضبط الجسد وفرض مواعيد زمنية للنوم والأكل والفسحة، بالإضافة للتحكم

بوجود الجسد في المكان من خلال تحديد مساحات الحركة، وفي مرحلة التحقيق يتعرض الجسد للتكبيل، والضرب المُبرح، والتعذيب بأساليب مُختلفة بما فيها استهداف الأعضاء الجنسية والتناسلية بالضرب، والإهانة للمرأة والرجل على حد سواء، بدوافع سلطوية جسدية ونفسية وثقافية.

المُعتقلات هيَّ فضاء تطبيقي لنظام العزل وممارسة الهيمنة على الأجساد المحكوم عليها، ويقوم هذا النظام على قطع صلة المعتقلين مع العالم الخارجي، من خلال شكل بناء المُعتقل وموقعه، وتنظيمه المعماري الداخلي، حيث تتكون من أقسام منفصلة، وكل قسم من الغرف تتفاوت مساحاتها، والّتي تصل أكبر مساحة لها 2.5×2 وتشمل مُرفق دورة المياه، معزولة تمامًا عن العالم الخارجي والعالم الداخلي للسجون.

بالإضافة إلى غرف العزل الانفرادي، ونظام الأحكام العالية والّتي تَصِل إلى مدى الحياة (المؤبد)، وتحديد شكل المعرفة الّتي يستطيع الأسير الوصول إليها – سواء من خلال وسائل الإعلام المطبوعة أو المسموعة والمرئية – عبر الرقابة على المضمون، وتقديم بديل يتمثل بالرؤية الصهيونية، وثقافة لا تتصل غالبًا بمقاومة الاستعمار؛ وذلك في إطار خطة هدم الوعي الجسدي المقاوم وإنشاء وعي مهزوم مكانه.

إنَّ هذه الأدوات التعذيبية تُمأسَس لِتُمارس فكرة إخضاع جسد الأسير للسيطرة على وعيه وضبطه؛ والتحكم بجسده وإعادة إنتاجه، ضمن ديناميات التدخل في أدق تفاصيل حياته داخل غرفة التحقيق والاستجواب، سواء كان تدخلًا بالتعذيب الجسدي أو النفسي، أو من خلال نظام المعرفة والمراقبة.

تؤكد وجود حالات التمرد الّتي تعيشها الأجساد داخل هذه الغرف، على وجود وعي مُضاد، قادر على فهم بُنية هذه السلطة وتفكيكها، هذا التفكيك يُساهم بقدرة الأسير على مقاومة/التمرد على هذه السلطة، وتحويل هذه المقاومة إلى مجموعة من الممارسات القيمية الّتي أصبحت تُعرف باستراتيجيات الصمود في مُعتقلات الاحتلال.

بعبارات أُخرى؛ فإنَّ كل تصعيد في الممارسات الانضباطية والتعذيبية الّتي يقوم بها المحقق، تخلق ممارسات مضادة لأهداف منظومة الضبط المُمارسة على أجساد الأسرى، هذا الوعي المُضاد متشكل من مجموعة من التجارب الاجتماعية والسياسية والثقافية الّتي يخوضها الجسد في الفضاء السياسي والاجتماعي، ويحصل فيها الجسد على هذه المعرفة بشكل واعٍ و/أو غير واعٍ، وهذه التجربة تُصبح مُخزنة داخل الجسد كمواقع للخبرات، كذلك الوعي من تجربة الأسير في غرفة التحقيق، وهو الوعي الّذي يتحقق بمجرد اعتقال الأسير، حيث يبدأ الجسد بتعلم معارف جديدة حول علاقته بالجسد الآخر (العدو) ويقوم الجسد بترتيب علاقته معه، كما و الوعي من خلال تجربة الأسرى الآخرين. وتلعب هذه الخبرة التراكمية دورًا في قدرة الأسير على المواجهة والمقاومة، أو الضعف والانهزام في التحقيق.

الإشكالية

تتلجأ السلطات الاستعمارية إلى تطوير أدواتها في التحقيق بدمج التعذيب بالعنف، مستخدمة الحواس والعقل كأدوات تعذيب يومي، بالإضافة لاستخدام أداة الاستشعار بالسلطة بوساطة نظام المراقبة أو السلطة المعرفية[1]. مما يضعنا كدارسين لموضوع الأسرى أمام نظام وتركيب مُعقد من ممارسات القمع الحداثوي المُركب الّذي يقوم عليه نظام المُعتقلات، وهذا يضعنا بمواجهة تساؤل: لماذا تُعد دراسة الوعي الجسدي مُهمة وضرورة؟.

تتركز أهمية الوعي الجسدي للأسرى في أنَّها السلاح الّذي يستطيع الأسير من خلاله المواجهة والمقاومة والتحدي، حيث يقوم هذا الوعي بتفعيل مواقع القوى داخل جسد الأسير والّتي تمكّنه من الصمود أمام مُمارسات التعذيب المُختلفة، كمّا أنَّها تشكّل وعي مُضاد أمام عملية محو الرابط الجمعي، الّذي يربط الأجساد الفلسطينية بطبيعة الألم والمصير المُشترك، حيث يَخلق هذا الوعي من

[1] وليد دقة، *صهر الوعي .. أو في إعادة تعريف التعذيب*، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010)، ص20.

تفاصيل التعذيب المُختلفة وممارسات السيطرة رصيد آخر في فهم نظام السلطة الاستعمارية في المعتقلات.

في هذا نجد أنَّ المُستهدف الأساسي في غرفة التحقيق هو إعادة تشكيل الوعي الجسدي؛ لأنَّ الهدف الأساسي هو إخضاع الجسد الفلسطينية المقاومة الفاعلة، ولا يكون التعذيب مُقتصرًا على الفعل المقاوم الحاصل، بل على الحد من إمكانية حدوث فعل مقاوم آخر أيًا كان شكله، فالأساس هو الحصول على الفلسطيني بوعي مستكين كجسد وذات.

بناء على ما سبق؛ تقوم الدراسة على محاولة لفهم التشكلات المختلفة الّتي تطرأ على الوعي الجسدي خلال فترة التحقيق، وبعد الانتهاء منها، حيث بحثت في الكيفية الّتي يحاول الجهاز القمعي/المحوي في التحقيق ضبط الأجساد الفلسطينية وقمعها، وإعادة تشكيل وعي جسدي جديد لا يُشكل أيَّ خطر على الوجود الاستعماري. ومن ثمَّ معرفة الكيفية التّي يقوم بها الوعي الجسدي الجديد يتشكيل الهوية الذاتية والوطنية للأسير

الفرضية

تفترض أنَّ وعي المُستعمَر الفلسطيني ووجوده، وعي جسدي مستمد من التجارب الّتي خاضها جسده؛ سواء كانت بانخراطه في حيز المقاومة، أو الّتي تشكلت بفعل الممارسات الاستعمارية المُستمرة والهادفة إلى استبعاده عنها. ويُعد الاعتقال أحد أبرز هذه الممارسات؛ فغرفة التحقيق ساحة للمواجهة والعزل، يُجبر فيها الفلسطيني على الحضور ومواجهة محاولات تشكيل ذاته من خلال التفاصيل الّتي تبنى عليها غرفة التحقيق، من عزل وتكبيل وسيطرة ومراقبة غير مرئية، والّتي تُتيح للمحققين متابعة أدق تفاصيل حياة الأسير، وتجعل من الأسير منضبطًا في سياق المراقبة حتّى لو لم يكن هناك مُراقب.

من زاوية أُخرى؛ إنَّ هذه الغرفة والمساحة الضيقة لا تلغي فكرة وجود مقاومة في ظل المواجهة الجسدية الحاصلة، فلقد أثبتت العديد من التجارب وجود نماذج مقاومة بأشكال مختلفة، مثل المقاومة السلبية الّتي تقوم على ردة الفعل غير المتناسبة مع سياق الاعتقال، وجعل المحقق يقوم بتنفيذ كافة المهام الّتي يجب عليه تنفيذها دون أي مساعدة من الأسير الفلسطيني، مثل أنّ يقوم المحقق بمعاقبة الأسير الفلسطيني بالوقوف أو وضعية الجلوس على الكرسي الوهمي، ولا يُبدي جسد الفلسطيني أي مساعدة في تحقيق هذا الهدف، أو على سبيل مثال آخر الضحك في سياق معين، والغناء، وهكذا.

كما تتم المواجهة من خلال فكرة المعارف الموجودة بدواخلنا كبشر، والّتي لديها قدرة كبيرة على إعادة احتواء الجسد ضمن الجسد العام للمقهورين في العالم، وهذا يخلق فكرة تحدي لدى الأسير الفلسطيني بوجوب الصمود، كما أنَّ مفاهيم الإيمان والمصير الثوري تشكل أداة تحدي وصمود، أو أنّ تكون النزعة الإنسانية ذاتها متمردة لا تقبل الإملاء ولا تستوعب فكرة السلطة بشكل عام. "حيث أنَّ التعذيب الجسديّ لا يولّد سوى النفور والعدائية والمزيد من التحدي، ويصبح من الصعب التحكم في المعتقلين الّذين خضعوا لتدابير استجوابية مؤلمة، بطرائق أخرى. فلا يتمثل أثر التعذيب الجسدي بقمع الضحية، بل بتعزيز ثقتها بنفسها وبنضوجها[2]".

في المقابل هناك حالات لم تستطع استحضار أساليب المواجهة المختلفة، وفقدت قدرتها على تحمل الألم وتشتيته، إلّا أنَّ هذه الأجساد تُصبح واعية جدًا لفعل الانهزام الّذي قامت به حتّى في أكثر لحظاتها ضعفًا، وتولد هذه الحالة الكثير من الاحتمالات، والّتي يُمكن أنّ نذكر اثنين منها؛ أولًا: إعادة تجربة المقاومة بغض النظر عن الجدوى وعن إمكانية اعتقاله مرة أخرى، ثانيًا: أنّ ينطوي الشخص

[2] لمزيد من المعلومات أنظر كتاب *عقيدة الصدمة* نعومي كلاين والّذي يتحدث فيه عن دليل كوبارك: والّذي استخدم لاستجواب المُعتقلين واستخراج المعلومات مُتأثرًا بأسلوب د/كاميرون العلاج بالصدمة، العودة للمصدر: نعومي كلاين، *عقيدة الصدمة.. صعود رأسمالية الكوارث* (ترجمة: نادين خوري)، (بيروت: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، 2011) ط3. تاريخ الدخول للموقع (2018/11/24) < http://www.bookleaks.com/files/fhrst4/581.pdf >.

على ذاته، فيبتعد عن جسده الّذي يعتبره في مرحلة معينة أنَّه قد خانه، وعن علاقته بأجساد الفلسطينيين الآخرين.

من هنا فإنَّ الوعي الجسدي المُتشكل باستمرار نتيجة لانخراطه بساحات المقاومة أو باستبعاده عنها، يخلق بدائل قادرة على التعامل مع الحدود الاستعمارية الانضباطية، وقادر على خلق بدائل لمقاومتها. ففي حالة الاعتقال كأبرز ممارسات الاستعمار؛ تتبدل علاقات السلطة، وتصبح موازين القوى أكثر تباينًا لصالح المحقق، ولكنّي أفترض أيضًا بأنَّ وجود الوعي المُكتسب من الصراع مع المستعمِر ومقاومته، ورفض هيمنة المُستعمِر قادر على أنّ يكوّن وعيًا مُضادًا أثناء عملية التحقيق والتعذيب، على الرغم مما تنطوي عليه هذه العملية من حصر لجسد الأسير الفلسطيني وعزله.

دراستي بحثت في تشكلات الوعي المُحتملة والمحددة بغرفة الاستجواب والتحقيق باعتبارها فضاءً قمعيًا يحمل أيضًا إمكانية التحول لفضاء مقاومة، ومن هذا الافتراض سعيت لفهم كيفية إعادة تشكّل الوعي الجسدي للأسير الناتجة عن المقاومة أو التعايش والانهزام وانعكاس هذا على تصور الأسير عن ذاته من خلال قراءة لحظات الضعف والقوة الّتي يعايشها الأسير خلال عملية التعذيب.

الأهمية

تطورت فكرة السجن كبديل وموازي لفكرة التعذيب العلني الّذي اشتهرت به ممارسات السلطة القمعية عبر العصور، حيث يتم التعامل مع المحكوم عليهم كونهم مجانين، بمعنى أنَّ سلوكياتهم خارجة عن عقل السلطة، ومع تبلور هذه الفكرة وضّح لنا ميشيل فوكو في كتاباته أنَّ السجن كغيره من مراكز

الدولة؛ مكان لبث السلطة والضبط والتحكم بالبشر بطريقة غير مباشرة،[3] من خلال نظام السجن الفعال القائم على المعرفة والمراقبة، والّتي تسعى لإنتاج أجساد مثالية بانضباطها[4].

على الرغم من ذلك؛ أشار فوكو إلى السجن باعتباره "مكانا لإعادة إنتاج الجريمة بحرفية أكثر[5]"، هذا يعني بأنَّ السجن لم يعد مكانًا للضبط أو إعادة التأهيل، بل إنّه المكان الّذي تُمارس فيه أساليب السلطة والقمع محاولة بالوصول إلى ضبط الذوات المقاومة، ولكنّ تبقى هذه السلطة تشحذ همم المحكوم عليهم من أجل مقاومة نظام السلطة والتحرر منه.، بحرفية ومعرفة وخبرة أكثر.

أطرَّ فوكو بذلك مفهوم الميكروفيزيائي في الدول السيادية وهو دخول المجتمع كله في شبكة الانضباط، وبالتالي السيطرة والرقابة على فعالية الجسد الجماعي من خلال الجسد الفردي. بهذا، تتحول الأجساد جميعها إلى أجساد منضبطة "حداثوية"، قادرة على فهم مواضع السلطة والقوة[6].

أكما في الحالة الاستعمارية فإنَّ السجن/ المُعتقل مكان للضبط ومحو المُستعمَر من داخله، حتّى لا يُشكل أيَّ حالة مُضادة للمشروع الاستعماري، لهذا يُعد المُعتقل أداة أساسية في ضبط الأجساد؛ للسيطرة على مشاهد المقاومة وانتشارها. والتعذيب داخل هذه المُعتقلات له هذه الوظيفة الأساسية، وإنّ أُدرج تحت خانة الحصول على الاعتراف، إلّا أنَّه جاء بدافع الانتقام في المقام الأول، وفرض السيطرة وضبط المجتمع المستعمَر الّذي يقاوم الاستعمار، والّذي يُمجد استراتيجيات المقاومة والمقاومين.

بناء عليه؛ تُعتبر دراسة المعتقلات أساسية في فهم التحولات العامة في الممارسات الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية، وكذلك لفهم مفاصل السلطة الاستعمارية وآلية عملها، حيث تشكل المعتقلات

[3] ميشيل فوكو، *المراقبة والمعاقبة.. ولادة السجن*، (ترجمة: علي مقلد)، (بيروت: مركز الإنماء القومي، 1990).

[4] فوكو، *المراقبة والمعاقبة*.

[5] ميشيل فوكو، ، *تاريخ الجنسانية وإرادة المعرفة*، (ترجمة: سليمان حرفوش) (بيروت: التنوير للطباعة والنشر، 2017).

[6] المرجع السابق، ص 33.

الميدان المُصغر لحقل الصراع الفلسطيني مع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني. لذلك ترتكز الدراسة على تحليل الكيفية الّتي تحاول بها الممارسات التعذيبية للأسرى في غرف التحقيق إخضاع الأسير الفلسطيني، وانعكاس ذلك على الممارسة الملموسة للفعل المقاوم والوعي الوطني للأسرى.

تتناول الدارسون الفلسطينيون قضية الأسرى من جوانب عديدة ومهمة، فقد تناولت دراسة كل من اسماعيل الناشف ولينا ميعاري ما يتعرض له جسد الأسير الفلسطيني من تعذيب وانتهاك وامتهان بمختلف الأدوات الاستعمارية للتعذيب داخل المعتقلات الاستعمارية، واستعرضت صور وأدوات التحقيق والتعذيب والاستجواب[7]، وكيفية مقاومة هذه الهيمنة الاستعمارية ببناء هوية ثقافية وبناء اجتماعي داخل المعتقلات، وكيفية مقاومة أساليب التعذيب والضغط الاستعمارية، وفهم الأدوات الّتي تستخدمها المنظومة الأمنية الاستعمارية، وكيف تعمل للحصول على المعلومة وصناعتها[8].

تطرقت دراسات آخرى للحديث عن الآثار النفسية والجسدية والوظيفية الّتي تبقى وتؤثر على الجسد المحرر من المعتقل، حيث؛ تناولت فردوس العيسى الآثار النفسية الّتي يتركها التعذيب والاعتقال على أجساد ووعي الفلسطينيين الأسرى، وتطرقت لنقاش الكيفية الّتي يتم فيها استخدام المعرفة في العلوم النفسية والمجتمعية في بناء أدوات وممارسات التحقيق والتعذيب[9].

بالإضافة إلى دراسات وتقارير مؤسساتية دولية وقانونية وحقوقية صنفت هذه الأدوات بين المباح وغير المباح قانونيًا وحقوقيًا في القانون الدولي أو المحلي، ودرست تطور وتراجع أدوات التحقيق

---

[7] Lena Meari, *Sumud, A Philosophy of Confronting Interrogation,* (Davis: University of California Davis ,2011) un published PhD thesis.

[8] Ismail Nashef, *Palestinian Political Prisoner: Identity and Community*, (New York: Routledge, 2008).

[9] فردوس العيسى، *أساليب التحقيق في مراكز الإعتقال الإسرائيلي بين استخدام نظريات علم النفس والأخلاقية المهنية*، (رام الله: هيئة شؤون الأسرى والمحررين، 2017).

والتعذيب لتفرض هيمنتها على هذا الجسد الأسير، وأبرز هذه الجهات؛ مؤسسة الضمير وهيئة شؤون الأسرى والمحررين، وبتسيلم، والحق، التّي ترصد أدوات التعذيب داخل المُعتقلات الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية.

تكتسب دراسة إعادة تشكيل الوعي الجسدي الفلسطيني بعد تجربة التحقيق والتعذيب أهمية كبيرة؛ لأنَّ البحث حول مفهوم الجسد يُعد أحد ركائز الهوية والثقافة الّتي يتم دراسة الجسد في وعائها، فالجسد حيز أساسي لترسيخ السيطرة الاستعمارية؛ لأنَّه يشمل العقل والوجدان، بالإضافة للهوية والثقافة، فهو الفضاء الرئيسي لنقش السلطة ولمقاومتها كذلك

المنهجية

حاولت من خلال دراستي التعرف على الوعي الجسدي للأسرى، وهو الوعي الّذي يتشكل بمعايشتهم تجربة التحقيق والتعذيب، واستخدمت لتحقيق هذا الهدف المنهج الكيفي بتحليل مضمون شهادات منشورة لأسرى كتبوا تجربتهم الاعتقالية

حيث يهدف التحليل إلى الإجابة على مجموعة من التساؤلات الّتي تبحث في:

- أثر تجربة التحقيق على الوعي الجسدي؟
- أثر أدوات التعذيب المختلفة على تشكلات الوعي الجسدي؟
- إمكانية وكيفية تحول غرف التحقيق إلى فضاء للمقاومة؟

تأخذ هذه الدراسة المنهج الوصفي الكيفي من خلال أسلوب تحليل المضمون ، وآداة المقابلة، للإجابة على تساؤل البحث الأساسي؛ وهو الوعي الجسدي للأسرى الفلسطينيين في غرفة التحقيق والاستجواب "الاسرائيلية"، وذلك لأنَّ هذين الأسلوبين يتيحان فرصة أكبر للحصول على المعرفة من مصادر متنوعة، ولهذا تم استخدام منهج تحليل المضمون على الأدبيات (الرواية/القصة القصيرة) الّتي كتبها الأسرى داخل أو خارج المعتقلات الاستعمارية حول تجربتهم الاعتقالية، بالتركيز على مرحلة التحقيق

والتعذيب، وتم اختيار هذا المنهج للكشف عما يمكن للذاكرة كتابته، وصياغته، وكيف يتم التعبير كتابيًا عن تجربة الألم الناتجة عن التعذيب والعزل، أما المقابلات فهيَّ تعطي صوت وتعابير للكثير من الصمت الموجود داخل الروايات المكتوبة، حيث أنَّ المقابلات تعطي فرصة أكبر للجسد وتعابيره في توصيفه لتجربته أكثر من الذاكرة المكتوبة.

لتحقيق هذا الهدف تم تحليل مضمون مجموعة من الروايات والقصص القصيرة الخاصة بتأريخ تجربة التحقيق والاستجواب داخل زنازين التحقيق "الاسرائيلية"، وتم اختيار روايات صدرت بعد عام 2000، وتخصصت في وصف تجربة التحقيق بعد عام الـ 2000؛ وذلك أنَّه في عام 1999 صدر قرار من المحكمة العليا بمنع التعذيب الجسدي الشديد، وتحول فيه التعذيب من فن يُقدمه كل مُحقق بحسب قدرته على الخداع والضغط والترهيب والتسبب بالأذى، إلى مجموعة من القواعد والقوانين الّتي تحكم المحققين، هذا القرار القضائي لم يمنع من وجود التعذيب الّذي تم حظره لأسباب قانونية وانسانية وأخلاقية، ولكنه يحتاج إلى استصدار إذن قضائي لممارسة هذا العنف، تحت مبررات الضرورة الأمنية.

لهذا تم اختيار كل من الروايات التالية؛ عصمت منصور "سجن السجن"، مروان البرغوثي "1000 يوم من العزل الانفرادي"، أحمدسعدات "صدى القيد"، وليد الهودلي "ستائر العتمة" في الجزء الأول والثاني، عائشة عودة "أحلام بالحرية"، فالنتينا أبو عفصة "أنا حرة".

تم الاعتماد في منهج تحليل المضمون على تصنيف الموضوعات الأساسية والثانوية (توصيف التجربة/ كيفية التعامل مع تجربة التحقيق والاستجواب/ المعرفة والوعي/ والوعي الجسدي للأسرى قبل مرحلة التحقيق وأثنائها وبعد الانتهاء منها) الّتي كتبها الأسرى في رواياتهم، ومن ثمَّ الوقوف على بعض العبارات أو المصطلحات، أو الرموز الّتي أولوها أهمية كبيرة، والطريقة الّتي تم تأويل الأحداث فيها.

جرى تحديد واختيار المقابلات المعمقة عن طريق العينة المستهدفة، القائمة على أسلوب كرة الثلج في تحديد المبحوثين والوصول إليهم؛ والأسرى الّذين شملتهم عينة الدراسة باستخدام المقابلة (عبدالله/ العمر:28 سنة/ سنة الاعتقال: 2008-2013/ المنطقة: وسط/ التنظيم : فتح) . (خالد: العمر:34/ سنة الاعتقال:2014/ المنطقة: وسط/ التنظيم: حماس) (أحمد/ العمر 26/سنة الاعتقال:2012/ المنطقة:وسط/ التنظيم فتح) (طارق/ العمر 38/ سنة الاعتقال: 2008/ المنطقة: وسط/ التنظيم: جهاد الاسلامي) (رشا/ العمر:40/ سنة الاعتقال: تعرضت للاعتقال 5 مرات بين الفترة 1999 – 2013/ المنطقة: شمال/ التنظيم: جهاد اسلامي) (معاذ/ العمر: 25/ سنة الاعتقال:2018/ المنطقة: وسط/ التنظيم: جبهة شعبية) بالإضافة إلى إجراء مقابلات جماعية مع مجموعات تتكون من 3 أسرى من خلفيات سياسية مختلفة.

صممت أداة المقابلة المعمقة بالطريقة الّتي تسمح للمبحوثين بالتعبير بحرية أكثر عن تجربتهم؛ وذلك من خلال طرح سؤال مفتوح حول "سرد التجربة الاعتقالية"، وستقوم الباحثة في هذه المقابلة بعنونة بعض التفاصيل والّتي يكون المبحوث قد سرد الكثير من التفاصيل بجانبها؛ وهيَّ: لحظات الاعتقال، لحظات المواجهة الأولى مع السجن والزنزانة، والمواجهة مع المحققين، والعزل.

ركز التحليل على ما يجيب عن اسئلة البحث فيما يتعلق بتجربة الأسرى وتحولات الوعي لديهم، وبما يخدم الأهداف الأكاديمية للبحث، مع الالتزام بما يرى الأسرى أنفسهم أنّه مادة معرفية يمكن أنّ تكون مفيدة في تعميق المعرفة القائمة حول الأسرى وتجربتهم النضالية، حيث ستتم مراجعة المقابلات وتقاريرها وتحليلها مع الأسرى لإعطائهم دورًا أكثر فاعلية في ما ستتم كتابته عن تجربتهم.

خلفية عامة

حتى نكون قادرين أكثر على فهم الغاية المستمرة في استهداف الوعي الجسدي والسيطرة عليه من قبل السلطات الاستعمارية، سأقوم بعرض تصور المدرسة الظاهراتية حول الجسد كونها المدرسة التّي تُعيد

الاعتبار إلى الجسد وتتعامل معه كجوهر، بعد أنّ تم التعامل معه لِحُقب طويلة على أنَّه عرضي وزائف.

قدَّم فريدريتش نيتشه تصورًا خاصًا عن الحياة الجسدية بأنَّها الحياة كاملة، وأنَّه صانع المعرفة من خلال احتكاكها بجسده، فلا يمكن حسب تصوره أنّ تتم أي معرفة خارج حدود هذا الجسد وارتباطاته الحسية، وكان مرلوبونتي قد أكد على ضرورة إعادة الإنسان إلى العالم. أي أنّه من الضروري العودة إلى التجربة الحسية بما هي تجربة تكشف عن ارتباط الجسد بالعالم، وعلى انفتاح الأنا المتجسد على الآخرين[10].

قيمة الجسد عند نيتشه ومرلوبونتي تتحدد كأداة لإدراك العالم؛ فالوجود ندركه ونحسّه ونفكّر فيه من خلال الجسد، وبذلك نتبين من خلال تجربة الجسد استحالة الفصل بين الوعي والجسد حيث لا يظهر العالم للإنسان إلّا لأنّه يتميز بالوعي ولكنه وعي لا يتعالى عن الجسد، إنّ هذا التصور من شأنه أنّ يسمح لنا بالمرور من مفهوم الذات المفكرة إلى مفهوم الذات المتجسدة [11].

يتوضح لنا من خلال ما سبق أنَّ الوعي أداة من أدوات الجسد يستخدمها للوصول إلى أناه، فهذا الوعي هو المُحرك الأساسي للذوات المُفكرة، ويُصعب السيطرة عليه أو التحكم به من خلال قوى خارجية، لأنَّ عملية تأطيره وأدلجته أصبحت مُعدّة وجاهزة من خلال تجاربه وممارساته الحياتية داخل مجتمعه الثقافي والسياسي، وفيها تختزن مواطن القوة الثقافية والذاتية، ومواطن التحمل والصبر والإصرار، فهذا الوعي الجسدي هو الوسيط بين الفرد ومجتمعه للاندماج به، وموطن المقاومة بين المُستعمَر والمُستعمِر لحفاظ المُستعمَر على ذاته.

---

[10] علي الحبيب الفريوي، "ميرلوبونتي وفيمياء الجسد الخاص: أنطولوجيا الجسد: سجال في مفهوم الطبيعة والإنسان،" *مجلة الفكر العربي المعاصر* (1999): 110-111.

[11] المصدر السابق.

في هذا يُعيد نيتشه الإعتبار للإنسان القوي مالك الجسد القوي والإرادة الثابتة، والقادر على التحدي والمواجهة وتمثل القوة من خلال التحكم بسياقاته وبقدرته على الاستشعار والتنبؤ، وذلك نتيجة لتجاربه المتراكمة والّتي شكلت وعيه الجسدي[12]. فالقوة عند نيتشه تعني الفكر/الوعي/ العقل/ الأخلاق.

إنَّ الوعي الجسدي مُتشكل من قوة الإنسان وارتباطه بماضيه وإيمانه، لذلك فهو مُستهدف أساسي في عملية المحو والاستبعاد عن ساحة تشكّل وعي جمعي مقاوم، وقادر على مواجهة المُستعمِر، والهدف من هذا يمكن التعبير عنه بفكرة باتريك وولف "المحو والإنشاء[13] "؛ أي محو المحتوى الفلسطيني المقاوم، والتاريخ والهوية الخاصة به، وإنشاء مكانه أجساد غير مُمارسة للفعل الوطني والمقاوم، وغير مُعيقة لاستكمال المشروع الاستيطاني.

الجسد ليس فقط حيزا لفرض السيطرة وممارسة السلطة، بل إنه أيضًا المكان الّذي يُظهر فيه المُستعمَر مقاومته وقدرته على الاستمرارية والصمود، فهو لا يعمل ككتلة واحدة وأي ألم يلم به يطال كافة جسده، بل له وعي يحكمه وقدرة تمكنه من تحمل الضغوط وإرادة قادرة على التحكم في مصدر الألم ومكانه، وهذا مصدر من مصادر مقاومة الجسد، لأنَّها تعني دائما عدم فرض السيطرة الكاملة على الجسد.

في هذا نرى لماذا يركز فوكو على الجسد الواعي كونه المُحافظ على ذاته، بمعرفته سياقات السلطة، وشروط التحرر من الجمود القمعي الّذي يُعاني منه، فالقدرة على تفكيك بنية السلطة أساسية في التحرر منها والوصول إلى الحرية[14]. فإنَّ عملية تفكيك هذا النظام المعرفي تُعدّل من موازين القوى

[12] فريدريتش نيتشه، *في جينيولوجيا الأخلاق* ، (ترجمة: محمد مجدوب)،(بيروت، مؤمنون بلا حدود، 2017).

[13]Patrick Wolfe, “Settler Colonialism,” “Settler Colonialism and The Elimination of the Native.” *Journal of Genocide Research* (2006) 8(4).

[14] فوكو، *تاريخ الجنسانية*.

وتغيّرها؛ بهدف المساهمة في طرح فضاءات مناهضة لمشروع الاستحواذ على الإنسان من خلال بعثرة وإلغاء حياته؛ وتُساعد على إحداث صمود يومي، وإنتاج إنسان في زمان ومكان محددين[15].

يرى نيتشه بأنَّ فهم السلطة يُعطي الجسد مزيدًا من القوة والإرادة للإلتزام بالعهود الّتي يقتطعها الفرد على ذاته. هذا الوعي يتحقق من خلال القدرة على إعمال الجسد بأعماله المنوطة به تحت القمع، فلكل جزءٍ بالجسد وظيفة تساعده على تحمّل الألم وتجاوزه[16]. أيضًا للألم قدرة على جذب الناس بعضهم ببعض [17]، وهذا الجذب يترتب عليه تبعيات متعلقة بالتخفيف من وطأة هذا الألم؛ لأنَّ هذه الحالة الجماعية تتقاسم ألم الجسد معنويًا، وتزيل عنه حالة الفردية.

إنَّ الجسد يصبح موقع مقاومة متحررة من الاقصاء والتعذيب، عندما يتعلم استخدام نتاجات هذه السلطة؛ فإن المخاوف الّتي تسيطر على الجسد ستبدأ بفقدان قوتها وسيطرتها عليه، فالجسد يحمل الكثير من مواقع المقاومة بداخله، والّتي تشكلت من خلال الاتصال بالوعي الماضي، والتاريخ الماضي والمشاعر القديمة؛ فتصبح هذه المواقع بدورها مخزون القوة والإبداع الّتي تحملها العواطف غير المختبرة وغير المسجلة[18].

إنَّ أهمية الجسد الفلسطيني الواعي تتشكل من محاولاته خلق استراتيجية مقاومة مضادة في وجه عمليات التعذيب الجسدي والنفسي، كما أنَّه يعيق محاولات إعادة التشكيل والصياغة المُمنهجة للذات المقاومة من خلال اعتقالها وعزلها وتعذيبها، لذلك كما ذكرت سابقًا الهدف الأساسي في غرفة التحقيق والتعذيب، هو إعادة إنتاج إنسان جديد، إنسان منفرد وساكن بدلًا من ذات فاعلة.

---

[15] نادرة شلهوب – كفوركيان، "القدس وفلسطين والسياسات الكولونيالية اليومية،" *مجلة الدراسات الفلسطينية*22، ع85 (2011) :56-54.

[16] نيتشه، *في جينيولوجيا الأخلاق*.

[17] Meari, *Sumud; A Philosophy of Confronting Interrogation.*

[18] أورد لورد، *الشعر ليس رفاهية* (نيويورك: مطبعة نساء ملونات، 1977).

يهدف المحققون من خلال التعذيب إلى الوصول إلى مخازن القوة تلك الّتي نحتمي بها، لتُصادرها منّا كفلسطينيين، لأنَّ هذه المصادر تشكل خطرًا أيضًا على استكمال المشروع الاستيطاني، كونها تتمثل في مصدر القوة النابع من التاريخ والألم والتراث المقاوم المشترك، ومصادر القوة المُستمدة من جسد المجتمع كاملًا، ومن حالة التضامن الّذي سعى الاستعمار إلى التخلص منها دومًا.

هذه المصادر هيَّ مُشكلات الوعي الجسدية، ويبقى هنا أهمية السؤال عن قدرة: أجهزة الدولة الأيديولوجية الاستعمارية وأجهزتها القمعية في غرفة التحقيق، ونظام الرقابة، ووسائل التعذيب المُختلفة الّتي تستخدمها على خلق تحولات على الوعي المقاوم الجسدي للأسرى؟ وإذا تم ذلك للحظات فكيف تمت مقاومته؟ وإذا لم يكن هناك مقاومة فما انعكاس ذلك على تشكل ذات وطنية مقاومة؟

الفصل الأول: كتابة الذاكرة المستعمَرة

مقدمة

تُعد كتابة ذاكرة الأسرى الفلسطينيين في المعتقلات "الاسرائيلية" فعلًا مقاومًا في حد ذاته، لأنَّها تؤكد على نقطتين أساسيتين: الأولى: يتمثل في التأكيد على وجود ممارسات وسُبل للمقاومة خاصة بالأسرى بأشكال مختلفة من داخل العزل والاعتقال، وذلك من خلال الكتابة، لإعادة الانخراط في المجتمع الفلسطيني، وكسر حاجز العزلة والتغييب الّذي يفرضه نظام المعتقلات، والثانية: مرتبط بالتوعية الأمنية والوطنية، تلك المسؤولية الّتي تحملها الأجساد المقاومة الّتي خاضت تجربة التحقيق، والّتي يهدف الأسرى من خلالها إلى تجهيز الأجساد الفلسطينية الموجودة خارج المعتقلات، بالمعرفة اللازمة حول مرحلة التحقيق وأدواته وخطابات الاستجواب، وكيفية التعامل مع هذه المرحلة؛ وذلك للحفاظ على الوعي الفلسطيني الجمعي من محاولات المحو/الكيّ.

يُعدّ البحث في الذاكرة المقصية تحت الاستعمار ذا أهمية كبيرة؛ في إبرازه لأصوات المقموعين والمهمشين؛ حيث تُشير كتابات الذاكرة إلى تلك الأماكن الخفية والمظلمة الّتي شكلت الأحداث العامة والخاصة في أحداث المقاومة، ومورست بحقها الانتهاكات، كما أنَّهم صوت أساسي ولكن مستثنى في التاريخ؛ لذلك يجب علينا تركيز الضوء على هذا الصوت وكتابته وتأريخه؛ ليصبح حافظًا لتاريخ المقموعين.

تكتب أصوات المقموعين في الحالة الاستعمارية كوسيلة للبقاء أمام محاولات المحو والإندثار. إنّها تأريخ لتجارب فردية تتميز كلًا منها عن الآخرى، لكنّها في الوقت نفسه تشير إلى اضطهاد جماعي، كما أنّها ذلك الصوت الّذي لطالما حاول المستعمِر إنكار وجوده، وإنكار قدرته على الكلام، لذلك

فكتابة الذاكرة هيَّ المساحة الّتي تُخصص لتفاصيل ومشاعر تجربة المقصيين الّذين لم يكن لهم حضور في التاريخ الرسمي.

هذه الكتابة والتأريخ تأتي من خلال عملية توثيق أحداث المرحلة الّتي عاشوها، والمليئة بالانتهاكات بأشكالها المختلفة، والمتمثلة بجوهر الاستعمار الأساسي؛ وهو سلب حرية المُستعمَرين وامتلاك السلطة على حياتهم؛ وذلك في إطار انتزاع سلطة المُستعمَرين ليس فقط على الجغرافيا والموارد الطبيعية؛ بل تُمارس سلطتها على المستوى الثقافي والهوياتي للمكان والتاريخ بالتزوير والتغيير والتحريف، وإنكار تاريخ الآخر وتحييده ليضعف صوته ويتلاشى.

تتعدى وظيفة كتابة الذاكرة، التحرر من السلطة والسيطرة على الجسد والوعي وصوت المستعمَرين، لذا فإنَّ السيطرة والتحكم بهذا الجسد هيَّ المحور الأساسي في دراستي حول الوعي الجسدي للأسرى الفلسطينيين تحت التحقيق، حيث أنَّه يعد الاستهداف الأخطر تأثيرًا؛ وذلك أنَّ الأماكن تستعيد مكانتها ورمزيتها لدى المستعمَر بمجرد تمثلها في صورة أو واقع (بالأخص إذا كان واقعًا محررًا)، أمّا الاستهداف الهوياتي للأجساد والوعي، ولأصوات وممارسة المقموعين يعد أيضًا تعبيرًا خطيرًا عن السيطرة؛ لأنَّه يحمل بُعدًا أيديولوجيًا يعمل على مستوى الوعي والإدراك لذواتهم كمستعمَرين، وذواتهم كمقاومين.

لماذا يجب أنّ نكتب الذاكرة؟ لأنَّها بالتأكيد وعي نقيض ومضاد للرواية الاستعمارية الرسمية، وللممارسات الإقصائية والتحييدية الّتي يحاول الاستعمار ممارستها بأشكالها المُختلفة، لأنّها أيضًا كتابة حرة، دون قيود لفظية؛ فهي الكتابة الهادفة للانعتاق من الألم، ومن الهيمنة الّتي اخترقت جسده ولامست إدراكه، لأنَّها تعني الكتابة من أجل إثبات الوجود، ورفض السلطة والاستعمار، والسعي وراء الحرية بامتلاك أولى أدواتها وهيَّ الكتابة، فكتابة ذاكرة الألم وذاكرة الحدث هيَّ الإطار الأساسي العام

لفهم التجربة الاستعمارية، وهيَّ أيضًا المكان الّذي يستطيع فيه المقموع والمهمش مقاومة كل محاولات تغييبه.

في هذا فكتابة الذاكرة في الدول المستعمَرة ضرورية لفهم السكان الأصلانيين والمستضعفين والمقصيين، كما أنَّ الذاكرة تتميز بقدرتها على الاحتفاظ بالحدث بتفاصيله وصوره، وإنّ لم تستطع أنّ تستحضرها جميعها لغايات مختلفة، إلّا أنَّها تنتج معانيها المختلفة والّتي تسعى من خلالها إلى البقاء والحفاظ على الهوية.

لهذا تعد كتابة ذاكرة الأسر أداة أساسية في فهم تجربة الألم والوعي الناتج عن هذا الألم خلال فترة التحقيق والاستجواب؛ حيث أنَّ هذه التجربة تعكس أشكال وصور الألم والعنف الّذي مورس على الأسرى بشكل عام، ولكنَّها تُبين أثر هذا الألم على أجساد الأسرى بشكل فردي، وتعكس تجربة أجسادهم خلال التحقيق والاستجواب، والكيفية الّتي تمثلت بها هذه الأجساد القوة والضعف، وكيف تعاملت مع الحالتين، فكتابة الذاكرة في الأسر هيَّ تعبير عن الهوية الجسدية بكل تمثلاتها الوطنية والسياسية والثقافية في زنازين التحقيق والاستجواب.

الذاكرة الفردية والجماعية

إنَّ محاولة التأصيل لكتابة الذاكرة كجزء من الكتابة التاريخية يعود بنا إلى المدرسة المرجعية الّتي أسسها موريس هالبواكس حول الأُطر الاجتماعية للذاكرة، في عشرينيات القرن الماضي، حيث نسب الذاكرة إلى كيان جماعي يسميه المجموعة أو المجتمع، وتتجلي أهمية هذا المفهوم في كونه شكَّل مقدمة للتباين الحاصل بين الذاكرة الجماعية من جهة، والتاريخ من جهة أخرى[19].

[19] مولاي عبد الحكيم الزاوي، "جدل التاريخ والذاكرة في الأسطوغرافيا المغربية: حفريات في الذات المغربية المقهورة بلون السياسة،" *شبكة الضياء للمؤتمرات والدراسات*، (د.ت): ص8 .

فالذكريات محصورة داخل إطار اجتماعي؛ حيث تنشط هذه الذكريات بالتقاء أكبر قدر ممكن من المسببات الاجتماعية والّتي تظهر بشكل جزئي، حيث أنّ ما يتم نسيانه يأتي من انتهاء الحدث أو غياب المسببات الّتي تبرزه، أو بقاء نزعة الخوف من السلطة أو الخوف الاجتماعي، إلّا أنَّ هذه الأحداث إنّ لم تحضر فإنَّ الشهود قادرين على تأويل معانيها ومشاعرهم اتجاهها[20].

الشاهد يكشف بشكل واضح في كتابة الذاكرة عن الهوية الجماعية، لذلك فالشهادات تُظهِر أنَّ النفس لا يمكن تعريفها بشروط فردية، إنَّما كذرائع بشرية جماعية تشارك في صراع مشترك، وهذا يفسر سبب تآكلية ذات الفرد الكاتب لذاكرته أو الشاهد واستبداله "أناه" ب "نحن الجماعية[21].

كما أنَّ ما عزز هذه الجماعية هو التحول الحاصل في السؤال ذاته أثناء البحث عن الذاكرة من السؤال "مَنّ" الشخصي والّذي كانه له طابع سلبي على ظاهرة الذاكرات الفردية؛ وذلك لأسباب قد تكون خوف من السلطة أو من المجتمع، وقد تكون للحفاظ على السرية أو الهروب من الحديث عن الذات، فأصبح السؤال ب "ماذا" هو الأنجح؛ لأنّه يعبر عن الترابط القصدي للفعل والغاية المستهدفة منه، وهذا يُساعد إلى الوصول إلى أبعد ما يكون، كما وتعكس حالة الفرد داخل المجتمع[22].

تأخذ روايات الأسرى وشهاداتهم الشكل الجماعي والفردي في سردها، لأنّها تعكس حالة اضطهاد ومقاومة عامة، خاضوها جميعًا، فقد يكون التعبير عنها بشكل مختلف من أسير إلى آخر، وذلك لعوامل مرتبطة بذاتية التجربة للأسير، إلّا أنَّها ومع ذلك تعكس الحدث ذاته، وتختلف في التعبير عنه وتأويله، ومن هنا نفهم السبب الّذي يجعل الأسرى ينزعون إلى التعبير عن تجربتهم كجزء من التجربة العامة كما ظهر في المقابلات، فهم يسردون تجارب الآخرين أيضًا أثناء سرد تجربتهم من جهة، ومن

---

[20] ليلى العرباوي، "الذاكرة الجماعية : الأصل والتفرعات،" *أماراباك* 5، ع3، (2014): ص-ص 145-154.

[21] Geogre Gugelberger and Micheal Kearny, “Voices for The Voiceless: Testimonial Literature in Latine America,” *Latine American Perspectives*, Vol. 18, No.3, Part 1 (summer 1991) p8.

[22] العرباوي، "الذاكرة الجماعية : الأصل والتفرعات،".

جهة آخرى يتحدثون عن كل استراتيجية تحقيق وتأثيرها على الآخرين قبل التحدث عن انعكاس التجربة على وعيهم.

الحساسية من تدوين التجربة والبوح بها بشكل فردي وذاتي تنزع فكرة التضخيم أو التقزيم في عملية سرد التجربة والّتي تشكل عائقًا أمام عملية الثقة بهذا المنهج كما سيتم توضيحه لاحقًا، وخاصة فيما يرتبط بموضوع هذا البحث، والّذي على الرغم من أنَّه يبحث في عوامل وأشكال الانهزام أو المقاومة للأسير بذاته، إلّا أنَّها تركز على العوامل العامة الّتي تدفع الأسرى للانهزام أو المقاومة مستدلة بالتجارب الفردية.

كما أنّني لا أبحث في ذات الأسير/ة بمنطق استعماري والّذي يفترض عملية الاستئصال والتحييد الّذي يفرضها على الأسير بعزله بشكل مجرد، بل أتعامل معه كونه فرد وذات مرتبطة بالمجتمع، سواء بمجتمع المعتقل مع الأسرى الفلسطينيين الآخرين، ومع مجتمع الفلسطينيين بشكل عام، وهذه الحالة العامة في الحصول على المعلومات الفردية والمرتبطة بشكل أساسي بهدف البحث؛ وهو دراسة ماذا يحدث في غرف التحقيق؟ وكيف تؤثر وسائل التحقيق والاستجواب على الوعي الجسدي للأسرى، وكيف يتم التحكم بالأسرى بداخل التحقيق، أو كيف تتم عمليات المقاومة المختلفة والمواجهة داخل التحقيق؟ وأحاول الوصول إلى إجابة عن هذه التساؤلات من خلال الذات الواحدة والّتي تعكس تجربة موحدة في محاولات محوها، وكيف يتم مقاومة هذا المحو من خلال اختلاف تجربة أسير/ة لآخر/ى. فالأسير لا يحتفظ بالتجربة كما هيَّ؛ بل يؤولها كما انطبعت في إدراكه ويحاول ترجمتها بالكتابة أو البوح، ولذلك من المهم التركيز على هذه الذاتية، والكيفية الّتي تدرك بها ذاتيته هذه التجربة.

الذاكرة الشفوية والمكتوبة

يتميز الأدب الهامشي بأنَّه شكل من أشكال التمثل الثقافي، والمتشكل ليس فقط على جانب الوضع الاستعماري، بل على هامش الكلمة المنطوقة والمكتوبة للكتابات الّتي تمثل الشعوب المقموعة

والمستعمَرة[23]. والّتي تيسر عملية التمييز بين المستعمِر والمستعمَر من خلال المشاركة في بناء الاختلافات الّتي تشمل الأبعاد الثقافية اللازمة للاختلاف عن مركز الاستعمار[24].

لهذا تحقق كتابة الذاكرة غاية أوسع وأشمل؛ وهيَّ تشكيل هوية الإنسان في زمن ولحظة معينة؛ كما أنَّ الشهادة مصدر لكتابة التاريخ من خلال الذاكرة الشفاهية، وهيَّ تعبير عن لحظة زمنية تتطابق فيها الواقعية التاريخية مع لحظة البوح بها، فصلة الشهادة التاريخية هيَّ مع التاريخ نفسه، ومع الشاهد أيضًا، أي حين نتحدث عن التاريخ فإننا بالضرورة نتحدث عن الذاكرة، أي عن رواية الحوادث وسردها، وعرض المواقف الّتي ما زالت معلّقة بذاكرة الشاهد[25].

للرواية الشفوية هدفان؛ أولهما توثيقي والمقصود به تسجيل وقائع تاريخية محددة في المكان والزمان والأسماء إنّ أمكن، وذلك بديل عن فقدان الأرشيف الوطني أو تكملة له، وثانيهما إنساني والمقصود به توثيق المشاعر الإنسانية والآلام والمعاناة أثناء المرور بتجربة فريدة مثل جرائم الاستعمار الفرنسي في حق الشعب الجزائري[26].

فالشاهد في الأدب الهامشي أو في خطاب الذاكرات يقدم تمثيلًا تصويريًا للتجربة الاستعمارية، ليس فقط محتوى مختلفًا ولكن شكل كتابة مختلف؛ فهو يروي تجربته الخاصة كممثل للذاكرة الجماعية

---

[23]Gugelberger and Kearny, “Voices for The Voiceless,” p10.

[24] Ibid.

[25] رضوان شافو، "أهمية الدور التوثيقي للرواية الشفوية في كتابة التاريخ الوطني (التاريخ المحلي نموذجًا)،" *جامعة الشهيد حمّه لخضر بالوادي* (د.ت). (تاريخ الاستخدام: 2019/2/26). https://www.academia.edu/26776966/ .

[26] نور الدين ثنيو، "الذاكرة والشهادة في كتابة تاريخ الثورة الجزائرية (1945-1962) الثورة التحريرية في الوقت الراهن،" *أسطور* ، ع2 (2015) (تاريخ الاستخدام: 2019/2/25). <https://ostour.dohainstitute.org/ar/Documents/Issue/Ostour02-2015_Issue.pdf> .

والهوية[27]. ويعبر الشاهد عن تجربته الفردية تحت التعذيب والقمع، وعن وعيه خلال هذه التجربة، كتجربة فردية داخل إطار عام من القمع الاستعماري والسلطوي.

لعلَّ أحد المشاكل الأساسية الّتي تواجه كتابة الذاكرة الشفوية الاعتماد كثيرًا على الكلمة المنطوقة، إلّا أن الاعتماد على الكلمة المنطوقة في كثير من الحالات يجعل للصمت صوتًا أو تصحح على وجه التحديد افتراض أنَّ النص سوف يكشف ما لا نعرفه، وهذا يمكن أنّ يكون ما يطلق عليه بالوعي الخفي[28]. فالأصوات تكشف عن الصمت الموجود في كتابات الذاكرة.

كيف يتم التعامل مع هذه الإشكالية؟ لا بد لنا من البداية التأكيد على فكرة أنَّ الأفراد هم ذوات تاريخية، فهم من يحددون المصطلحات الّتي يستخدمونها في التعبير عن موقفهم، حيث يكونون ذواتًا هادفة لها غايتها وتعي أنَّ لها أصواتها الخاصة، فالذاكرة تحتاج إلى الصوت بضمير المتكلم، أو على الأقل إعادة صياغة ذلك الضمير، فلا تقوم الذاكرة الفردية والجماعية بهدفها إلّا بإدراكها لهدفهما وصوتهما[29].

كما أنَّه لم يعد هنالك إشكالية كبرى في توثيق عملية رواية الذاكرة الشفوية، وذلك بسبب تطور التكنولوجيا؛ والّذي يساهم في حفظ المادة الخام كما هي قبل الاستخدام، مشكلة آخرى تواجه كتابة الذاكرة أو تدوينها وجود شخص ثانوي يقوم بتحرير الشهادة أو بكتابتها؛ مما قد يؤدي إلى تآكل الحدود بين الإثنوغرافيا والأدب، إلّا أنَّه يبقى هنالك تمييز واضح بين واجبات المؤلف الإثنوغرافي أو المحرر وواجبات الشاهد[30].

---

[27]Gugelberger and Kearny, “Voices for The Voiceless,” p6.

[28] Ibid, 11-12.

[29] ميشيل ترويو، "القوة في الحكاية،" (ترجمة: ثائر ديب) *أسطور*،ع 9، (2019): ص 175-176.

[30] Gugelberger and Kearny, “Voices for The Voiceless,”, p10.

لتجاوز إعادة بناء الشهادة بأسلوب المؤرخ أو المحرر، ولتحديد واجباته، يجب عليه أنّ يدرك أنَّ تجربة الشاهد وكلماته خاصة به ونتيجة لمحصلة من الأسباب الّتي أنتجتها، لذلك يجب على المؤرخ أنّ يتعامل مع الشهادات الشفوية أثناء تدوينها، بإعطاء الفاعلية الأساسية للشاهد بمصطلحاته وتأويله للحدث، ويقتصر عمل المحرر أو المؤرخ على تدوين التجربة كما هيَّ، وإعادة استخدام هذه التجربة وأنّ يأخذ بعين الاعتبار السياق العام لهذه التجربة، وتقديم هذه الشهادة في مشروع المؤلف بالإحالة إلى الشاهد، وعملية تحليل هذه البيانات واستخدامها سيكون مقتصرًا على هدف البحث.

كما أنّ الذاكرة المكتوبة فهيَّ تبتعد عن هذه الإشكالية، حتّى لو اتخذ المؤرخ لذاكرته أسلوبًا أدبيًا، أو موقع المحرر، إلّا أنّه يبقى هو المدون لتجربته بالطريقة الّتي يرى بأنَّها مناسبة ليقدم ذاته بها، سواء كان تدوينًا صحفيًا أو أدبيًا، أو توثيقيًا، إلّا أنَّه من المهم أنّ يقوم هو ذاته بكتابة تجربته وتصورها؛ وعلى الباحث الّذي يستخدم هذه المعلومات وأنّ يتعامل معها وفق سياقها وتأويل أصحابها، فكما الذاكرة الشفوية تختلف في السرد، فالذاكرة المكتوبة تختلف بذلك الشكل أيضًا.

يمكن أيضًا تجاوز هذه المشكلة تحديدًا في دراسة ذاكرة المستعمَرين والمهمشين، بالوقوف على مستويات وأصناف الذاكرة من خلال ما تتبعته المؤرخة الفرنسية لوسين فالنسي في موضوع الذاكرة في كتابها "أساطير الذاكرة[31]."

- مضمون الذاكرات من زاوية الفائز والخاسر؛ حيث أنَّ الذاكرات المستعمَرة والمستعمِرة لا بُدَّ لها أنّ تتلاقي في سردية الكثير من الأحداث، لذلك سيتم التركيز في الاختلاف بالتأويل وتفسير الحدث، وهذا يعني أنَّ رواية المقموعين والمستعمَرين تسرد الحدث كما بقي في ذاكرتها كذاكرة مقموعة، فالأسير "يتذكر ما كان منكشفًا له، وليس الحدث ذاته[32]"، وهذا مهم في دراسة الوعي الجسدي للأسرى

[31] إلزاوي، "جدل التاريخ والذاكرة في الأسطوغرافيا المغربية،" ص7.

[32] ترويو، "القوة في الحكاية،" ص170.

الفلسطينيين، لأنَّ هذه الدارسة تهتم بكيف تشكلت مرحلة التحقيق في وعي الأسير، وما استطاع إدراكه والتعبير عنه.

– حول وسائل إنتاج الذكرى(التخليد والنسيان): لطالما كان المُستعمِر أكثر انتباهًا لفكرة كتابة التاريخ والتجربة وتخليدها في وثائق، أما المُستعمَر فكان يخشى هذه الكتابة؛ لأنَّها تكشف بشكل صريح عنه، وعن سرية عمله وخصوصيته الّتي تُمكِّن المستعمِر من استغلالها كقاعدة عامة للمعلومات للتعامل معهم، لذلك نرى مثلًا في الجزائر أنَّ عملية كتابة الذاكرة لم تكن نشطة، وهذا لا يعني النسيان، بل تمثل الحفاظ على الذاكرة بمجموعة من القيم والممارسات الّتي قام بها الجزائريون كوسيلة لتخليد ذكريات معينة.

فكتابة الذاكرة أو البوح بها عملية أساسية في التخليد، وفي حفظ الذاكرة من النسيان، أو خلط الأزمنة فيها، كما أنَّها وسيلة لإنتاج ذاكرة فردية وجماعية، تصبح تاريخًا للوطن، وللمقموعين، وللذوات الفاعلة المقاومة، وخصوصًا في مكان ضيق ومعزول كالمعتقل/السجن؛ حيث تكون أدوات تخليد الذاكرة فيه كممارسة عملية ضيقة جدًا.

الشهادة الواقعة تحت الاستعمار تشكّل تحديًا للتاريخ الاستعماري ولا يمكن فهم واقع مجتمع مستعمر دون اللجوء للشهادات الحية القادرة على مواجهة الأرشيف، فإنَّ شجاعة الكتابة تكمن في تفريغها للذاكرة ورفض الصمت؛ ويقول بول ريكور أنَّ الذاكرة يخدمها الجميع وليست حكرًا على المؤرخ؛ حيث ترتقي الهويات الجماعية والذاتية وتترابط مع بعضها البعض[33] .

كتابة الذاكرة هيَّ مَنّ أتاحت إمكانية الكتابة التاريخية حول الماضي القريب من خلال وجود عرض وطلب للتاريخ القريب، كما أنَّ كتابة التاريخ الراهن من خلال الذاكرة أثارت تعدد المحكيات وساهمت في تراجع المحظورات، فالمؤرخ يُساهم في بناء منهجي لإنتاج الذاكرة من خلال وضع الشهادات

[33] بوريكي، توهو، "الذاكرة المروية وعدالة الانتقال،" ص67

المحكية ضمن سياقات تأليفها ونفسانية منتجيها ومواقع أصحابها، ويعمل على توضيح الشهادة التاريخية، بحيث يتم التوفيق بين نسيج من المقتطفات المأخوذة من الشهادات وبين شبكة موضوعاتية لها صلة بالإشكاليات المحددة، بحيث لا يمكن ولا يجب أنّ تغيب عن ذهن المؤرخ[34].

فكتابة الذاكرة هيَّ الأساس في كتابة التاريخ، وما كان للتاريخ أنّ يكتب دون روايات وسرديات الذاكرة، باختلاف تأويلاتها، إلّا أنّها تكشف عن تاريخ الأفراد في تلك المرحلة، وبالتالي تبين حالة المعيش العامة للمجتمعات، وعلى وجه الخصوص المجتمعات الاستعمارية، حيث تكشف فيها السرديات عن نسق متكامل من الممارسات القيمية والوطنية.

الذاكرة الجماعية والذاكرة التاريخية

يُحال التاريخ إلى مجموعة وقائع الماضي وعلى المعرفة الّتي تشكلت عن تلك الوقائع، لهذا ؛ ثمة فرق واضح بين الذاكرة التاريخية والذاكرة الجماعية؛ فالأولى ذاكرة تأويلية ونقدية وفكرية، تقوم على إشغال مفاهيمي موضوعاتي، وإشكال تقوم عليه المعالجة المنهجية[35]، بناءً على "ترتيب الماضي" بعبارة لوسيان فيفر من عملية بناء أو إعادة بناء وكتابة وإعادة صياغة لهذا الماضي، إنطلاقًا من سلسلة عمليات منهجية متداخلة تشتغل بالتحليل والنقد والتأويل[36].

هذا الترتيب أو البناء لا يأتي إلّا بجهد متعدد اللحظات من لحظة إقامة البرهان الوثائقي، ولحظة التفسير والفهم، ولحظة الكتابة مما يطرح معه إستعصاءات تمثيل شيء غائب وقع سابقًا، وممارسة مكرسة للاستذكار النشط للماضي، والّتي رفعها التاريخ إلى مستوى إعادة البناء[37].

---

[34] الزاوي، "جدل التاريخ والذاكرة في الأسطوغرافيا المغربية،".

[35] ياسين اليحياوي،"الذاكرة الجمعية موضوعا للبحث التاريخي: دراسة في نماذج مختارة من مؤرخي الجيل الثالث لمدرسة الحوليات،" *أسطور*، ع7 (2018) https://ostour.dohainstitute.org/ar/issue007/Documents/ostour7-2018-Yahyaoui.pdf. ، ص118.

[36] المصدر السابق، ص115.

[37] المصدر السابق.، ص 111

هذا يعني أنَّ الاستعصاء في تمثيل الغائب يجعل من دراسة الذاكرة التاريخية أداة ومنهج غير مناسبين لدراسة تجارب وأصوات المقموعين والمهمشين في الدول الاستعمارية، لأنَّها تهتم وتنشغل بإقامة البرهان من خلال الوثيقة والارشيف، أما الذاكرة الجماعية فهي تحمل معها مساحات مخصصة لاستيعاب هذه الأصوات وفهمها، وتقديمها كما هي كجزء من التاريخ.

فالذاكرة الجماعية هيَّ جسد الذاكرة الانطباعية والانتقائية[38]، تقوم على المرجعيات من ذاكرة الأفراد، والجماعات والمؤسسات، بشكل شفاهي أو مكتوب، عبر ممارسة البوح والتذكر، مما يجعلها لصيقة لذاتية النظرة ونفسانية الحالة، لأنَّها ليست مستودعًا لأحداث الماضي؛ بل هي عملية نشطة لخلق المعنى بتعبير أليساندرو بورتبلي، فالذاكرة تحيل إلى آليات عمل الماضي واستحضاره، ومسارات تشكّل هذا التمثل من الناحية الاجتماعية والسياسية والثقافية؛ فهيَّ تمثلات لما تبقى منّ الماضي في معاش الجماعة، حيث تمتاز بالإجمالية والتداخل واللاحدود، وهيَّ أيضًا نقدية، وذاتية، وصدامية، تمامًا كما هي الكتابة حول ذاكرة المُستعمَرين والمُستعمِرين.

بناء على ذلك؛ الذاكرة الفردية قد تأخذ شكلًا من أشكال الأسطورة الشخصية؛ لأنّها تبقي ما هو مهم بالنسبة لهوية الفرد وقدرته على البقاء ضمن الهوية الجماعية، فهيَّ حريصة على انتقاء الموارد المحملة بالمعاني أكثر من حرصها على الواقعية، وهذا يشير إلى أنَّ هنالك نوعين من الذاكرة السردية، وهيَّ السلبية الّتي لا أثر فيها للإرادة، والإيجابية وهيَّ الفاعلة، وتعد نمطًا إراديًا يقظًا ضد النسيان. وهذه الذاكرة الايجابية هيَّ الذاكرة المُستعمَرة، والّتي لا تخلو من الإرادة والتذكر[39].

---

[38] إلزواي، "جدل التاريخ والذاكرة في الأسطوغرافيا المغربية،" ص6.

[39] شافو، "أهمية الدور التوثيقي للرواية الشفوية في كتابة التاريخ الوطني،".

لكن كيف يتم ضبط عملية السرد للذاكرة؟ يرى بول ريكور أنَّ الزمن لا يكون بشريًا إلّا عندما يضبط بطريقة سردية؛ فالذاكرة هيَّ الحلقة الّتي تَصِل بين الزمن والسرد، فهيَّ تُحيل إلى حقيقة حدثت سابقًا، فتضمن الذاكرة لها حياتها على مر الزمان[40].

الذاكرة والتاريخ بينهما مسافة قد تطول أو تقصر أو حتى تنعدم فإذا طالت المسافة اختزلت الذاكرة تفصيلات الصورة وألوانها، فتكاد تصبح بقايا حلم يتلاشى ويبتعد، إنَّه النسيان الّذي عبر عنه المفكر الفرنسي بول ريكور فيعتبره أحد مفردات الثالوث في كتابه *الذاكرة والتاريخ والنسيان*؛ فهو النسيان الضروري الصحي "من أجل أنّ تستقيم العلاقة الصحية بين الذاكرة والتاريخ" ، بتعبير آخر كي يعيش الإنسان المرتبط بالجماعة ويتصالح مع التاريخ، هذا في حالة إنهاء الصراع[41].

كما أنَّه عندما تقصر المسافة الزمنية بين التاريخ والذاكرة بل عندما تنعدم بفعل استمرارية الحدث، المأساة والضغط وتداعياتهما ووطأتهما، فإنَّ شريط الذاكرة ينشط في تسجيل خطوط الصورة في كل ألوانها وتفصيلاتها، عندما تتطابق الذاكرة والتاريخ واقعًا وصورة، تعبيرًا وشعورًا حاضرًا وماضيًا فتصبح سيرة المقموع والمستعمَر هيَّ ذاتها سيرة الشعب كاملًا تحت الاستعمار ويستحيل الفصل بينهما[42].

في الحالة الاستعمارية وبفعل استمرار الانتهاكات، ومحاولات التحييد والإقصاء، فإنَّ المسافة تكاد تكون معدومة بين الأحداث، فالذاكرة نشطة وتختزل بشكل مستمر صور الحدث ومعانيه، ففي الحالة الفلسطينية تحت الاستعمار الصهيوني فإن الحدث غير منقطع منذ بداية الهجرة الصهيونية وبداية تشكل مجتمع الاستعمار، سواء بثورة واضراب عام 1936 مرورًا بقرار التقسيم، وحدث النكبة الفعلي والتهجير والقتل والاعتقال، وما توالت بعدها من أحداث وصراعات وانتفاضات، فهذا التوالي أطلق

---

40 بول ريكور، الذاكرة والتاريخ والنسيان، (ترجمة: جورج زيناتي) (بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة،2000).

41 وجيه الكوثراني، "الذاكرة والتاريخ في مشوار شفيق الحوت من يافا إلى بيروت،" *مجلة الدراسات الفلسطينية* ع.95، (2013) .

42 المصدر السابق.

عليه الأكاديميون الفلسطينيون تعبير "النكبة المستمرة"؛ وهذا يعني أنَّه لا يوجد مساحة فاصلة في الأحداث، وتغيير السياسات الاستعمارية لا يلغي الاستعمار، بل هيَّ امتداد بأشكال آخرى.

هذا يعني أنَّ ذاكرة الفلسطيني تبقى نشطة في حفظ الأحداث واختزال معانيها، ولا يستطيع أنّ يَحّيَى متجاوزًا هذه الممارسات، ففي كل بيت فلسطيني أسير أو شهيد أو مبعد، والتهجير واللجوء حالة عامة طالت كافة البيوت الفلسطينية، وجدار الضم والتوسع بارز يصطدم في وجه العلاقات الإنسانية، وفي وجه أي محاولة تنموية، إنَّه جدار واضح وبارز للفصل الجغرافي والإنساني والاقتصادي، كما وأنَّ المخيمات تشير باستمرار إلى حدث النكبة والنكسة، ومسيرات العودة في قطاع غزة إعادة إحياء لكل هذه المعاني.

كيف يمكن الحديث عن المسافة في مسألة ذاكرة الأسير؟ إنَّ الأسر والاعتقال مرتبطين بشكل مباشر بالذوات المقاومة والفاعلة، ومرتبطة بالوجود الفلسطيني على هذه الأرض بمعنى "الصمود"، وهذا الحدث مستمر بشكل يومي، غير منقطع، مرتبطًا باستمرار الاستعمار وممارساته العنصرية، ومن لم يدخل المعتقل يستطيع أنّ يكتب عن المعتقل من التجارب والذكريات الّتي تُروى أمامه، فكيف للأسير الّذي خاض التجربة ويخوضها أنّ تكون مسألة المسافة عائقًا في سرده لتجربته الفردية؟

لا يوجد مسافة للنسيان والتخيل، كما أنَّ المساحة الّتي تسمح بأسطرة الحدث انعدمت، فكتابة الذاكرة هيَّ كتابة توثيقية وتاريخية تمامًا، وهيَّ ليست بديلًا للتاريخ الفلسطيني الرسمي، إنَّها المكمل، والعمق، والتفاصيل، ففي حالة الأسرى، قد يزودنا التاريخ الرسمي بأعداد الأسرى وأسمائهم، وظروف التحقيق، ووصف المعتقل، والعلاقات داخله، وتكشف عن مواقع المعتقلات واسمائها؛ فهيَّ تكشف عن الشكل البارز والواضح الأعم من هذا الجسم الاستعماري المُصغر، ولكنها لا توضح تجربة كل أسير داخل غرف التحقيق، ولا تعكس وعيه الفردي الّذي يبقى مرتبطًا بتجربة جماعية أوسع، فكتابة الذاكرة الفردية هيَّ الّتي تعطينا هذه التفاصيل وتبين جانبًا آخر من حقيقة هذه الممارسات.

لهذا فإنَّ الذاكرة التاريخية غير كافية لفهم تجربة الهامشيين والمقصيين، وليست ذاكرة فعالة للتواصل مع التجارب الّتي صنعوها أو خاضوها، والمستأصِلة بطبيعة الحال لجزء مهم من التجربة والتفاصيل الصغيرة والكبيرة من الكتابة التاريخية، والّتي من الممكن وصفها أثناء إجراء أبحاث تتعلق بتجربة الهامشيين على أنَّها كتابة مجردة على الرغم من موضوعيتها، إلّا أنّها تفتقر للتفاصيل الّتي نستطيع من خلالها فهم البنية السياسية، وهذا يعني إنَّ كتابة الذاكرة في الدول الاستعمارية على وجه التحديد هيَّ بمثابة تحد ومواجهة للاندثار والمحو والموت دون أي تخليد وإثبات وجود للفعل المقاوم والرافض بمشاعره وأشكاله وأدواته المختلفة للانتهاكات الّتي يتعرض لها.

الحقيقة في كتابة الذاكرة: بين التذكر والتأويل

إنَّ أوراق السجن لا تدعي بأنَّها بحث علمي، فقد كُتبت في السجن؛ حيث لا مصادر جدية يمكن الاعتماد عليها، والاعتماد يكون منصبًا على الذاكرة، على الأقل في تناول ما يجري في المعازل الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية، خصوصًا مع كونهم معزولين.

العالم منذ فترات طويلة نسبيًا، وذلك وبشكل أساسي لتبيان أنَّ ما يجري في المعتقلات الصغيرة ليس مجرد احتجاز وعزل لأسرى يشكلون خطرًا أمنيًا على الاستعمار، وإنَّما هو جزء من برنامج شامل ومخطط علمي ومدروس يهدف إلى إعادة "صهر" الوعي الفلسطيني[43].

نرى أنَّ جرأة تقديم الشهادة كرهان عمومي من أجل الاعتراف بالحقيقة وعدم النسيان وعدم الصمت،تجعل تاريخ الأفراد من تاريخ الوطن بأكمله، ويصبح الفرد الشاهد يسرد الحدث ويأوله، وثم يقول له هذا ما حدث ولا أحد يستطيع أنّ يقول له إنَّك خاطئ[44].

[43] لمزيد من التفاصيل أنظر: تقديم عزمي بشارة، في تقديم: دقة *صهر الوعي* ص 23.

[44] رشيد، توهو، "الذاكرة المروية وعدالة الانتقال،" 69.

إنَّ الذاكرة لا تعد مخزن للماضي، ولا تحتفظ بالأحداث كما هيَّ، والتخيل هو آداة من أدوات التذكر، كما أنَّ الحدث قد لا ينكشف كاملًا للمقموع، إلّا أنَّه يستطيع إدراك، والاحتفاظ بما تكشف له، ويستطيع أنّ يؤوله ويشير إليَّه بالطريقة الّتي أثرت فيها عليه، لذلك فالتعامل مع ذاكرة الأسير في ظلّ وجود موضوعة جزئية الذاكرة أو التخيل، أو الوهم، ستكون واضحة؛ من خلال التعاطي مع "كيف يعبر الأسير عن تجربته" قد لا يكون الحدث كله حاضرًا؛ وذلك لأنَّ ذاكرته تُبقيّ ما هو مهم بالنسبة لهويته، ولاستمرارية بقاءه، ولهذا على المؤرخ والمحرر أنّ يكون على تواصل واضح ومحدد بين الأسير وتجربته دون التأثير على هذا الصوت، وعند استخدامها لتأويلها والبناء عليها تكون فقط في إطار التجربة كتجربة عامة، لا تستقصد الوصول إلى ذات الأسير بكونه ذات منفصلة، كمّا ودراسة وعيه وتجربته في سياقها الزمني والمكاني.

كما أنّه يجب ألّا تغيب عن ذهننا فكرة أن زمن القصّ يختلف عن زمن الوقائع؛ حيث أنَّ زمن الوقائع هو زمن متعدد الأبعاد يحمل في الوقت الواحد أحداثًا عدة، أمّا زمن القصّ فهو زمن أحادي ينمو بالكلام في التوالي، إنّه انتظام الصياغة وتكوينها في جمل تتوالى وترتصف مقيمة القول.[45]

ففي دراسات السجن في المغرب، يقف النقاد والقراء في المغرب أمام موقفين اتجاه الكتابات السجنية وهيَّ؛ الأول: يؤكد على جرعة الحقيقة والواقعية الّتي تمنحها الشهادات الواردة في بعض الأعمال الّتي تهتم بالتصنيف الأدبي. أما الموقف الثاني: يرفع عن أدب السجون الطابع التوثيقي والتاريخي وينفي عنه سرد الحقيقة كما هيَّ[46].

إزاء هذه الجدلية حول التعامل مع الشهادات من جهة كونها تؤكد على الحقيقة ومن جهة آخرى رفع الطابع التاريخي عنها؛ تقول موريسون في مقالتها "مواقع الذاكرة": "أيًا كان أسلوب كتابة الذاكرة، فقد

---

[45] يمنى العيد، *تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي* (بيروت: دار الفارابي، 1990): 258،

[46] المصدر السابق.

كُتبت هذه الذاكرة لتحقق آمرين؛ الأول: ليقولوا هذه هيَّ حياتي التاريخية، وتاريخي الشخصي وتجربتي، والثاني: أنا أكتب هذا النص لإقناع الآخرين –القارئ الَّذي من الممكن أنّ لا يكون أسود– أنني بشر، واستحق نعمة الله والتخلي الفوري عن العبودية[47]"، مع هذين النقطتين أصبحت وظيفة السرد واضحة.

إنَّ الدول الاستعمارية والّتي تطورت فيما بعد لتصبح رأسمالية تلغي فكرة التمثيل، وتعتبرها ضربًا من الخيال، ويتم التعامل معها في سياق أنَّها تحريضية، وهذا سبب كافٍ بالنسبة لها لقمعها وإخفاء صوتها، ولكن في الحقيقة هذه الشهادات هيَّ سلاح يُضرب به التاريخ الرسمي الّذي يقدمه المُستعمِر على أنَّه التاريخ الحقيقي وما عداه مجرد أوهام وتخيلات.

تكمل موريسون بأنَّه من غير العادل الحصول على نقد لأدب الشهادة في الوقت الّذي يتم الاعتراف بشهادات الكنيسة وكتاباتها، ويتم إنكار شهادات السود لأنَّها بتعبيرهم تحريضية ومتحيزة، وغير محتملة وتثير غضب القارئ، كما أنَّهم لا يريدون الكتابات الحزبية الّتي تسعى للتحرر من العبودية، أو التأثير بالقراء الّذين يؤمنون بفكرة التخلص من العبودية[48].

فكتابة الذاكرة للسود كمّا تضيف موريسون مهمة؛ لأنَّها تعتمد على تجربتهم وتجارب الآخرين أيضًا، فالمنهج الأكثر موضوعية وصدقًا هو الانتقال من الصورة "الذاكرة المرتبطة بالخيال بطبيعة الحال" إلى النص وليس العكس، وهكذا نستطيع فك الرموز الّتي لم تستطع الكتابة أنّ تكشف عنها، وإنّ وجد خيال، فهو الخيال اللازم لملء هذه الفراغات، وليس خيالًا عشوائيًا؛ فتأتي الصورة أولًا ثمَّ تخبرني بالقصة لذلك يرتبط عمل الخيال مع الذاكرة[49].

---

[47] Look: Toni Morrison, *The Site of Memory, Inventing The Truth: The Art and Craft of Memoiry*, 2d ed., ed. William Zinsser (Boston; New York: Houghton Mifflin, 1995), 83-102.

[48] Ibid.

[49] Ibid.

الأسير يكتب تجربته بعد خوضها، بعد تجربة التحقيق والتعذيب الّتي تستهدف ذاته المقاومة، حيث تستهدف ذاته لتقمعها، فتعبير الأسير عن الذاكرة جاء كانتقال من صورة الحدث وإدراكها إلى تصورها في نص قادر على نقل التجربة، وإنّ لم تكن كما هيَّ كاملة، ولكنها التجربة الّتي يدركها ويعيها.

كتابة الألم/ تجربة الاعتقال من خلال الذاكرة

إنَّ كتابة التاريخ من خلال الذاكرة هو بحد ذاته تكثيف تاريخي لذاكرة الألم والمعاناة، معاناة جيل بأكمله في مواجهة سراديب الجلادين، وأنظمة القمع البوليسي، وأقسى أنواع التعذيب والتنكيل والاضطهاد الّتي تنهل من العمق التاريخي من الذاكرة المخزونة، هذه الذاكرة الموشومة بالعنف الرسمي[50]، والقادرة على تقديم فهم بديل ومختلف لتحولات البنية السياسية، والّتي يمكن من خلال شهادتها أنّ تحقق وظيفتين أساسيتين لكتابة الذاكرة؛ وهيَّ التحرر من الألم من خلال مشاركته والبوح به، كمّا أنّها الشرارة الّتي تبدأ من خلالها مقاومة السلطة والاستعمار والانتهاكات المختلفة، وإعادة بناء الوعي الخاص بكونهم مقموعين ومستعمَرين، فهيَّ شكل من أشكال المقاومة بالصوت والكلمة.

تعددت وظائف وأهمية كتابة الذاكرة تحت الاستعمار كلًا حسب الغاية الاستعمارية وأثرها على الشعوب المًستعمَرة، فنرى مثلًا في افريقيا أنَّ الكتابة جاءت؛ لتصحيح الكتابة الاستعمارية، وردًا على تاريخها[51]، أمّا الكتابة في المغرب كانت تصحيحًا للتأويل الرسمي لسنوات الرصاص، وهيَّ منتجات ثقافية مركبة تملأ الفراغات الّتي قد توجد في التاريخ الرسمي فهيَّ تفهم الديناميات الّتي أنتجتها الشهادة الأليمة حول ماضي الانتهاكات الجسيمة لحقوق الانسان، فيجب كذلك فهم الحركات التاريخية في تلك الفترة وما هيَّ الخطابات الّتي أنتجتها حول الماضي[52].

---

[50] الزاوي، "جدل التاريخ والذاكرة في الأسطوغرافيا المغربية،" ص3.

[51] Gugelberger and Kearny. “Voices for The Voiceless,” p 8.

[52] بوريكي، توهو، "الذاكرة المروية وعدالة الانتقال،" ص67.

كما الكتابة في أمريكا اللاتينية وكوبا وجنوب إفريقيا فيرتبط خطاب الشهادة ارتباطًا وثيقًا بالثورة والتطورات التأسيسية، والولادة الرسمية لهذا النوع من الإنتاج الثقافي؛ حيث لا تكتب الشهادة لتكوّن مجتمعًا أدبيًا جديدًا، بل هيَّ الشهادات الراغبة في إحداث ثورة تجعل من الشهادة سلاحًا على الجبهة الثقافية [53] أما كتابة ذاكرة السود فكانت تحديًأ للقانون الذي يجرّم على الأسود أنّ يكتب، ويتعلم، وكانت تحررًا من السلطة والقانون ومن عمليات التمييز العنصرية المختلفة[54].

فامتلاك الإنسان الوعي للكتابة، والبوح بالتجربة؛ يشكل تحررًا وانعتاقًا من حالة الاقصاء واللاوجود الّتي تفرضها السلطة على المُستعمَرين، فهيَّ تثبت وجودهم ودورهم، وتبين التفاعلات الفاعلة الّتي أحدثوها بممارستهم الثورية ضد السلطة وتجلياتها، كما وتبين وتبرر الكيفية الّتي من خلالها استمر الظلم، من اختلاف موازين القوى، والقدرة.

تجربة المرأة في المغرب في كتابة تجربتها الخاصة كمرأة ومستعمَرة على سبيل المثال؛ ليست انتصارًا على الموت فحسب، بل إنَّها تعيش حياة مضاعفة، تعيشها انعتاقًا من ثقافة ذكورية كانت تحصرها في خانة التناقص واللاتوازن، هيَّ جسد محاصر بالصمت، ممنوع من الكتابة، دوره إغراء الرجل، إنَ كتابة ذاكرتها كانت عملية مطالبة بالاعتراف بالاختلاف والوجود[55].

كما تجربة الأسرى والأسيرات المحيدين داخل المعتقلات فليست مطالبة بالاعتراف بالاختلاف، لكنَّها تأكيد على الوجود، وجودها كذات مقاومة، وذات سياسية، وذات مقموعة ومحيدة ومقصية، هيَّ إعادة إحياء للتواصل مع ذاته ومجتمعه، ومع العالم أيضًا.

[53] Gugelberger and Kearny, “Voices for The Voiceless,” p 6, p9.

[54]Morrison, "The Site of Memory,”.

[55] بوريكي، توهو،"الذاكرة المروية وعدالة الانتقال،" ص75.

إنَّ كتابة الذاكرة يجب أنّ تحرر الإنسان وألا تستعبده، فكتابة الذاكرة تكسر جدران المعتقل وتعيد اتصاله بالعالم الّذي حيّد عنه، ولا تجعله رهن التجربة الّتي خاضها وعيه أثناء التحقيق، وفي هذا يقول الأسير الفلسطيني محمود الصفدي في روايته **تحت السماء الثامنة:** "أنا حاولت الكتابة كوسيلة للدفاع والصمود واختراق جدران الصمت وإيصال صرخة[56]"، فالمعتقل تقييد للجسد، ولكنه لا يمنع الروح والذوات المقاومة من الاستمرار في التأكيد على فكرة الصمود، وتحدي كافة وسائل الهيمنة لإثبات القدرة على المقاومة في أكثر المناطق هيمنة.

الحاضر يبنى ويرتبط بالماضي؛ لذلك فإنَّ تدوين تجربة الألم والبوح بها تُحقق تحررًا من التجربة، ولأنَّ حالة التدوين كما أشرت سابقًا لا تعني النسيان، فالذاكرة القابعة تحت الاستعمار هيَّ على غير عادة الذاكرات الّتي من شيمها النسيان من أجل الحياة، بل هيَّ ذاكرة حية لأنَّ أصحابها تمنع عنهم الحياة، تختلط الأزمنة في وعيه لأنَّ ماضيه يعيش فيه فيرى تفصيلات هذا الماضي[57]؛ إنَّ ذاكرة المقهور والمُستعمَر تأبى أنّ تفارق التاريخ وتمنع الحدث من مفارقتها لأنَّ الحدث نفسه مستمر في التاريخ والذاكرة معًا بالعنفوان نفسه والألم نفسه والوجد نفسه.

نرى أنَّ الكتابة الاعتقالية والإبداع في الشهادات يعتبران تحديًا للسلطة والسرد التاريخي، إنَّها التباسات الذاكرة المعذبة وهيَّ تؤرخ حتى لحظات الموت، إنّ سرديات الاعتقال هيَّ تأريخ لذاكرة الوطن، ومن ناحية المنهجية فهيَّ خارج الإطارات الكلاسيكية والتاريخ، وهيَّ ثورة في الكتابة والتاريخ بالشهادة والذاكرة[58]

---

[56] محمود الصفدي، *تحت السماء الثامنة*

[57] كوثراني، "الذاكرة والتاريخ، "، ص2.

[58] بوريكي، توهو، "الذاكرة المروية وعدالة الانتقال،" ص 75-74.

تكتب الذاكرة أيضًا لتؤكد على حق الاعتراف بالشهادة والذاكرة كتاريخ يكتبه المستعمَرين، وكتجربة حقيقية قاومت الاستعمار، ولتأريخها، وتحويلها إلى وعي مكمل للتاريخ الفلسطيني؛ ويقول فاضل يونس في رواية سيرته *من وحي التجربة الاعتقالية* :"إنَّ التجربة الاعتقالية جديرة بأنّ تدوّن وذلك لكونها جزءًا من تاريخ الشعب الفلسطيني ونضاله المرير من أجل الحرية، ولا بُدَّ أنّ نؤرّخ لكيّ لا ننسى.إنَّها سيرة تقول أنَّ ظلام الاحتلال الطويل لم ينجح ولا مرّة في محو إنسانيتنا وكسر شوكة الإرادة في نفوسنا[59]".

ذاكرة الاعتقال هيّ أرشيف يعتمد على الأثر والتسجيل والصورة، وقد تحررت الذاكرة المسجونة حيث رأت النور فصارعت من أجل التذكر، وأصبحت إما ذاكرة مرئية وإما مسموعة، مثل جلسات الاستماع العمومية أو ذاكرة ورقية[60]. فمن خلال كتابة تجربة الاعتقال يصبح الألم مرئيًا، وموضوعًا كتابيًا تحاول إخراجه من سلطة الدول وهيمنة الدلالات والكلمات، لذلك تُعد كتابة تجربة الاعتقال ساحة متنازع عليها لاستعادة الأسير الشعور بذاته والعالم.

المعتقل لم يكن أبدًا عائقًا أمام الروح الحرة بإنتاج العقول والأدب العظيم على الرغم من كل التحديات، وعلى الرغم من أنَّ التجربة السجنية تفرض تحديات غير عادية على الكاتب، عدا عن معاناة تحويل التجربة إلى نص، إلّا أنَّ الكتابة تعطي الأسرى فرصة للتعبير عن ذواتهم بغض النظر عن نوع الكتابة صحافية كانت أو خيالية أو توثيقية[61].

غالبًا ما تكتب التجربة الاعتقالية بعد التحرر من السجن، وذلك في سبيل تحرر العاطفة واستكمال تحرر الجسد من محنة الاعتقال، كذلك الذاكرة الشفوية فهي تُؤرخ بالعادة بعد التحرر من المُعتقل،

---

[59] فاضل يونس، *من وحي التجربة الاعتقالية* (فلسطين: مركز بيت المقدس للأداب، 2008).

[60] المصدر السابق، ص68

[61] Look: Motif Behind Prison Writing, (seen:22/2/2019)
http://shodhganga.inflibnet.ac.in/bitstream/10603/98861/7/07_chapter%202.pdf

ويكون الهدف عادة من كتابتها التوثيق، وإفراغ التجربة من الذاكرة، بمعنى الحديث عنها ومشاركتها مع المجتمع[62].

أفضل الكتابات هيَّ تلك الّتي تكشف الرحلة الداخلية للذات، وتصور الصراعات الداخلية للشخص، ووعيها وإدراكها لموقعها وتجربتها، وكيفية التعامل معها، وتكشف عن حالة الوعي في صياغة التجربة والبوح بها، وتصورات الأسير عن ذاته وعن هويته، وارتباطاته بالمجتمع[63].

فكتابة الذاكرة تعكس وجودًا متماسكًا للهوية الفردية والجمعية، لأنَّها تختزل الهويتيين داخل المُعتقل، الأنا الفردية والجماعية، وعملية الحفاظ على هذا التواصل بين الفردي والجماعي تؤثر على وعي وذات الفرد وتزيد من تماسكه، وتنتزعه من حالة الفردانية الّتي يفرضها عليه السجن لتعيده إلى صلة المجتمع.

الكتابة السجنية في الدول ذات السيادة هي كشف حقيقي عن فترة معينة داخل السجن، ويختلف الهدف في كتابتها عن الكتابة في الدول الاستعمارية؛ ويعرّف الروائي المغربي مصطفى الغتيري أدب السجون في المغرب؛ أنَّها الكتابات الّتي حاولت ملامسة تجربة الاعتقال السياسي أيديولوجيًا؛ أي أنَّها اتخذت من الكتابة وسيلة لتصفية الحساب مع تجربة انسانية ووجودية ونفسية مريرة[64].

أما في الدول الاستعمارية فكتابة ذاكرة الأسير تؤكد تجربته المقاومة وتجربة الانتهاك الّتي حدثت بحقه، إنَّها تاريخ مرتبط بالفرد والجماعة المُستعمَرة، كما أنَّها تأكيد على حق الأسير كونه إنسانًا مقموعًا وممنوعًا من الحصول على حريته وممارستها بتقرير مصيره وتحقيق سيادته على حياته وعلى أرضه.

---

[62] حسن الأشرف، "أدب السجون في المغرب .. للحقيقة وجهان،" *العربي الجديد* (2015) (تاريخ الزيارة: 2019/2/25) <https://www.alaraby.co.uk/diffah/books/2016/9/8>

[63] Motif Behind Prison Writing,

[64] الأشرف، "أدب السجون في المغرب .. للحقيقة وجهان،".

كما أنَّ كتابة الذاكرة لا تعكس حالة أسير واحد خاض تجربة المقاومة والتحقيق والانتقال للمعتقل، بل إنَّها تعكس تجربة جماعية، لذلك على من يقدر تدوين تجربته أنّ يدونها، لأنَّه يحفظ حق الآخرين في سرد ما حدث معهم ولهم، ولذلك يقول **محمد عليان**، أسير فلسطيني، عن *التجربة الابداعية الاعتقالية*؛ هيَّ تجربة ابداعية وليست فردية .. فالفرد يذوب في المجموع الاعتقالي والنتاج هو جماعي بامتياز[65]". يتنوع الدافع للكتابة بين كل أسير وآخر اعتمادًا على تأثير التجربة عليه، وموقعه الاجتماعي، وخلفيته السياسية، لذلك نرى بأنَّ الأسيرة الفلسطينية عائشة عودة تنظر لكتابة ذاكرتها في نصها *أحلام بالحرية:*

"وأعود للكتابة ربما لتأكيد أنَّ تحويل التجربة العملية إلى وعي هو الأهم في التجربة ذاتها، لأنَّه زبدتها، ولأنَّه النسغ الّذي يمنعها من الذبول والموت، ولأنَّه (هذا هو الأهم) لا يسمح للآخر بالاستمرار في السيطرة على رواية التاريخ وتصنيعه بما يتناسب مع أيديولوجيته العنصرية. ولأنّه لا بُدَّ من محاسبة المجرم على جرائمه، ولا تقادم على جرائم الحرب. ولأقول أيضًا أنَّ الرجال ليسوا أفضل من النساء، وأنَّ النساء لسنَّ أقل من الرجال، وأنَّ الوطن والمستقبل والحرية والكرامة مسؤولية الجميع. وأنَّ الصمود مجدي[66]".

نرى أنّ أدب المعتقلات/المقاومة الفلسطيني يعبر عن الابداعات الّتي ولدت في زنازين التحقيق والعزل، والّتي خرجت من رحم الوجع اليومي الّذي يحياه الأسرى الفلسطينيون في المعتقلات الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية، ويعرّف الباحث الفلسطيني رأفت حمدونة أدب السجون/ أدب المقاومة: هو ما يكتبه الأسرى في المعتقلات، أو خارج المعتقلات، يعكس تصور لتجربتهم داخل المعتقل [67]، ولكنّ هنالك الكثير من النقاد اعتبروا أنَّ أدب السجون هو فقط ما يكتب داخل المعتقل، كما أنَّه ما يكتب في مجال الرواية أو الشعر أو النثر، فلا تعتبر الإصدارات العلمية والأكاديمية جزءًا

---

[65] محمد عليان، *التجربة الابداعية الاعتقالية* (رام الله: دار الكتاب، 1986).

[66] عائشة عودة. *أحلام بالحرية .. الجزء الأول من اعتقال فتاة فلسطينية*. (رام الله: مؤسسة مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية،2004). ص204

[67] رأفت حمدونة، "أدب السجون (الخصائص والمميزات)،" (2018)، (تاريخ الزيارة: 2019/3/13) < http://alasra.ps/ar/uploads/documents/c707df83f435cfed7d81da4891e76eac.pdf >.

من أدب السجون. وتتعامل دراستي مع تعريف أدب الاعتقال/أدب المقاومة بأنَّه ما يكتبه الأسرى عن تجربتهم سواء داخل المعتقلات أو خارجها، وسيتم التعامل مع الرواية الشفوية أو المكتوبة من أدبيات الأسرى.

إنَّ المعتقل الفلسطيني بفكره ومحتواه الثوري والنضالي، يشكلان هدفًا أساسيًا للاستعمار الاستيطاني الصهيوني الّذي كرّس كل طاقاته وجهوده في كل المجالات وعلى كافة الأصعدة لتشويش فكره ووعيه، وتشويه سلوكه وأفعاله النضالية؛ من أجل جعله في حالة شك ذاتي؛ لإحباط توجهاته وتفكيك قدراته الكفاحية والثورية؛ لذلك؛ أولى اسماعيل الناشف أهمية كبيرة إلى "الكتابة ودورها كتشكيل معرفي للمجتمع، ووسيلة لبناء مجتمع داخل المُعتقلات؛ حيث يشير إلى أنَّ الهياكل التعليمية والطقوس اليومية الّتي أنشأها السجناء تشكل وسائل أخرى لخلق وإعادة بناء الهوية المجتمعية والوطنية، مع تقويض المحاولات الاستعمارية لعزلهم والسيطرة عليهم[68]"

بناء على هذا؛ فكتابة الأسرى الفلسطينيين لتجربتهم الاعتقالية والبوح بهما شكل من أشكال المقاومة في أكثر الأماكن ضيقًا وتحييدًا عن مواقع ممارسة المقاومة، ويجب التركيز على وسائل المقاومة هذه الشفوية والمكتوبة؛ كونَّها قادرة على كشف ما يحاول المستعمِر دائما جعله بعيدًا عن أعين الفلسطينيين، كما أنَّها تكسر محاولة المستعمِر فرض الحصار الدائم على الأسير لفصله عن مجتمعه ومحيطه.

كما أنَّ كتابة ذاكرة الأسرى من خلال أدب الاعتقال قد يكتب بشكلين إمّا توثيقي وتسجيلي، وإما أنَّ تكتب من خلال كتابة الذاكرة الشفهية لحالات الأسرى الآخرين داخل المعتقلات كما عمل وليد الهودلي ككاتب لأدب الاعتقال؛ وذلك لحفظ التجربة وحمايتها من النسيان، حيث يكتب بشكل توعوي، لينبه الفلسطيني المعرض بأيّ لحظة للاعتقال على التطورات الّتي تحدث في بناء غرف التحقيق

[68] Nashef, *Palestinian Political Prisoner.*

وتطور وسائل التحقيق والاستجواب، كما يبين الطرق الّتي من خلالها يستطيع الأسير الصبر واحتمال ممارسات الاحتلال ومواجهتها.

الأسير المقاوم الفاعل لا ينتهي دوره بمجرد دخوله إلى المعتقل، بل يبدأ دوره بشكل آخر، كالحفاظ على هويته، والانخراط في الهوية الجمعية للأسرى وحمايتها، وتوحيد الصف بين الأسرى ومنع الاختلافات الّتي تؤدي للانقسامات، كما وكتابة الذاكرة الّتي عايشها الأسرى حول تجربتهم الاعتقالية، والّتي تمثل حاضنة أساسية لتاريخ الشعب الفلسطيني، فكتابة الذاكرة هيَّ مرحلة مقاومة ووعي، وهيَّ إعادة التواصل بين الأسير وعالمه، وهيَّ المحاولة المستمرة لإعادة ربط جسده المحيَّد إلى جسده داخل مجموعة كاملة.

تعكس عملية كتابة ذاكرة الأسر، عن تجربة عامة من ظروف الاعتقال والتنكيل، وكذلك تعطي تصور عام حول تعامل الأسرى ومقاومتهم وضعفهم في محطات معينة خلال التحقيق، فالذات الفردية التي تسرد أو تدون تجربتها الاعتقالية، إنَّما هيّ جزء متماسك ومترابط ومكمل مع تجربة الأسرى الاخرين، ويبقى الاختلاف في الكيفية الّتي يقوم فيها الأسير بتوظيف جسده ومعارفه لمساعدته على الصمود والمقاومة، فهذه الكتابة الإبداعية، خارج حدود النصوص المألوفة الأدبية والعلمية بأشكالها المختلفة، وما يميزها كونها نص كُتب لتحويل التجربة إلى وعي، وعي للفلسطينيين (المحتمل اعتقالهم) وللمقاومين، عملية كتابة الذاكرة للأسير تعتبر شكلًا من أشكال الصمود والمقاومة أمام محاولات الاستعمار الاستيطاني الاستفراد بعقل ووعي الأسرى، للسيطرة عليه، ومنع تفريغه من تجربة الألم الّتي عايشها الأسير، كما ولمنع نشر الوعي حول أساليب وممارسات التحقيق والتعذيب وكيفية التعامل معها، والأهم هو محاولة "الاسرائيلي" إبقاء صوته فقط كصوت للتاريخ والأحداث.

الفصل الثاني : الاستعمار والاستعمار الاستيطاني

مقدمة

يهدف هذا الفصل إلى توضيح الإطار النظري لكل من مفهومي الاستعمار والاستعمار الاستيطاني، حيث تُساهم هذه الأُطر النظرية في تحليل بنية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني على أرض فلسطين، بالإضافة إلى فهم الكيفية الّتي تعمل بها الممارسات والأدوات الاستعمارية وتؤثر على الجسد والوعي الفلسطيني، سواء من خلال ممارسات الاستعمار الاستيطاني على الأرض، أو على الأجساد الفلسطينية بشكل مباشر.

بناء على هذا، سيركز هذا الفصل على عدة محاور تسعى للإجابة على التساؤل عن الكيفية الّتي تعمل بها الأدوات المحوية الاستعمارية في ضبط أجساد المستعمَرين الفلسطينيين، وتتناول هذه المحاور: أولًا توضيح الفروق الأساسية بين الاستعمار والاستعمار الاستيطاني من حيث الهدف والاستراتيجيات، ومن ثُمَّ توضيح مفهوم المحو، وكيف تختلف أدواته بين الاستعمار والاستعمار الاستيطاني، مع تحليل هدف هذه الأدوات، ثانيًا تحليل الممارسات الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية والأدوات الّتي تستخدمها، والهدف من هذه الأدوات، وانعكاسها على الجسد الفلسطيني الفردي والجمعي.

إنَّ تعريف مفهوم المحو الّذي سيتعامل معه الفصل، مستمد من قراءات في تجارب حالات استعمارية واستعمارية استيطانية مختلفة، حيث سيتم التعامل مع المحو كونه مبدأ ووسيلة في آنٍ واحد، من صوره؛ هدم للبُنية المكانية والمشهدية المعمارية للمستعمَرين واستبدالها بآخرى غير مرتبطة بتاريخ ثقافي للمنطقة، وضبط المكان من خلال التحكم بهندسة الطرق الّتي تساهم في مراقبة المستعمَرين وسهولة ضبطهم، والمحو من خلال تهميش وإخفاء صوت المستعمَر المكتوب والمنطوق وإبراز الرواية

والصوت الاستعماري، وممارسة الضبط والردع والمحو على الأجساد المستعمَرة، من خلال العديد من الممارسات الّتي تستهدف وعيه ومكونه الثقافي وهويته الجمعية، مثل القتل (الإبادة/استدخال الأوبئة/ القتل العشوائي والممنهج) (السجن/ الحاجز/ التصاريح/ منع التجوال، الإغلاقات العسكرية/ العزل السكني والمناطقي) والهدف من هذه الممارسات هو عزل الأفراد عن بعضهم البعض، والحيلولة دون قيام مجتمع متماسك بهوية وهدف واحد، وإشغالهم بهموم فردية تُبعدهم عن الهموم الجماعية الّتي تقودهم في المحصلة نحو مقاومة الاستعمار والتحرر منه، فالمحو مبدأ في حالة الاستعمار الاستيطاني، لأنَّه من غير الممكن لهذا المجتمع الاستعماري الاستيطاني أنّ يستمر ويستقر، دون تثبيت ركائز المحو الأساسية للمكان ببعديه الحدودي والثقافي، ومحو السكان.

المحور الأول: نظرة مفاهيمية حول الاستعمار والاستعمار الاستيطاني

يقوم الاستعمار على التطور الاقتصادي الّذي يجب أنّ يخلقه المستعمَر لصالح المستعمِر، من خلال الاستحواذ/فرض الهيمنة على الأرض ومواردها الطبيعية، والموارد البشرية كأيد عاملة رخيصة، كما ويسعى الاستعمار إلى الحفاظ على تبعية المستعمَر للمستعمِر، وإضعاف قدرة المستعمَرين على بناء مجتمع قادر على التطور، فوجود هذه التمايزات الّتي يخلقها المستعمِر سواء الاقتصادية أو الثقافية، مهمة جدًا لفكرة المستعمِر الأبيض الّذي يؤكد على مبدئه بأنَّه استعمَر لينقل الحداثة.

بذلك يَصِف إيميه سيزير الاستعمار بأنَّه عملية عدوانية يصبح فيه مَن هم مِن غير الأوروبيين يُعاملون على أنَّهم غير كيانات، ويتم التعامل معهم مثل الحيوانات من قِبل الاستعمار الأوروبي[69]، أما

[69] Amie Cesaris, ed. Patrick Williams and Laura Chrisman from Discourse On Colnialism," *In Colonial Discourse and Post- Colonial Theory* (New York: Colombia university press, 1994) 172-180: 174.

فانون فيرى في الاستعمار أنَّه احلال "نوع" إنساني محل "نوع" إنساني آخر، إحلالًا كليًا، ومطلقًا، بلا مراحل انتقال[70].

يسوقنا هذا الطرح إلى تدوين ثلاث ملاحظات أساسية في العملية الاستعمارية؛ وهيَّ: أنَّ الاستعمار في طابعه عدواني، ويصمم أدواته لنقش هذه العدوانية؛ لإقرار وتأكيد السلطة والسيادة على المستعمَر، وأنَّ فكرة التفوق باختلاف أشكالها سواء كان (عرقيًا، ثقافيًا، معرفيًا، أو قوة عسكرية وسياسية) تستمد مبدأها من الأيديولوجيات العنصرية والّتي تتخذ من مشروع "الحضارة" تبريرًا لها لاستعمار الآخر غير الأوروبي، وأنَّ سيادة المستعمِر على المستعمَرين لا تتوقف عند إقرار السلطة والسيادة على الموارد الطبيعية والبشرية (كيد عاملة، عبيد) وعلى الأرض، إنَّما يتسع مبدأ عمل السلطة لانتزاع فكرة إنسانية المستعمَر، وقدرته على الإعمار والعمل وحقه في تكوين هويته الخاصة وقدرته على تقرير المصير.

من الممكن تحليل استخدام مبدأ الضبط والمحو الاستعماري كما يشير سيزير وفانون؛ من خلال اعتبار مَنٌ هُم مِن غير الأوروبين غير كيانات، وهذا الوصف يحمل محوًا مُرَكّبًا؛ الشكل الأول من المحو ذو بُعد سياسي وسيادي بانتزاع قدرة المستعمَرين على تكوين مجتمع خاص بهم، وذلك لأنَّ المستعمَرين ليسوا بكيانات سياسية أو اقتصادية/ أو إنسانية، فالمستعمِر يلجأ دائما إلى حيونة المستعمَر، وانتزاع الصفات الإنسانية منه.

الشكل الثاني من المحو ذو طابع ثقافي؛ يبيح عملية الاستعمار للشعوب غير الأوروبية، وكون هذه الشعوب غير أوروبية كاف للحكم على سكانها بالتخلف الاقتصادي والحضاري من وجهة نظر المستعمِر الأوروبي، فمبدأ المحو بالاستعمار التاريخي/التقليدي مبني بالأساس على فكرة الآخر اللاأوروبي، وهكذا يبدأ المستعمِر منذ اليوم الأول لوصوله لأرض المستعمَرين ببناء هذا التمايز

[70] فرانز فانون، معذبو *الأرض*. (ترجمة:سامي الجروبي) (بيروت: دار الفرابي، 2004): 39.

والمحافظة عليه من خلال العمل على البُنى الأساسية الّتي تُشكل ثقافة المستعمَر؛ مثل علاقة المستعمَر مع الأرض، ووسائل الإنتاج وطرق الاستهلاك، واستدخال التكنولوجيا والمعرفة، وعملية الفصل في العمل والسكن ونمط المعيشة[71].

تبين لنا أيضًا من طرح فانون أنَّ الاستعمار هو عملية إحلال إزالة ومحو بُنى سياسية واقتصادية وثقافية وسكانية موجودة بالأساس، واستبدالها ببنية جديدة مُختلفة، يسعى المستعمِرين من خلال البنية الجديدة لاقناع المستعمَرين بأنَّهم هامشيين، وغير منتجين، ومتخلفين، وبأنَّ ثقافتهم هيَّ السبب في استعمارهم، ويمكن من خلال هذا الخطاب أنّ نفهم أنَّ عملية المحو الاستعماري متركزة بالأساس على مبدأ محو قدرة الذوات المستعمَرة الفاعلة على الإنتاج والعمل، والنهوض ببنية مجتمع (المستعمَرين) الاقتصادية، ولكن ما يحدث في الحقيقة أنَّ الاستعمار يعمل على وضع الكثير من العوائق الّتي تؤدي إلى عرقلة مشاريع التطوير والتحديث، وبناء هوية وطنية خاصة، ويسوقنا هذا النوع من المحو إلى معرفة أنّ الهدف الأساسي من هذه الممارسات الاستعمارية، هو الحيلولة دون استقلال المستعمَرين والحفاظ على تبعيتهم.

يعمل المستعمِر على محو العلاقة الّتي تربط بين المستعمَر ومكانه وزمانه وتاريخه وضبطها؛ من خلال تغيير الشكل المعماري للبناء، وتغيير الأسماء، بالإضافة إلى محاولات إفراغ جسد المستعمَر من النسق الثقافي الّذي يشكل وعيه الجمعي، فهذه الممارسات المحوية تهدف إلى ضبط ومحو المكونات الثقافية والسياسية الّتي تُشكِّل شخصية/وعالم المستعمَر، وتؤثر في بناء وعيه، وطبيعة تعامله مع المستعمِرين، ونظرته للمستعمِر وممارساته، كأنّ يتم إبراز الجانب الإيجابي من الاستعمار وإيعاز الكثير من التطور له، وذلك في سبيل محو البنية الفوقية الّتي تنظم حياة الأفراد في مجتمع المستعمَرين بحيث تصبح مسيطرًا عليها وقابلة للتغيير الّذي يضمن الاستقرار والاستمرارية للاستعمار،

[71] المرجع السابق.

بالتركيز على زعزعة العلاقات الاجتماعية/ الاقتصادية/ الوعي والفاعلية، وإعادة ترتيب للهموم الفردية، أيّ إنهاء حالة الجماعة الّتي تربط مجتمع المستعمَرين، وإحلال مكانها هموم فردية، تحول دون المواجهة الجماعية مع الاستعمار.

إنّ الأمثلة على السياسات الاستعمارية الّتي يقوم بها المستعمِر لعرقلة أي تطور خاص بمجتمع المستعمَرين، ولضبط ذواتهم الفاعلة والعاملة، فرض الضرائب القاسية، والحصول على المحاصيل بطريقة إجبارية، والعمل القسري، ويتم ذلك من خلال مؤسسات وأجهزة تقوم بهذا العمل؛ سواء من خلال نظام الضبط الشرطي، أو من خلال رقيب الجيش، ومن ناحية آخرى يعمل الاستعمار على خلق نخب لا عقل مستقل لها، من خلال المؤسسات التعليمية والإعلامية[72].

على الرغم من التشابه الكبير بين الأدوات الّتي يستخدمها الاستعمار والاستعمار الاستيطاني، في السيطرة على الأرض والسكان، إلّا أنَّ الاختلاف بينهما يبقى قائمًا من حيث هدف السلطة الاستعمارية، والبنية الأساسية الّتي شكلت حالة الاستعمار، فالاستعمار بتصنيفاته الاستغلالية/ التجارية المبنية على فكرة السيطرة على المواد الخام والاستحواذ على الأيدي العاملة الرخيصة، أو الاستعمار التقليدي القائم بالأساس من فكرة التوسع والاستكشاف، يهدفان للحصول على فائض قيمة من الأرض والسكان معًا، فالأرض هيَّ منبع الثروات والمواد الخام الّتي تستخدم بشكل أساسي لبناء المستعمرة، وتشكل فائض احتياطي لها أيضًا، والسكان هُمّ الموارد البشرية الّتي تعمل بالإكراه لصالح تنمية المستعمَرات.

إنَّ الاستعمار هو الإطار الأعم لفهم الاستعمار الاستيطاني، حيث أنَّ الأدوات والممارسات متشابهة في الحالتين، مع تكثيف لهذه الأدوات في الحالة الاستعمارية الاستيطانية، كون الهدف من الاستعمار الاستيطاني هو الحصول على أرض فارغة لإقامة مجتمع جديد ومتطور ومنفصل عن أي دولة

---

72 Cesaris, “Discourse on Colonial,” 179.

آخرى، فالاستعمار الاستيطاني يحتل ويؤكد دائمًا على السيادة على أراضي الشعوب الأصلية، بينما العملاء الاستعماريين مثل التجار أو الجنود أو المحافظين يؤكدون على قدرتهم على تطوير حضارة المستعمرات وتحديثها ويتخذون من هذا مبررًا لاستعمارهم، لهذا فالسكان بالنسبة لهم مادة خام، وقوة عمل لتطوير المستعمَرة. كما وأنَّ الغزو الاستعماري للمستوطنين هو بنية، وليس حدثًا[73]: فاستعمار المستوطنين مستمر في الإزالة للسكان الأصليين، وتأكيد سيادة الدولة الاستعمارية وسيطرتها القانونية على الأراضي المستعمَرة، ويسعى الاستعمار الاستيطاني إلى تحقيق هدفه الخاص؛ بالقضاء على التحديات المتمثلة بمطالبات الشعوب الأصلية بالأرض؛ وذلك من خلال القضاء على الشعوب الأصلية نفسها، وتأكيد الروايات التاريخية والتراثية الكاذبة لانتماء المستوطنين وأحقيتهم في الأرض[74].

يقوم الاستعمار الاستيطاني على إحلال واقصاء السكان الأصلانيين من قِبَل المجموعة المُستعمِرة، واستبدالهم بمجموعة المستعمِرين المستوطنين، للسيطرة على الأرض وإقرار هويتهم الخاصة وسيادتهم عليها، وبناء مجتمع جديد[75]" فهو يقوم بهذه الوظيفة الاحلالية من خلال بناء بنية المجتمع الاستعماري الاستيطاني، مكان المجتمع الأصلي باستخدام مجموعة من الاستراتيجيات، ومنها؛ هدم مكونات المكان الثقافية والتاريخية، واستمرارية هذا الفعل الاحلالي بالسيطرة على السكان ونقلهم/ تهجيرهم أو إبادتهم، أو من خلال تسكينهم بفعل محو ذواتهم الفاعلة والمقاومة بالقتل أو الاعتقال أو العزل، ومحو مقومات وجودهم كمجموعة وشعب، ليحل مكانهم مجتمع جديد ويستقر على الأرض الّتي تمَّ محو سكانها [76].

---

[73]Wolfe, “Settler Volonialism,”: 388.

[74] Adam Barker and Emma Battell Lowman, “Settler Colonialism,” *Global Social Theory* (22/5/2019) < https://globalsocialtheory.org/concepts/settler-colonialism/ >.

[75] Wolfe, “Settler Colonialism,” p 388.

[76] غانم، "المحو والإنشاء،" .

الاستعمار الاستيطاني يبني حجره الأساس على الأرض، وهو خلاصة مكثفة أيضًا للاستعمار الاستغلالي، ولكن السكان مَنّ يشكلون فائض القيمة بوجودهم، فالسكان الأصلانيين ليسوا بمادة خام لتطوير المستعمَرة وإنّ كانوا في مرحلة معينة من مراحل الاستعمار جزءًا من الأيدي العاملة والمستعبدة، لكن في محصلة الأمر وجودهم معيق لاستمرار تطور المجتمع الاستيطاني واستقراره.

تُشكل الإبادة خطوة أساسية في عملية الاستعمار الاستيطاني، إلّا أنَّه في مرحلة معينة من تجارب الاستعمار الاستيطاني المختلفة، يشكَّلَ مجتمع الأصلانيين ضرورة للعمل وإنّ كان مؤقتًا، فالمستعمر المستوطن يأخذ التقنية الأساسية الّتي يتعامل فيها الأصلاني مع أرضه ومكانه، ومن ثم يتم سلبها وتطويرها ومصادرتها من الأصلاني ومنع أي عملية تطوير إلى أنّ تأتي المرحلة الثانية في مشروع المستوطن بإقصاء الأصلاني عن الأرض، بوضعه داخل جيتوهات يُحاصر فيها بأكثر أماكن وطنه فقرًا، وتستلب منه أدوات انتاجه الخاصة به، والجيتوهات تُعبّر عن شكل واحد من عملية الاقصاء في الاستعمار الاستيطاني، فهنالك أيضًا العنف البدني المعلن؛ المتمثل بقتل السكان الأصلانيين وتهجيرهم، والقضاء على وجودهم، فضلًا عن المعاملة المهينة لفرض السيطرة والضبط على المستعمَرين، والتحكم بهم[77].

تُعد ممارسات وأدوات الضبط/والمحو الاستعمارية على المكان والأسماء، أساسية في العملية الاستعمارية الاستيطانية، حيث أنَّ أسماء الأماكن وبنائها تشكلّت من ذاكرة جماعية ومخيلة سياسية خاصة جدًا بالمستعمَرين، بالإضافة لبناء التمايزات الاقتصادية والتكنولوجية والمعرفية من خلال تضييق طرق تطوير المستعمَرين لذواتهم ومجتمعاتهم، وتقديم تسهيلات كبيرة لمجتمع المستوطنين، مما ينعكس سلبًا على طاقات الأفراد المستعمَرين ويؤثر على وعيهم، والأكثر أهمية بالنسبة لدراستي محاولة المستعمِر دومًا إنهاء وعي المستعمَر بانتمائه لمجموعة تعتبر شعبه.

---

[77] Barker and Lowman, "Settler Colonialism,"

تختلف ممارسات المحو في داخل مجتمعات الاستعمار الاستيطاني وذلك لاعتبارات وغاية المشروع الاستيطاني نفسه، فاختلاف حالة استراليا وأمريكا تكمن في وجود الدولة الأم للمُستعمَرة، وهذا يعني أنَّ الحصول على الأرض لم يأتِ بالأساس من فكرة التأكيد على الأحقية التاريخية على الأرض والعودة لها، بل جاء في سياق فرض السيادة القانونية على الأرض بحجة عدم قدرة السكان الأصلانيين على استغلال هذه الأرض، ولحاجة الدول الأوروبية المستوطِنة إلى التوسع والحصول على المواد الخام[78].

أما الاستعمار الاستيطاني الصهيوني فيتفرد بكون عناصر كيانه المستوطِنة مشتتة في مناطق مختلفة من العالم، فلا يوجد دولة أُم لليهود، بل إنَّ أساس المشروع الاستيطاني لها مبني على فكرة العودة إلى الأرض المقدسة، وهيَّ أرض فلسطين، فالسيطرة والاستيطان يقومان على خطاب الحق التاريخي والديني (القومي) في الأرض بالأساس.

إنَّ استخدام العنف المطلق ضرورة من ضرورات استكمال المشروع الاستعماري الاستيطاني بالنسبة للمستعمِرين، فالهياكل الاستعمارية مبنية على العنف والاقصاء والتمييز العرقي، فنظام العدالة الجنائي مثلًا في استراليا، والّذي استخدم في المراحل المبكرة من الاستعمار، اعتمد على القمع والطابع العسكري، حيث أصبحت تصرفات الشرطة في تفريق السكان الأصليين جزءًا مهمًا من السياسة الاستعمارية لضمان إزالة مُلَّاك الأراضي التقليديين والسيطرة عليهم[79].

تُشكِّل سياسية الاحتواء من خلال الهيمنة القانونية وسيلة من وسائل السيطرة على الذوات الفاعلة وضبطها، من خلال استصدار قوانين معينة تُهندس مجال الحركة والعمل والحريات الشخصية للمستعمَرين، ويكون الهدف الأساسي استخدام العنف وشرعنته قانونيًا؛ وذلك للتعامل مع المقاومة

[78] وليد حباس، "مفهوم الاستعمار الاستيطاني – نحو إطار نظري جديد،" *مجلة الدراسات الفلسطينية*، ع66 (2013): 115.

[79] Chris Cunneen, “Indigenous Incarceration: The Violence of Colonial Law and Justice in Scraton,“ P. and McCulloch, J. (eds) The Violence of Incarceration*, Routledge Taylor and Francis Group*, London (2009) pp. 209-224: 209>.

المحلية، حيث يُعد العنف من وجهة نظر الاستعمار الوسيلة المناسبة لإعادة ضبط وفرض الهيمنة على الأصلانيين، هذه القوانين تسلط الضوء على بعض المخالفات الّتي قد يرتكبها السكان الأصليون داخل مجتمعهم، مثل شرب الكحول كما حدث في التجربة الاستعمارية الاستيطانية في الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب افريقيا، أو تجريم الأشخاص العاطلين عن العمل، او الّذين يخرجون عن (مناطق العبور الّتي يحددها المستعمِر للمستعمَرين كما في جنوب افريقيا) وتكمن عنصرية هذ القوانين في أنَّها تُحاكم السكان الأصلانيين دون غيرهم، ويقول الانثروبولوجي الاسترالي تشارلي رولي" لا يزال صحيحًا أنَّه في كوينزلاند يمكن أنّ يسجن المُستعمَر إما بسبب جريمة أو لكونه من السكان الأصلانيين"، وأشار كذلك انكينسون أحد الكتّاب الأصلانيين إلى سياسات الاحتواء والتبعية القسرية باعتبارهما عنف استعماري هيكلي [80].

يقوم منطق الاستعمار الاستيطاني على الوصول بأسرع وقت ممكن إلى الاعتماد الذاتي، والاستمرارية الذاتية، سواء في الاقتصاد، أو في التركيبة الديمغرافية. فمعنى الاستيطان الدائم، يتضمن إنشاء مجتمع متكامل من المستعمرين الاستيطانيين، والكف عن تلقي مساعدات خارجية من جهة، والانتهاء من طرد أو إزالة السكان الاصلانين، من جهة أخرى. وطالما لم يتم بلوغ هذين الهدفين فإنَّ الاستعمار الاستيطاني يعتبر نفسه مهددًا[81]

بذلك فاختلاف الهدف الأساسي بين الاستعمار والاستعمار الاستيطاني، هو ما يجعلنا نفهم اختلاف الغاية من استخدام أدوات الضبط والمحو في المجتمعات المستعمَرة، فالاستعمار الاستيطاني أدواته مكثفة بشكل يُفضي إلى السيطرة على حياة السكان وأشكال موتهم، بمعنى أكثر دقة إدارة حياة المستعمَرين بشكل يؤدي إلى إزالة وجودهم عن الأرض، وإزالة وجودهم الثقافي، وارتباطهم بالحق

[80] Ibid.

[81] حباس، "مفهوم الاستعمار الاستيطاني،" 118.

السياسي والمادي بالأرض والإنتماء لها والمطالبة بها وبحق تقرير المصير، وإزالة أي بذور من الممكن أنّ تساهم في تشكيل هوية جامعة توحد المستعمَرين ونضالاتهم.

بناء على ما سبق؛ لا يشير منطق الإلغاء الاستعماري الاستيطاني بالضرورة إلى تصفية السكان الأصلانيين على الرغم من أنَّه يشمل ذلك، وإنَّما إلغاء هويتهم ووعيهم الوجودي (إزالة سياسية) وارتباطهم بالأرض وبناء مجتمع لهم، ولخَّصَ باتريك وولف هذه الغاية في تحليله للاستعمار الاستيطاني في أميركا؛ "إنَّ على كل من هو هندي أنّ يُقتَل، اقتل الهندي داخله وانقذ الرجل"، و"الهندي الطيب هو الهندي الميت[82]" وهو ذات الخطاب الّذي استخدمه الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ويستمر في استخدامه "العربي الجيد هو العربي الميت" إنَّ هذه الخطابات تضعنا أمام صورة واضحة لغاية ممارسات المحو الّتي ينتهجها الاستعمار الاستيطاني في الهيمنة على الدول المُستعمَرة؛ وهيَّ انتزاع أصلانية المستعمَر الفاعلة والمتشكلة من وجوده الاجتماعي والسياسي، وإقصاءه عن مجتمعه وشعبه، والحيلولة دون الانتماء لأرض ومجتمع وهوية.

المحور الثاني: مبدأ المحو في الاستعمار الاستيطاني الصهيوني

المحو على الأرض والمكان

يواجه الفلسطينيون الكثير من الممارسات الاستعمارية البريطانية والخطط الصهيونية على أرض فلسطين قبل نكبة عام 1948، حيث أنَّه وبعد إقرار وعد بلفور في عام 1917، أصبح هنالك إطار دولي يتبنى الهجرة الصهيونية إلى أرض فلسطين، فعلى الرغم من أنَّ بداية الهجرات اليهودية إلى فلسطين قد سبقت ذلك بكثير، إلا أنَّه بعد هذا القرار أصبح هنالك تنظيم أكبر في سياسات إفراغ الأرض من الفلاحين وتسهيل بيعها لليهود.

---

[82] Wolfe, “Settler Colonialism,” p14.

لَحِق ذلك، تأسيس الوكالة اليهودية لشراء الأراضي عام 1929، حيث شكّل هذا العام رد فعل ثوري لدى الفلسطينيين بعد إدراكهم لغاية المشروع الصهيوني ورؤية تمثلاته على أرض الواقع، بمساندة سياسية من الانتداب البريطاني، والّتي كانت تفتح المجال أمام فرض السيادة اليهودية على بيت المقدس من قِبَل المهاجرين اليهود، بالإضافة إلى سياسات التضييق على الفلاحين والعمال الفلسطينيين في سبل عيشهم، من خلال فرض الضرائب العالية، ورسوم تسجيل الأراضي الباهظة، في المقابل كانت هذه السياسات البريطانية ومشروع الحركة الصهيونية يُسهِّلان هجرة اليهود إلى أرض فلسطين واستيطانهم فيها، وعلى الرغم من وعي الفلسطينيين لهذا المشروع الاستيطاني، ومحاولات مقاومته الدائمة، كما حصل في ثورة البراق، إلّا أنَّها لم تكن كافية لردع الاستيلاء على الأراضي ووقف الهجرات اليهودية إلى فلسطين[83].

شهد الفلسطينيون في مرحلة الثلاثينيات من القرن المنصرم، على زيادة كبيرة في أعداد المهاجرين اليهود، على وجه التحديد يهود ألمانيا االأغنياء، وتَبِعَ ذلك سيطرة كبيرة واستحواذ استعماري استيطاني صهيوني على مجموعة واسعة من الأراضي الفلسطينية، الأمر الّذي أثر بطبيعة الحال بشكل كبير على الاقتصاد الفلسطيني المحلي، وساهم في تمركز جماعات اليهود في التجمعات السكنية المركزية، مما أدى إلى قيام الثورة الفلسطينية الكبرى عام 1936 ردًا على هذه الممارسات، ولكنَّ هذه الثورة لم تحقق أهدافها بسبب الكثير من العوامل الداخلية على المستوى القيادي والشعبي، وبسبب عوامل خارجية تتمثل بهشاشة العلاقات والتواصل مع الدول العربية[84].

---

[83] غسان كنفاني، "ثورة 36-39 في فلسطين .. خلفيات وتفاصيل وتحليل،" (تاريخ الزيارة: 2019/6/1). <https://foulabook.com/ar/read/%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A9-36-pdf>.

[84] المصدر السابق.

ساهمت هذه المحطات البارزة في المشهد الفلسطيني، بإنهاك البنية الثورية للفلسطينيين، بسبب تصديهم للسياسات البريطانية ونشاط المشروع الصهيوني، حيث كانت المقاومة تعمل من جهة على مقاومة عمليات السيطرة واستغلال الأرض والسكان، ومن جهة آخرى تحارب عملية التحضير للاحلال الاستيطاني الصهيوني، مما سَهَّلَ الطريق أمام الصهاينة في السيطرة على مساحات واسعة من الأراضي الفلسطينية في عامي 1947-1948.

قام المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني على مفهوم المحو الوجودي للسكان، والّذي تُعد الإبادة من الأشكال المؤسسة لحدث النكبة فيه، فما حدث عام 1948م من قتل أفراد وجماعات[85]، وتهجير للسكان الفلسطينيين من قراهم ومدنهم، ومحو الكثير من هذه القرى بهدمها كليًا، كما ونشر الخوف الّذي أجبرَ الفلسطيني على ترك بيته والهرب خوفًا من عنف العصابات الصهيونية، أحدَّث شكلًا من أشكال المحو الجزئي للوجود الفلسطيني على أرض فلسطين، فكانت الإبادة والقتل العنف المؤسس للمشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني في فلسطين[86].

استمرت عمليات المحو من خلال العنف المبني على القتل، والإزالة من خلال التهجير، حتى بعد إعلان الاستعمار الاستيطاني الصهيوني نفسه دولة، فما حدث عام 1967 "نكسة حزيران"، والّتي قامت خلالها القوات الصهيونية بإعادة إنتاج جغرافيا وديمغرافيا جديدة، من خلال تهجيرها لمعظم سكان مدن قناة السويس، وتهجير معظم مدنيي محافظة القنيطرة في سوريا، وتهجير عشرات الآلاف من الفلسطينيين من الضفة بما فيها محو قرى بأكملها، وفتح باب الاستيطان في شرق القدس والضفة

[85] كارا بريستلي، "إعادة تعريف الإبادة: الاستعمار الاستيطاني، الموت المجتمعي، التدمير البيئي – للكاتب داميات شورت،" *مجلة الدراسات الفلسطينية* 114 (ربيع 2018): 223-225.

[86] غانم، "المحو والإنشاء،"، 122.

الغربية[87]، حيث مهدت هذه السيطرة إلى إعادة تشكيل واقع جديد للمُستعمَرين في هذه المناطق، من خلال ربط النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والقانوني لهم، بالنظام السياسي الاستعماري.

كذلك ما حدث في الانتفاضة الشعبية عام 1987 "الانتفاضة الأولى"، والّتي نشبت بالأساس من ممارسات الضبط والهيمنة الّتي كان يمارسها الاستعمار الاستيطاني الصهيوني بحق الفلسطينيين في تلك الفترة، وكانت الشرارة لهذه الانتفاضة دهس مستوطن صهيوني شاب فلسطيني على حاجز ايرز جنوب قطاع غزة، وكذلك ما حدث في الانتفاضة الثانية في عام 2000، حيث شهدت المناطق الفلسطينية جميعها اعتداءات الصهاينة والاجتياحات المتكررة، وكانت شعلة هذه الانتفاضة دخول رئيس الوزراء الإسرائيلي "الأسبق" أرئيل شارون إلى باحة المسجد الأقصى برفقة حراسه[88]، وهذه الممارسات تستبطن تحديًا للوعي القومي والديني للفلسطينيين، بمحاولة كسر قدسية هذه المكونات، واستباحتها، للسيطرة على المكان والوعي الفلسطيني.

فالممارسات الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية، تدل على تكاملية المشروع الصهيوني في محو المشهد الفلسطيني، من خلال السيطرة على المشهد الديني الّذي يُعد بُنية أساسية في الثقافة الفلسطينية، وكذلك السيطرة/ ومحو الجسد الفلسطيني المقاوم، ويسعى هذا المحو الاستعماري إلى ضبط المشهد الفلسطيني، ليجعله مرنًا منهزمًا ومتقبلًا لممارسات الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، الّتي تستمر في بناء مستعمراتها ومحاولة استقرارها.

---

[87] لمزيد من التفاصيل حول ما حدث في الجولان السوري على وجه الخصوص بعد نكسة حزيران، يرجى الإطلاع على: منير فخر الدين، "الهوية والاستعمار في الجولان المحتل .. ملاحظات في جدلية الوعي والهيمنة،" *مركز حرمون للدراسات المعاصرة* (11 تشرين الثاني/2017) (تاريخ الزيارة: 2019/6/15) <https://fada.birzeit.edu/jspui/bitstream/20.500.11889/5744/1/Identity-and-Colonialism-in-the-Occupied-Golan.pdf>.

[88] لمزيد من التفاصيل حول أسباب الانتفاضة الأولى، والممارسات الاسرائيلية، وتأثير الانتفاضة على الجانب الفلسطيني والاسرائيلي، يرجى الاطلاع على: أسعد عبد الرحمن، "الانتفاضة 1987،" *الموسوعة الفلسطينية* (4 أيلول/ 2019) (تاريخ الزيارة: 2019/6/13) <https://www.palestinapedia.net/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%86%D8%AA%D9%81%D8%A7%D8%B6%D8%A9-1987/>.

سعى المشروع الصهيوني أثناء محاولاته وسعيه لضبط الحراكات والثورات الشعبية الفلسطينية، زيادة توسعه الاستيطاني، وفرض طوق أمني، ونظام مراقبة فعّال على الفلسطينيين، وكان توقيع اتفاقية أوسلو إجهاضًا للثورة الشعبية الأولى، والّتي أعطت شرعية للوجود الصهيوني على الأرض الفلسطينية، وجعلت من الضفة الغربية وقطاع غزة سوقًا للبضائع الصهيونية، وربطت الاقتصاد والسياسية والأمن ببعضهما، بالإضافة إلى تصنيف الأراضي الواقعة في الضفة الغربية إلى مناطق "أ" الّتي تقع تحت سيطرة السلطة الفلسطينية أمنيًا ومدنيًا، ومناطق "ب" والّتي تقع مسؤوليتها الإدارية على السلطة الفلسطينية أما المسؤولية الأمنية تخضع للسيطرة الاستعمارية الصهيونية، وتشكل منطقتي "ا/ب" 40% من مساحة الضفة الغربية، ومناطق "ج" تخضع للسلطة الاستعمارية الصهيونية أمنيًا وإداريًا، وتعتبر مناطق "ج" من أوسع مساحات الأراضي الفلسطينية الخصبة والصالحة للزراعة والغنية بالمصادر الطبيعية، والّتي تُشكّل مصدر دخل مهم للفلسطينيين[89].

تستمر بنيوية الضبط للمشهد والميدان النضالي الثوري الفلسطيني، من خلال بناء نظم عزل ومراقبة وضبط وسيطرة للمكان والجسد الفلسطيني، عقب الانتفاضة الشعبية الثانية تم بناء جدار الضم والتوسع، والّذي يُعد تجسيدًا ماديًا لمفهوم الإزاحة والمحو للسكان – كان المنطق السياسي والأمني المُعلن لجدار الضم والتوسع، هو أنّ يكون جدار عازل وأمني، لمنع تنفيذ العمليات في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1948، ولكن هذا الجدار استولى على مساحات واسعة وبعيدة عن الحدود الّتي من المفترض البناء عليها، وذلك في سبيل احتواء الموارد الطبيعية والأرض من جهة، وإخلاء الأراضي القريبة من الجدار من السكان الفلسطينيين–، حيث تم الاستيلاء وضم مساحات كبيرة من الأراضي الفلسطينية الصالحة للإعمار وللزراعة، والّتي تحوي موارد طبيعية كالآبار المائية، وساهم هذا الجدار في تفتيت الجغرافيا بهدف السيطرة والمراقبة على كافة المناطق الطبيعية والّتي من الممكن

[89] جاد اسحق، وجولييت بنورة، *السياسات الاسرائيلية تجاه الأراضي في الأغوار* (القدس: معهد الأبحاث التطبيقية "أريج"، 2011):4.

أنّ تستخدم في اختباء المقاومين وتسهيل عملهم وحركتهم، وساهم في هدم المنازل الواقعة في حدود الجدار وتهجير سكانها، أو فرض نمط حياة صعب وضيق عليهم، مما أدى إلى إخلاء الأرض من السكان من خلال التهجير القسري والصامت.

من هذه الممارسات المحوية على الأرض والّتي ساهمت في الاستبعاد والإزالة للسكان الفلسطينيين؛ الحواجز العسكرية الّتي فصلت بين المدن وصعبّت من عملية التواصل بين المدن الفلسطينية سواء المحتلة عام 1948 أو المحتلة عام 1967، والّتي لعبت دورًا كبيرًا في خلق هويات فردية للجماعات في كل منطقة على حِدّة، إضافة إلى تقسيم المناطق الفلسطينية حسب طبيعة الهيمنة الاستعمارية عليها بين منطقة الضفة وقطاع غزة والقدس والداخل الفلسطيني المحتل، كما وتقسيمات آخرى داخل هذا التقسيم أيضًا بين مناطق واقعة تحت السيطرة المدنية/ العسكرية الاستعمارية الاستيطانية.

كذلك إنَّ الطرق الالتفافية للمستوطنات الصهيونية الّتي تم بناؤها في منطقتي الضفة الغربية وقطاع غزة، باتت تُعبر بوضوح وثبات عن الحالة الدائمة والشاملة للاستعمار وفق خطة المشروع الصهيوني، حيث أنَّها شكلّت أداة لضبط المشهد الفلسطيني الفاعل، من خلال إحباط عمليات المقاومة الفلسطينية ضد السياسات الصهيونية الاقصائية، والّتي تعمل على عزل ونفي الفلسطيني من خلال الطرق الالتفافية، والسيطرة على الموارد الطبيعية والأرض الّتي يمتلكها[90]. وهذه أداة لمحو المشهد الفيزيائي للمكان الفلسطيني، وكذلك محاولة لمحو ممارسات المقاومة الفلسطينية.

السلطة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية متشعبة في ممارستها الّتي تُمارس على المكان الفلسطيني، فكما هو مهم السيطرة على الأرض ومصادرتها كما ذكرت أعلاه، فمن المهم أيضًا العمل على انتزاع البُعد الديمغرافي والثقافي لهذا المكان لمحوه، وإعادة تسميته وبنائه وفق الروايات اليهودية، لتعزيز الرواية الاستعمارية.

---

[90] Neve Gordon, *Israel's Occupation* (California: University of California, 2008): p27.

قامت اسرائيل في عام 2001 أي في نهاية الانتفاضة الشعبية الثانية "انتفاضة الأقصى" بجمع 300 من خبراء سياسيين واقتصاديين واجتماعيين صهيونيين من اسرائيل وخارجها لمناقشة وضع اسرائيل حتى عام 2025، وكانت أبرز نتائج الأوراق الّتي قُدمت في هذا الشأن هو التخوف الديمغرافي من الفلسطينيين نظرًا لزيادة أعدادهم الملحوظة مقابل الاسرائيلين الّذين يشكلون 40% مقابل 60% من الفلسطينيين، وبناء على هذه المخاوف تم وضع مجموعة من الخطط تتمثل في؛ مخطط تطوير الجليل بخفض نسبة الفلسطينيين فيه من 52% إلى 38%، ومخطط القدس اليهودية الكبرى بخفض سكانها الفلسطينيين من 32% إلى 8%، ومضاعفة عدد اليهود في منطقة النقب، والانفصال الأحادي عن الضفة وقطاع غزة مخلفين بنية مُدمرة[91]، تعكس هذه النتائج الّتي شرع الكيان الصهيوني في تنفيذها جملة وتفصيلًا، إلى مبدأ المشروع الصهيوني في تشكيل مشهد يهودي نقي، من خلال الاستمرار في محو الوجود الفلسطيني.

شهد قطاع غزة منذ اليوم الأول للدخول الصهيوني إليه، معاملة عسكرية مختلفة عن الضفة الغربية، وذلك بسبب الخبرة العسكرية الّتي اكتسبها الكثيرون من ساكني قطاع غزة خلال فترة الحكم المصري، بالإضافة إلى تركز الفدائيين في هذه المنطقة، مما جعل عملية ضبطها ومحاولة السيطرة على وعيها تتمثل في فرض طوق أمني مشدد على القطاع منذ سيطرة الاستعمار "الاسرائيلي" عليها، إضافة إلى إقامة الأسلاك الشائكة أو إعادة هندسة المكان من خلال توسيع الطرق في المخيمات بحيث تسمح بدخول الدبابات والمدرعات إليها بكل سهولة، بالإضافة إلى إنشاء مستوطنات يهودية في غلاف المنطقة ومحيطها، كما والانسحاب "الاسرائيلي" الأخير من قطاع غزة، وفرض الحصار على القطاع من خلال السيطرة على معابر الدخول إلى غزة والخروج منها من خلال ثلاث حواجز عسكرية برقابة

[91] جمال جمعة، "الجدار وتهويد القدس،" *مجلة الدراسات الفلسطينية*، 85 (شتاء 2011): 80-84.

استعمارية صهيونية؛ وهيَّ: حاجز إيريز شمال القطاع، وحاجز ناحال عوز شرقه، وحاجز رفح جنوبه[92].

في المراحل الّتي تلت الانتفاضة الشعبية الثانية (انتفاضة الأقصى) عزز الاستعمار الصهيوني استخدام سياسة الاستيطان للسيطرة على المكان الفلسطيني، في مناطق الضفة وغلاف غزة ومنطقة شرق القدس، وحسب الاحصائيات فإنَّ عدد المستوطنين في مناطق الضفة وشرق القدس بين 1967-2002 يُقدَّر ب 380000 مستوطن يحمل الجنسية "الاسرائيلية"[93]، وتتزايد وتيرة الاستيطان ومصادرة الأراضي عامًا بعد عام، وفي تقرير نشره مركز عبدالله حوراني للدراسات والتوثيق، في عام 2016 تم توثيق مخططات ومنح تراخيص لنحو (27335) وحدة استيطانية في الضفة الغربية وشرق القدس فقط، هذا عدا عن الأراضي الّتي تمت مصادرتها من السكان والّتي تُقدّر بـ (12326) دونمًا من الأراضي الخاصة بالفلسطينيين، والّتي يتم تحويلها لصالح الاستيطان لاحقًا[94].

---

[92] عدنان أبو عامر، "السياسة الاسرائيلية في قطاع غزة 1948- 2009،" (2018) (تاريخ الاستخدام: 2019/9/30) < http://adnanabuamer.com/post/103/%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%B3%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D9%87-%D9%82%D8%B7%D8%A7%D8%B9-%D8%BA%D8%B2%D8%A9-1948-2009> .

[93] لمزيد من التفاصيل حول الاستيطان خلال فترة 1967-2002، ومعرفة الكيفية الّتي تقوم بها المؤسسة الاستيطانية للتخطيط الاستيطاني، يُرجى النظر في هذا التقرير: "سلب الأراضي: سياسة الاستيطان الاسرائيلي في الضفة الغربية،" *بتسيلم* (أيار/2002) (تاريخ الاستخدام: 2019/9/30) <https://www.btselem.org/arabic/publications/summaries/200205_land_grab >.

[94] للمزيد من المعلومات حول التوسع الاستيطاني في مناطق الضفة الغربية، والسيطرة على الأرضي ومصادرتها يُرجى النظر إلى:"تقرير حصاد النشاطات الاستيطانية ومصادرة الأراضي في العام 2016،" *مركز عبدالله حوراني للدراسات والتوثيق/ منظمة التحرير الفلسطينية* (2017) (تاريخ الاستخدام 2019/9/30) <http://www.plo.ps/article/45311/-%D8%AA%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%B1-%D8%AD%D8%B5%D8%A7%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B4%D8%A7%D8%B7%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D9%8A%D8%B7%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9>.

بالإضافة لسياسات المحو الّتي طالت المناطق الّتي تُصنّف جغرافيًا بأنّها تابعة للقدس، تمهيدًا لتهويد القدس، من خلال فصل مخيم شعفاط وكفر عقب وجزء من السواحرة والولجة عن منطقة القدس، بالإضافة لعمليات التجريف في ساحة باب العمود ومقبرة مأمن الله، وذلك لاستبدال هذه المناطق بمنشآت استيطانية في منطقة حائط البراق، من أجل تغيير الطابع الديني الإسلامي والمسيحي للمدينة، بتغيير التركيبة الديمغرافية، وإحكام السيطرة على المعالم الدينية فيها، ومحاولات تهويد القدس[95].

لعلّ قانون الدولة القومية اليهودية الّذي دُفعَ إلى الكنيست في 2017، وتمت المصادقة عليه في 2018، وقانون التسوية، يُصوران البُنية الأساسية في عمل الحركة الصهيونية الاستعمارية ومبدأها في محو المكان الفلسطيني بتشكيلاته الثقافية والدينية والسياسية، وذلك من خلال بناء دولة اليهود القومية، والّتي تضمن وجود الأغلبية اليهودية في المنطقة ديمغرافيًا، وتفرض المشهد اليهودي على المكان الفلسطيني، واللغة العبرية كلغة رسمية يتم الاعتراف بها، وهذا يعني بأنَّ الفلسطينيين سيتم إقصاؤهم أو تهجيرهم أو عزلهم، والتعامل معهم كأقليات تُمارس حقوقها داخل دولة قومية[96].

على الرغم من محاولة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني تغليف ممارساته الاستعمارية دائمًا بالحجة القانونية، أو الضرورة الأمنية والعسكرية، إلّا أنَّ مبدأ القانوني الصهيوني يقوم على مقولة بورديو "اعطني الوقائع أعطك قانونًا" وذلك أنَّ عملية الاستيطان على الأرض تتم بالقوة، وإخلاء السكان منها، وعادة ما تكون خطوة مستبقة لاستصدار قانون يلائم "فكرة الضرورة الأمنية للاستيطان" وخصيصًا في

---

95 "عبد الله الحوراني: 8 شهداء ومخطط لفصل أحياء فلسطينية عن القدس خلال تشرين أول الماضي،" *مركز عبدالله حوراني للدراسات والتوثيق/ منظمة التحرير الفلسطينية* (2017) (تاريخ الاستخدام (2019/9/30) < http://www.plo.ps/article/47253/%D8%B9%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%88%D8%B1%D8%A7%D9%86%D9%8A-8-%D8%B4%D9%87%D8%AF%D8%A7%D8%A1-%D9%88%D9%85%D8%AE%D8%B7%D8%B7>.

96 أنيس فوزي قاسم، "قانون "الدولة القومية للشعب اليهودي": المعنى والمغزى،" *مؤسسة الدراسات الفلسطينية* ع117 (شتاء/2019)25-55.

بعض المناطق الفلسطينية الواقعة تحت الاحتلال في منطقة الضفة الغربية، وكان آخرها السيطرة على منطقة بتير/ المخرور، وذلك في إطار ضم هذه المنطقة التاريخية والأثرية الفلسطينية إلى القدس، وتهويدها[97].

كما استخدام القانون لإخفاءه حالة الاستعمار الصهيوني الدائمة والبنيوية في فترة 1967-1994، وسميت هذه المرحلة ب "الاحتلال المستنير"، والّذي يُعد تعبيرًا مُبتذلًا، ففي هذه الفترة تم تبديل الممارسات لاستخدام السلطة من العنف المباشر إلى العنف الرمزي[98]، بدل الأسلحة والحواجز ومنع التجوال والعقوبات الجماعية، يتم فتح الحواجز والسماح بالتنقل ولكن دون تنقل بمكان السكن أو التملك لأي قطعة أرض غير المكان الّذي هُجِّرَ إليه الفلسطيني بعد نكبة 48 ونكسة 67، وبهذا التحول في شكل السلطة من عسكري إلى مدني، استطاع الاستعمار الصهيوني الاستفادة من الفلسطينيين لفترة مؤقتة، وبالإطار الّذي يُحدِّدَهُ لهم، فاستخدم الاستعمار الصهيوني القانون لإدارة الصراع مع الفلسطينيين[99].

سياسة التصاريح الاستعمارية، الّتي عملت على تحويل العديد من الحقوق مثل حرية التنقل إلى امتيازات تم منحها في شكل تصريح يمكن إلغاؤه في أي لحظة لمجموعة من الأسباب المعروفة وغير المعروفة، كما وأنَّ الغياب التام للشفافية في الطريقة الّتي تم بها اتخاذ القرارات بشأن التصاريح الّتي

---

[97] للمزيد حول الأهمية التاريخية لمنطقة المخرور، ولفهم الكيفية الاستعمارية الّتي فرضت فيها السيطرة على هذه الأراضي ومصادرتها، يُرجى النظر إلى: "الهدم في بيت جالا هو جزء من عملية اسرائيلية متواصلة لضم المزيد من أرض فلسطين المحتلة بشكل غير قانوني،" مركز عبدالله حوراني للدراسات والتوثيق/ منظمة التحرير الفلسطينية (2019) تاريخ الزيارة (2019/9/30) < http://www.plo.ps/article/51247/%D8%A7%D9%84%D9%87%D8%AF%D9%85-%D9%81%D9%8A-%D8%A8%D9%8A%D8%AA-%D8%AC%D8%A7%D9%84%D8%A7-%D9%87%D9%88-%D8%AC%D8%B2%D8%A1-%D9%85%D9%86-%D8%B9%D9%85%D9%84%D9%8A%D8%A9 >.

[98] Gordon, *Israel's Occupation* p25.

[99] وليد حباس، "الانتفاضة الأولى وحق تقرير المصير،" مؤتمر *مؤسسة الدراسات الفلسطينية* (2017/12/15) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/2) <https://www.youtube.com/watch?v=cl3Tt0C7amU> .

تتراوح من لم شمل الأسرة إلى فتح الشركات والسفر إلى الخارج ساعد في إنتاج شكل من أشكال عدم اليقين الّذي تم استخدامه لإدارة السكان بطرق مختلفة، حيث أنَّ الافتقار إلى الخطط والإجراءات الواضحة إلى جانب عدم وجود لوائح واضحة وشفافة، أجبرت الفلسطينيين على التصديق والتعاطي مع مسببات السياسة الصهيونية في منع الحصول على تصريح تنقل وعمل؛ كونَّ الفلسطينيين يسببون "مشاكل" من خلال مقاومتهم، ورفضهم للسياسات الصهيونية، في ذات الوقت إنَّ أولئك الّذين أصبحوا تابعين "وساكنين/ غير فاعلين ومقاومين" كانوا في كثير من الأحيان محرومين من الحصول على تصاريح دون سبب واضح[100].

مع تصاعد العمل المقاوم، وظّفت "إسرائيل" التصاريح كأداة ردع لمنع المزيد من العمليات، ولربط وقوعها بالتقييدات على حرية التنقل، والتضييق على لقمة العيش. تحوّل التصريح إلى "عقوبة جماعيّة" تطال عدداً كبيراً من الناس في محاولة لدفعهم لنبذ أيّ فعل مقاوم بوصفه مدمراً لحياة الناس، بحيث يتحول المقاوم إلى مدانٍ من الفلسطينيين أولاً لأنه يمس حياتهم بفعله، وربما يمكن اعتبار ذلك أحد أشكال كي وعي الفلسطينيّ[101].

في محصلة الأمر إنَّ السيطرة على المكان الفلسطيني من قبل المستعمِر المستوطن الصهيوني، مستمرة في اقتلاع الفلسطيني بشتى الطرق، لإزالة الدلالات المؤشرة على وجوده، ولتعزيز الرواية الاستعمارية الصهيونية، وهذه السياسات على الأرض تسعى إلى فرض وعي مغاير لدى الأجيال

---

[100] Gordon, *Israel's Occupation*, p26.

[101] باسل رزق الله، "التصاريح .. أداة "اسرائيل" للعقاب والثواب"، *متراس* (2019) (تاريخ الزيارة:2019/10/1) < https://metras.co/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AD-%D8%A3%D8%AF%D8%A7%D8%A9-%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84-%D9%84%D9%84%D8%B9%D9%82%D8%A7%D8%A8-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%88%D8%A7%D8%A8/> .

الفلسطينية، وهذه الممارسات ليست إلّا غيضًا من فيض تم الإشارة إلى ملامحها العامة لعدم تخصص الدراسة في تفحصها وتحليلها.

المحو الثقافي

تعتبر سياسة الصهينة والعبرنة سياسة احلالية/محوية عنيفة تعيد رسم رموز الهوية الفلسطينية، الَّتي بدأت تعمل بها الصهيونية سنة 1870 وهيَّ بطابعها خطرة على الواقع الفلسطيني؛ لأنَّها أحد أهم دعائم الصهيونية في رسم حكايتها، وبات علم الآثار هو المبدأ السائد في عملية تحويل فلسطين إلى "دولة اسرائيل"، فاستخدمت الأسماء العبرية، مع إعادة كتابة التاريخ الصهيوني في المكان الفلسطيني ظنًا منها أنَّ الإبادة الثقافية بالمعول والرصاصة والقلم سيكونان شركاء في محو التاريخ وتجلياته[102].

توصف عملية إعادة كتابة الخارطة القومية في اللغة العبرية بأنَّها جزء لا يتجزأ من الأسس الرمزية للأمة الاسرائيلية، وهيَّ أكثر من عملية نسخ أو ترجمة، ولتوضيح وجهة النظر الرسمية الصهيونية، فقد فسرت عمل اللجنة الرسمية للأسماء الاسرائيلية الحكومية على أنَّ هذا العمل تعبير ملموس عن الارتباط القومي بين الشعب اليهودي وأرضه، وقد وضَّحَ أعضاء اللجنة عملهم على أنَّه مهمة تنطوي على التزام عملي- أخلاقي لتحديد وإحياء الأسماء العبرية على خارطة الأرض وفقًا للحقائق الجغرافية – التاريخية لأرض اسرائيل[103].

يشير نبيه بشير في كتابه *تهويد المكان* إلى احتواء الجيوبوليتيكا على عنصرين شاملين: أحدهما جغرافي والآخر ثقافي؛ فالعنصر الجغرافي يشير إلى أنَّ معطياته تشير لدلالات وقوة سياسية مباشرة

---

[102] عبد الرحيم الشيخ،"الهندسة اللغوية وعبرنة اسرائيل للمشهد الفلسطيني : دراسة في الخطاب الفلسطيني المقاوم 1997-،2010". *مجلة الجامعة الأمريكية للأبحاث*. ع58-59. بيروت : 2012.

[103] Moan azaryahu and Aron Golan, ‘Re) Naming the Landscape: The Formation of the Hebrew Map of Israel 1949-1960,”. *Journal of Historical Geography*. (2001). P 1.59

تقوم في صلب مؤسسة الدولة الحديثة[104]. والعنصر الثقافي الّذي يُشير إلى قوة ارتباط وتماسك الرواية التاريخية للمكان، ويبرهن هذا الإدعاء بما قدمه شكري عرّاف في مقدمة كتابه *المواقع الجغرافية في فلسطين "الأسماء العربية والتسميات العبرية"*: بأنَّ الحركة الصهيونية بدأت بإطلاق التسميات العبرية "التوراتية" على المستعمرات الّتي أقامتها منذ عام 1878. وهكذا، حتى عام 1922 ألّفت الوكالة اليهودية لجنة أسماء تساعد المهاجرين على اختيار أسماء المستعمرات الّتي يؤسسونها، ولكن بعد ذلك، 1922-1948 قامت هذه اللجنة بتغيير أسماء 216 موقعاً، ومن 1948-1951 غيرت 198 من أسماء المواقع الأخرى[105].

يمكن أنّ نفهم من هذه الممارسات أهداف الاستعمار الاستيطاني الصهيوني؛ في نزع الهوية العربية عن خارطة فلسطين، من خلال إضفاء هوية يهودية جديدة على المواقع الجغرافية، بتسميتها أسماء تنفي التاريخ والهوية الفلسطينية؛ فهو تشويه للمشهد فيزيائياً، يتم منحه شخصية جغرافية مزيفة[106]. فأسماء الأماكن تنتمي إلى لغة وطنية، وخصوصًا في حالة وجود كيان استعمار استيطاني ينافس المستعمَرين بشأن الاتصاف بالشرعية واليقينية، كما هو الحال في المناطق الّتي تشهد هويتها الوطنية والإثنية حالة من السيطرة الاستعمارية الاستيطانية[107]. لهذ يُعد هذا الشكل من المحو هو محو للثقافة والتاريخ، وسياسة استعمارية استيطانية تصب باتجاه امتلاك الشرعية التاريخية والقانونية على الأرض، وهذه الممارسة لا تقل وطأة عن اخلاء الأرض بالقتل والعنف، وإقامة المجازر، ولكنها مجازر على

---

[104] نبيه بشير، "حول تهويد المكان،". *مدى الكرمل*. (2004)، ص42.

[105] شكري عراف،"المواقع الجغرافية الفلسطينية بيت الأسماء العربية والتسميات العبرية،". *مجلة الدراسات الفلسطينية*، (2004): ص16.

[106] عبد الرحيم الشيخ، "متلازمة كولومبوس وتنقيب فلسطين: جينيالوجيا سياسات التسمية الاسرائيلية للمشهد الفلسطيني،" *مجلة الدراسات الفلسطينية* م21،ع 83 (صيف 2010): ص78-110.

[107] نفس المصدر.

العالم اللامحسوس الّذي يشكل وعي الفلسطيني وإدراكه لوجوده وذاته، فهذه الأسماء تحمل ذاكرته وتاريخه، وتؤكد على أصلانيته وشرعيته.

المحو على الجسد المقاوم

إنَّ المفاهيم النظرية الّتي تُحلل السيادة والسلطة على الأجساد وتأثيرها؛ مثل نظرية النيكروبوليتكس، والسياسة الحيوية، والّتي توضح وتفصِّل الكيفية الّتي تقوم بها السلطة، < السلطة الاستعمارية >، بالسيطرة على حياة المستعمَر، وقدرة السلطة أيضًا على إعطاء المستعمَر حقه في الحياة، أو حقه في تقرير شكل موته، وذلك في سبيل ضبط جسد المستعمَر، وإعادة إنتاجه ضمن المعايير الّتي تضمن بقاء المستعمَر خنوعًا ومنهزمًا وغير قادر على المقاومة، قادرة على تفسير الكثير من الاجراءات والتفاصيل والممارسات الّتي يمارسها المستعمِر المستوطن الصهيوني على الجسد الفلسطيني.

أشارت الباحثة سهاد الناشف في مقالها *إما مقاومًا أو مقتولًا: الانتفاضة الفلسطينية الأولى كنقطة تحول في إعادة صياغة وكالة جسد وروح الفلسطيني/ة*، إلى مجموعة من الباحثين والباحثات الّذين درسوا الكيفية الّتي تقوم بها السلطة الاستعمارية الاستيطانية " الاسرائيلية" في السيطرة على الجسد الحي والميت الفلسطيني، وذلك من خلال حفر السلطة على الجسد الحي كما توضح شلهوب في دارستها حول *الأمن واللاهوت والمراقبة وسياسة الترهيب*؛ لمسار ولادة المرأة الفلسطينية في القدس، والّتي تُركز فيها على العنف والسيطرة "الاسرائيلية" باستخدام "اللاهوت الأمني" كمنظومة كولونيالية تبرر وتموه العنف الجسدي والنفسي الغالب على حياة الفلسطيني، وتتبنى الناشف مفهوم ديفيد سكوت "الحاكمية" الاستعمارية على أنَّها إرادة القوى الاستعمارية من خلال تدمير وإعادة بناء للذات السابقة للاستعمار، بهدف التأثير وصياغة سلوكه كإنسان مستعمَر[108].

[108] سهاد ظاهر الناشف، "إما مقتولًا أو مقاومًا: الانتفاضة الفلسطينية الأولى كنقطة تحول في إعادة صياغة وكالة جسد وروح الفلسطيني/ة،" *اضافات*، ع46 (2019): 79.

يعمل النيكربوليتكس من خلال فرض السيطرة على أدق التفاصيل الّتي تحكم حياة الفلسطيني، مثل الزمن الّذي يتم التلاعب به في حالة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، عن طريق الحواجز العسكرية المنتشرة بين المناطق وداخل المناطق نفسها، وتحديد المناطق الّتي يستطيع التنقل إليها، وأمكنة العمل المصرَّح بها وأمكنة العلاج، وصولًا إلى أمان الفلسطيني في بيته وحياته[109].

في مرحلة الانتفاضة الأولى 1987 كانت الحجارة هيَّ سلاح الفلسطينيين الأوسع انتشارًا، دبابة مقابل حجر، ومدرعات وأسلحة ممنوعة مقابل حجر، جيش استعماري يحمل الكثير من أدوات القتال، مقابل جموع فلسطينية تقاوم بالحجارة والجسد والعبوات التفجيرية، والمظاهرات، والعصيان المدني، والإضرابات، وطعن الجنود باستخدام السكاكين[110]، أي أنَّ هذه المواجهات كانت جسدية بالأساس، تعتمد على الأجساد الفلسطينية كأداة لمحاربة الاستعمار الصهيوني.

كانت هذه المرحلة عبارة عن تكثيف لأدوات النضال ضد بنيوية الاستعمار، وضد الفعل الاستعماري نفسه، ولهذا تتخذ هذه المرحلة خصوصية معينة في التاريخ الفلسطيني، كونَّها لا تُعد رد فعل على ممارسات الاستعمار، بل جاءت من خلال وعي فلسطيني بضرورة مقاومة وإزالة الاحتلال، وهذه المرحلة الّتي حولت الأجساد الفلسطينية من جسد فردي إلى جسد جمعي قوي وموحد[111].

أمام هذا الوعي الفلسطيني المستعمَر المقاوم، حاول الكيان الاستعماري الاستيطاني الصهيوني ضبط ممارسة المقاومة، وضبط الوعي الفلسطيني المقاوم والسيطرة عليه، وهو الأهم، من خلال مجموعة من الممارسات الّتي تقوض العمل النضالي الفلسطيني وتحبطه، وتسيطر على البُنى الأساسية الّتي تدعم المقاومة والصمود، مثل إبعاد مسؤولي الخلايا الفدائية الكبرى، واعتقالها واغتيالها، وسياسة هدم

---

[109] المصدر السابق: 78.

[110] اسلام سليمان احبوش، *المقاومة الشعبية خلال الانتفاضة الأولى في قطاع غزة بين عامي (1987- 1994)* (غزة: الجامعة الاسلامية، 2015): 40-64 .

[111] الناشف، "إما مقاومًا أو مقتولًا،" 79.

المنازل، فرض حظر التجوال، والاعتقالات الواسعة للشعب الفلسطيني ولجميع الأعمار، والقتل العشوائي[112].

في الانتفاضة الثانية كان الوضع مختلفًا، كان السلاح والعمليات الاستشهادية وتفجير البُنى التحتية الاستعمارية هيَّ أدوات النضال الفلسطيني في مقابل التطور التكنولوجي لأسلحة المستعمِر، فعلى الرغم من بقاء مشهد النضال الجماعي بالمظاهرات والحجارة إلّا أنَّ استخدام الاسلحة والمتفجرات كانت الطابع العام لهذه الانتفاضة، حيث عَمِل الفلسطينيون في مواقع لا يستطيع الاستعمار الصهيوني التوغل والوصول إليها، حيث ركز الفلسطينييون أعمالهم الفدائية على المواقع المخصصة للجيش والمؤسسات الأمنية الصهيونية، وزرع المتفجرات في أماكن تواجد الجنود والمستوطنين، واستمرار المواجهة بقنابل "المولوتوف" والأسلحة الخفيفة[113].

كان رد الممارسات الاستعمارية لضبط المقاومة والوعي الفلسطيني ومحاولة محوها، إقامة المناطق الأمنية والعازلة خصوصًا في قطاع غزة، تعزيز وجود الوسائل التقنية والتكنولوجية لمراقبة الفلسطينيين وضبط عمليات المقاومة، واستخدام التكنولوجيا أيضًا في تصنيع أسلحة للاستهداف والقتل عن بُعد، والاجتياحات والتوغلات وزيادة الاعتقالات، والعقوبات الجماعية[114].

---

[112] احبوش، المصدر السابق: 23-28.

[113] عدنان أبو عامر، "الاستراتيجية الاسرائيلية تجاه انتفاضة الأقصى 2000-2006"، *موقع عدنان أبو عامر* (2018) (تاريخ الزيارة: 2019/10/1) <http://adnanabuamer.com/post/132/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D8%AA%D9%8A%D8%AC%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D9%87-%D8%A7%D9%86%D8%AA%D9%81%D8%A7%D8%B6%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%82%D8%B5%D9%89-2000-2006>.

[114] المصدر السابق.

تشابهت المناطق الجغرافية المختلفة الّتي قسمها الاحتلال في استخدام أدوات المقاومة والحرية، وذلك حتى بداية الانتفاضة الثانية عام 2000، وبعد ذلك في خضم النزاع على السيادة الداخلية تحت الاحتلال بين الفصائل الفلسطينية، استفردت حركة حماس في قطاع غزة، وحركة فتح في الضفة الغربية، ورافق هذا الاستفراد تحديد لأدوات المقاومة في كلا المنطقتين الجغرافيتيين، ففي الوقت الّذي تقاوم غزة بالصواريخ، وتستخدم الطبيعة سواء الأرض لحفر الأنفاق، أو البحر لعمليات التسلل للمناطق الفلسطينية المحتلة عام 1948، شهدت الضفة تحولًا في استخدام أدوات المقاومة، وذلك تبعًا لاتفاقية أوسلو، الّتي تُعد بشكل مباشر حاجزًا أمام عملية المقاومة الثورية العنيفة واستبدلتها "بالمقاومة السلمية"؛ والّتي تمثلت بالمقاومة الشعبية، من خلال المسيرات والمظاهرات الأسبوعية والتغطية الإعلامية للوصول إلى العالم، ضد الكثير من السياسات مثل جدار الضم والتوسع وضد مصادرة الأراضي، وغيرها من الممارسات، بالإضافة إلى المقاومة الفردية المسلحة، فالمقاومة كانت ذات طابع مؤقت وعلى شكل رد فعل على الممارسة الصهيونية، وليست مقاومة ضد بنيوية الاستعمار الصهيوني في جميع المناطق الفلسطينية على حد سواء[115]، ولكن طبيعة الطوق الأمني الّذي وضع في منطقة الضفة الغربية قلل من العمر الافتراضي للمطاردة للمقاومين، وخاصة سياسة التنسيق الأمني، وكاميرات المراقبة، وجدار الضم، وعزل المناطق داخل الضفة والسيطرة عليها[116]

---

[115] ليندا طبر، علاء العزة، "المقاومة الشعبية بعد الانتفاضة الثانية،" *مجلة الدراسات الفلسطينية* ع.97، (شتاء/2014) 119-138.

[116] أحمد العاروري، "عن الحصار الأشد فتكًا في الضفة الغربية،" *باب الواد* (2018) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/2) <https://www.babelwad.com/ar/%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86/%D8%B9%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B5%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B4%D8%AF-%D9%81%D8%AA%D9%83%D8%A7%D9%8B-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%B6%D9%81%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AD%D8%AA%D9%84%D8%A9>.

هذه السياسات الاستعمارية الصهيونية ساهمت في التأثير على الوعي الجسدي الفلسطيني الجمعي، إثرَّ نتائج هاتين الانتفاضتين والّتي لم تكن متوقعة، من حيث عدم تحقيقها للحد الأدنى من مطالب المقاومة الفلسطينية، على العكس من ذلك حيث ساهم القمع والعنف الصهيوني خلال الانتفاضة بتدمير البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية للفلسطينيين، وهدم لمنزلهم، وإبعاد للكثير منهم، عدا عن الاعتقالات والشهداء، مما ساهم في تحويل النضال والمقاومة إلى نشاط ووعي فردي.

حالة الفردانية الّتي خطط الاستعمار لجعلها وسيلة ضبط للفلسطيني، جعلت منه فردًا واحدًا مقاومًا، ولا بد للاستعمار أنّ يرى ضعف سياسته من أرقام الشهداء والعمليات النوعية الّتي قاموا بها الفلسطينيين، أو من خلال نظرة سريعة إلى أعداد الأسرى المتزايدة والمتجددة في كل عام، فالضبط الاستعماري بالعزل المكاني من خلال الحواجز والجدار، ومن خلال العزل بالإقصاء داخل المعتقلات، أو من خلال النفي إلى خارج الأراضي الفلسطينية، أو تقسيم الأراضي الفلسطينية بين سيطرة عسكرية ومدنية فلسطينية و"اسرائيلية" هو وسيلة ضغط ووسيلة مقاومة كذلك، حيث يبحث الاستعمار الاستيطاني الصهيوني عن وسيلة لضبط هذا التحول في مشهدية المقاومة الفلسطينية من جماعية إلى فردية، من خلال إرجاع أثار العمل الثوري على عائلة المقاوم، وهذا يعني أنَّ المقاوم الفرد لا يعاقب وحده على عمله، بل تُعاقب عائلته أيضًا، وأقاربه في كثير من الأحيان،

<u>السيطرة على الجسد المقاوم</u> إنَّ انتزاع الأفراد من داخل الجماعات، وإعادة تشكيل الجسد الفلسطيني كجسد واحد منفرد يُسهّل عملية التحكم به سواء أكان جسدًا حيًا أو ميتًا، وهذا يُعد هدفًا أساسيًا للممارسات الاستعمارية الاستيطانية لوضع الفلسطيني في مواجهة مع جسده كذات منفردة، تحمل عبء الهيمنة الاستعمارية لوحدها، وتنتزع منها فكرة الانتماء للمجموعة والشعور بالأمان، سعيًا

لأنّ يصبح جسد الفرد عبئًا عليه، حائلًا دون فاعليته في المقاومة[117]. ومن هذه الممارسات؛ القتل، والاعتقال، وإحداث إعاقات جسدية مقصودة سواء من خلال التعذيب أو من خلال العنف.

إنَّ فكرة المحو للجسد الفلسطيني بعزله عن المكون الفلسطيني العام، تأتي في سياق الهيمنة على الجسد الفلسطيني السياسي؛ أي ذلك الجسد الّذي يُستخدَم كأداة للمقاومة، وذلك لإعادة إنتاجه كجسد خائف وخاضع بهدف السيطرة عليه[118]، ويعبّر هذا الأسلوب من المحو (العزل) عن إرادة القوى الاستعمارية الاستيطانية بتدمير وإعادة بناء الهوية المستعمَرة السابقة للاستعمار، بهدف صياغة سلوكه كإنسان مستعمَر خائف ومنهزم/خاضع[119].

يُركز المستعمِر الصهيوني على الأجساد الفاعلة، وهيَّ الأجساد المقاومة، والأجساد الّتي تقوم بفعل الشهادة، والأجساد الّتي تحمل القدرة على تمثيل موقع الفلسطيني المقاوم والفاعل في مقاومة الاستعمار، لذلك لا تترك السلطات الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية أي عمل ثوري دون الإفلات من المؤسسة العقابية الخاصة بها، فالجسد الحي يُعاقب بعزله واعتقاله، وتعذيبه؛ بممارسة مختلف أشكال الهيمنة والتعذيب على جسده، وإنّ لم يكن من أجل الحصول على المعلومة، فهذا التعذيب والاقصاء يقوم بوظيفة المعاقبة الأساسية، وهيَّ ردع الأفراد والمجتمع عن ممارسات الحرية، جسد واحد يضبط المجتمع سواء كان حيًا في المعتقلات أو جثة معتقلة في ثلاجة المصادرة، أو مقابر الأرقام.

في عام 2015 وبحسب التقارير وصحيفة هآرتس، تم إصابة 15 شابًا فلسطينيًا من مخيم الدهيشة في آخر ثلاثة اقتحامات على المخيم، في منطقة الركبة، الأمر الّذي تسبب في إعاقات جزئية ودائمة

---

[117] للمزيد حول تبعيات انتزاع الأفراد من داخل مجتمعهم، وتأثير هذا على الذات المنفردة، يرجى النظر إلى: سامية براهيمي، "سوسيولوجيا الجسد،" *المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة*، ع5 (2011):6.

[118] سهاد طاهر الناشف، "إما مقتولًا أو مقاومًا: 77.

[119] المصدر السابق، 79.

للعديد منهم، وصعّب من قيامهم بحرية الحركة والتنقل للحاجات الأساسية[120]، كما أبلغ الأطباء في غزة منظمة العفو الدولية أنَّ العديد من الإصابات الخطيرة الّتي شاهدوها استهدفت الأطراف السفلى، بما في ذلك مفاصل الركبة، في نموذج لإصابات حربية لم يشهدوها منذ حرب غزة في 2014. إذ عانى كثيرون من تفتت مفرط للعظام وتهتك زائد للأنسجة، إضافة إلى جروح كبيرة في مواضع خروج الطلقات يصل قياسها إلى ما بين 10 و15مم، وبما يرجِّح تعريض المصابين لمضاعفات والتهابات إضافية، وإلى شكل من أشكال الإعاقة الجسدية قد يصل إلى الشلل أو بتر الأطراف، إنَّ عدد من بترت أطرافهم السفلى أو العليا من المتظاهرين الفلسطينيين، خلال الأشهر الستة الأولى من المظاهرات في تلك السنة، لا يقل عن 76 متظاهرًا[121]

كما أنَّ جسد الشهيد أيضًا يُعد جسدًا مقاومًا بالنسبة للمنظومة الاستعمارية حتى بعد القضاء عليه، وذلك لما يحمله هذا الجسد من رمزية لدى الشعب الفلسطيني، ويحمل تمثلات الفلسطينيين بالمقاومة، وطالما أنَّ جسد الشهيد موجود كرمز في الفعل والفكر، فهذا يعني أنَّ هنالك جسد آخر مقاوم من المحتمل أنّ يكون شهيدًا، ولهذا تسعى الممارسات الصهيونية إلى الاستفراد بالأجساد المقاومة وعزلها، لممارسة سلطتها عليها؛ وذلك لانتزاع سيادة الفلسطيني على حقه في ممارسة المقاومة المختلفة

---

[120] نضال محمد وتد، "الاحتلال يستهدف راشقي الحجارة ويسبّب إعاقات دائمة،" *العربي الجديد* (2016) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/2) <https://www.alaraby.co.uk/politics/2016/8/26/%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AD%D8%AA%D9%84%D8%A7%D9%84-%D9%8A%D8%B3%D8%AA%D9%87%D8%AF%D9%81-%D8%B1%D8%A7%D8%B4%D9%82%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AC%D8%A7%D8%B1%D8%A9-%D9%88%D9%8A%D8%B3%D8%A8%D8%A8-%D8%A5%D8%B9%D8%A7%D9%82%D8%A7%D8%AA-%D8%AF%D8%A7%D8%A6%D9%85%D8%A9-%D9%84%D9%87%D9%85>.

[121] لمزيد من التفاصيل حول السياسات الاسرائيلية والممارسات العنيفة الّتي استخدمها الكيان الصهيوني في التعامل مع المسيرات السلمية في غزة (مسيرات العودة، يُرجى النظر إلى التقرير التالي: "ستة أشهر مضت وما زالت مسيرة العودة الكبرى للعودة تتعاظم،" *منظمة العفو الدولية* (2018) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/2) <https://www.amnesty.org/ar/latest/campaigns/2018/10/gaza-great-march-of-return/>.

بأشكالها، سواء باستخدام الجسد كأداة للمقاومة من خلال العمليات الاستشهادية، أو من خلال استخدام الجسد كوسيط للمقاومة من خلال العمل الثوري باستخدامه الأسلحة الّتي تختلف من مرحلة لآخرى، بالإضافة إلى ضبط وعي الفلسطيني الّذي يُقدس جسد الشهيد وفكره.

يبقى منع الاستعمار الصهيوني لاسترداد جثامين الشهداء يقوم على ادعاء منع تحول الجنازات إلى تظاهرات تكريم للشهداء الّتي تُشيد بالهجمات ضد "اسرائيل"، لهذا يقوم بوضع شروط مُهينة ومشككة في حالات الإفراج عن الجثامين، كأن يتم منع إحالة الجسد للتشريح، وأنّ يتم الدفن ليلًا، وأنّ يكون عدد المُشيعيين محدودًا بأصابع اليد، أو أنّ لا يتم تسليم الجثمان إطلاقًا، وفي هذا سيطرة على البنية العاطفية الفلسطينية من خلال تشكيل الصهيوني لمسرح التشييع؛ بجعله مكانًا وتشييعًا لشخص لا يستحق التكريم والفخر، لهذا نجد مقاومة وإصرار العائلات الفلسطينية في تحديدها لشكل تكريم الشهيد الفلسطيني، والإصرار على استعادة اسمه وجسده لإحيائه من حالة الإنكار/ والإقصاء الّتي تفرضها السياسات الصهيونية على جسده باعتقال جثمانه[122].

أما الاعتقال وهو السياسة الاستعمارية الّتي تهتم بها هذه الدراسة، فإنّها تستخدم أدوات الضبط/ المحو بشكل مباشر ومكثف على وعي الأسير وجسده، خلال مكان وزمن محددين ومحاصرين يتحكم بهما المحقق وإدارة السجون، وهذا يعني محاولات لكيّ وعي عدد كبير من الفلسطينيين على مدار أجيال متعاقبة، فالاعتقال والسجن مستمران ومتجددان منذ قيام الكيان عام 1948 حتى يومنا هذا.

تهدف سياسة الاعتقال إلى السيطرة على الجسد الفلسطيني واقصائه بعيدًا عن المجتمع، وخصيصًا تلك الأجساد الّتي يحتمل أنّ تُقاوم، وبذلك يواجه الفلسطينيون أعلى معدلات حبس في العالم، حيث أنَّ واحداً من كل خمسة فلسطينيين قد اعتقل في وقت ما من حياته من قبل السلطات الاستعمارية

---

[122] سهاد ظاهر الناشف، "الإعتقال الإداري للجثامين الفلسطينية: تعليق الموت وتجميده،" *مجلة الدراسات الفلسطينية* 107 (صيف2016). http://www.palestine-studies.org/sites/default/files/mdf-articles/019-036.pdf .

الاستيطانية العسكرية، ومنذ عام 1967 اعتقل الاستعمار "الاسرائيلي" وعذَّبَ 800000 مُعتقل سياسي فلسطيني[123].

تشهد حالة المعتقلات على العديد من السياسات الّتي تساهم في تغييب وإخفاء أصوات العديد من الأسرى الّذين يتعرضون لسوء المعاملة، وللتعذيب، والإخفاء عن المشهد السياسي والاقتصادي الفلسطيني، فعلى سبيل المثال سياسة الاعتقال الإداري، كأحد الممارسات الّتي تستخدم لضبط الفلسطينيين ومحاكمتهم عسكريًا دون قيامهم بفعل ثوري "يستجدي" أنّ يقوم الاستعمار بملاحقته، حيث بلغ عدد المعتقلين إداريًا حتى حزيران 2019 نحو 440 أسيرًا، موزعين في سجون النقب/ عوفر/ مجدو، وفي حالة الاعتقال الإداري يواجه الأسير العديد من التحديات الأساسية، مثل عدم اطّلاع المحامي على ملف الأسير، وتمديد فترة اعتقاله لمرات عديدة، وعدم معرفة الأسير لمصيره، وهذا بالفعل ما تلجأ له السلطات الاستعمارية من الاعتقال الاداري؛ وضع الأسير في حالة ترقّب دائمّة نحو المجهول أيًا كان[124].

تُعد بعض مراكز التحقيق والتعذيب مثل المسكوبية وبتاح تكفا مقبرة الأحياء، هكذا يصفها الأسرى وعوائلهم، وذلك بسبب غموض مصير الأسرى، جراء ما يتعرضون له من عنف منظم ومكثف أثناء عملية الاستجواب، سواء من أجل الحصول على معلومة، أو من أجل السيطرة والضبط، وكذلك

---

[123] Fernandez, “Structure of Settler Colonial Domination in Israel and in the United States,” p 39.

[124] لمزيد من التفاصيل حول الاعتقال الاداري قانونيًا، وأثرها على الاسرى وكيفية مقاومتها، يرجى النظر إلى التقرير التالي: "الاعتقال الإداري .. وسيلة "اسرائيل" لتغييب الشخصيات الفلسطينية،" *المركز الفلسطيني للإعلام* (2019) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/2) < https://www.palinfo.com/news/2019/7/20/%d8%a7%d9%84%d8%a7%d8%b9%d8%aa%d9%82%d8%a7%d9%84-%d8%a7%d9%84%d8%a7%d8%af%d8%a7%d8%b1%d9%8a-%d9%88%d8%b3%d9%8a%d9%84%d8%a9-%d8%a7%d8%b3%d8%b1%d8%a7%d8%a6%d9%8a%d9%84-%d9%84%d8%aa%d8%ba%d9%8a%d9%8a%d8%a8-%d8%a7%d9%84%d8%b4%d8%ae%d8%b5%d9%8a%d8%a7%d8%aa-.%d8%a7%d9%84%d9%81%d9%84%d8%b3%d8%b7%d9%8a%d9%86%d9%8a%d8%a9 >

التحولات الّتي طرأت على بنيوية مراكز التحقيق بعد قرار المحكمة العليا عام 1999 بحظر التعذيب الجسدي القاسي، والّذي سيتم نقاشه بشكل موسع في الفصل الرابع من هذه الدراسة، والّتي تبدلت فيها وسائل التعذيب من جسدية تستهدف إنهاك الجسد وتسبب إعاقة له، إلى إنهاك ذهني ونفسي وجسدي أيضًا، ومحاولات لكسر حواجز العداوة داخل التحقيق، تمهيدًا لمحاولة هزيمة الأسير، وإضعافه، والتشويش على ذهنه.

إنَّ ممارسات السلطة الاستعمارية الصهيونية لا تقف عند حدود الاعتقال، حيث يحاكم الفلسطينيون المحتجزون ويحكم عليهم في محاكم عسكرية اسرائيلية، وتُجرى الدعاوى باللغة العبرية ويدين 99٪ من المحاكمات، كما ويتم محاكمة الأطفال في المحاكم العسكرية وإدانتهم والحكم عليهم مثل البالغين، وتنتزع المعلومات عن طريق التعذيب[125].

فالاستعمار الاستيطاني الصهيوني على أرض فلسطين يعتبر خُلاصة للتجارب الاستعمارية والاستعمارية الاستيطانية، حيث أنَّه يستخدم الأدوات الخاصة بكل منهما حسب متطلبات وحاجيات المرحلة الاستعمارية، ولكن الهدف الأساس هو إزالة المكون الفلسطيني العام، والسيطرة على الأرض واستيطانها للاستقرار فيها، دون وجود تحديات تهدد هذا الاستقرار.

يُعتبر الاعتقال/ السجن في هذه الدراسة، من الوسائل والأدوات المحوية والضابطة للوعي الفلسطيني، لأنَّها تستفرد فيه وتعزله، وتقصيه وتخفيه، وهذه العوامل كلها تساهم في وضع الجسد في مواجهة بين معارفه وثقافته وبنيويته الفلسطينية، وحالة الصراع الّتي يعيشها وحقه في النضال، مع وجوده كجسد أعزل مُسيطر عليه مكانيًا وزمانيًا، وهذا صراع بين الجسد كحيز والجسد كفضاء، كما سيتم توضيحه في الفصل الثالث والرابع في هذه الدراسة.

---

[125] Fernandez, “Structure of Settler Colonial Domination,” p 42

الفصل الثالث: (السجن) فرض السلطة على الجسد

مقدمة

يهدف هذا الفصل إلى التعريف بالسجن كمؤسسة سياسية وأيديولوجية، من خلال تحديد وظائفه الّتي يتعين عليه تحقيقها لترسيخ الحقيقة وزرع السلطة، ومن هذه الوظائف؛ أنّ يقوم السجن بوظيفة الإصلاح والتقويم (بمعنى أنَّ يُعاد صياغة وعي السجين بما يتناسب مع المنظومة الحاكمة، سواء استعمارية أو سلطوية سيادية)، وأنّ يقوم السجن بوظيفة العقاب والجزاء ذاتها الّتي كانت تنفذ على العلن في سبيل إقرار السلطة في الدول السيادية، أما في الدول الاستعمارية فإنَّ هذه الوظيفة تعمل لضبط المستعمَرين من جهة، وإبادتهم من جهة آخرى سواء من خلال اقصاء المستعمرين في السجون وبالتالي ضبط مجتمع المستعمَرين من خلال جسد المحكوم "السجين"، أو إبادة روح المقاومة للمستعمَرين من خلال ممارسة القتل على جسد السجين المستعمَر.

تم فهم هذه الوظائف الأساسية الّتي يقوم بها السجن من خلال فهم الحالة السياسية العامة الّتي يقع فيها السجن، ومن ثم تحليل الأدوات والوسائل الّتي تستخدم للاصلاح والعقاب والإبادة داخل هذه السجون، وهذا التحليل يساهم في فهم الحالة العامة الّتي تتعامل فيها السلطة السيادية أو الاستعمارية مع السكان.

بيّنَ ميشيل فوكو في كتابه "المراقبة والمعاقبة" مدى توظيف الجسد في لعبة السلطة؛ حيث بحث في الأسباب الّتي جعلت من الجسد ممنوع، مُبعد، ومُجبر على أنّ يكون صامتًا. وذلك من خلال رفع القناع عن مختلف الممارسات الّتي تفرضها السلطة على الجسد، فهي حسب فوكو لا تكتفي بالإرغام والقمع، بل تسعى عبر أساليبها المختلفة إلى استثمار الجسد وضبطه سياسياً؛ لذا تمحور

التصور الّذي قدمه فوكو حول الكشف عن آليات تطويع السلطة للجسد سوءا كانت عملية التطويع هذه مادية أو رمزية[126] .

إنَّ تقنيات السلطة في الإرغام والتطويع والتأطير للجسد، تعتمد على العنف والقوة وتوظيف البيئة المحيطة، وهو الشكل المكشوف من الهيمنة، كما يمكن أنّ يكون بأساليب خفية عن طريق الأيديولوجيا.

بالتالي يمكن القول أنّ القمع لا يعتمد على الأساليب المادية فحسب، بل إنّنا نجد السلطة تُمارس دورها اعتماداً على "المعرفة"؛ وهو ما يعني حسب فوكو أنّ السلطة مبثوثة في كل مكان، حيث تشمل هيمنتها كل النسيج الاجتماعي مثل العائلة، السجن، المدرسة، المعهد، السجن. وهو ما يطلق عليه فوكو "ميكروفيزيا السلطة[127]".

يُعد هذا التحليل أساسًا في فهم وظيفة السجن الصهيوني، حيث أنَّه سيتم فهم الكيفية الّتي تتم بها ممارسة وظيفة السجن/ المُعتقل في حالة المستعمِر الصهيوني على أجساد الأسرى الفلسطينيين، وتوضيح الكيفية الّتي تعمل بها السلطة على الجسد، وكيف تسيطر على مكونات وعيه الوجودي والوطني، وصولًا لمحاولة انتزاع هذا الوعي ومحوه، وإنشاء وعي آخر يمكن ضبطه والتنبؤ به.

المحور الأول: قراءة في وظيفة السجن

كانت الجريمة والعقوبة أمرين مترافقين منذ العصور القديمة، ومع وجود أنواع من الجريمة اختلفت معها أساليب العقاب، ولطالما كان العقاب يحمل هدفًا مزدوجًا؛ وهو معاقبة الجاني على جريمته، وردع أفراد

[126] فوكو، *المراقبة والمعاقبة*.

[127] فوكو، *المراقبة والمعاقبة*.

المجتمع الآخرين عن الجريمة[128]، وتمثلت هذه العقوبة في العلن لتأمين سيادة السلطة أيضًا، وإقرارها وزيادة قوتها لدى أفراد المجتمع[129]، فالجريمة يُعاد ردها إلى جسد المذنب من أجل التخلص من الجريمة وإنهائها بمعاقبة المذنب بشتى الوسائل الّتي تختلف باختلاف ذنبه، وهذه المعاقبة العلنية تؤمن كذلك حفر الألم في ذاكرة الآخرين الأحرار، حيث يصبح ألم الجسد المُعذَب هو ألم في جسد المجتمع يمكن توقعه والشعور به أثناء محاولة القيام بذنب ما.

يمثل السجن غاية ووسيلة قانونية سياسية؛ إنّه احتفال من أجل إعادة إقرار السيادة بعد جرحها، فإنّ التعذيب لا يعيد العدالة إلى مجراها، إنَّما يقوّي السلطة، وإذا كان التعذيب متجذرًا بمثل هذه القوة في الممارسة القضائية، فذلك لأنَّه ينم عن حقيقة الجريمة، ولأنَّ التعذيب عامل فاعل من عوامل السلطة، ويُعد من أصول التحقيق في موضوع الاعتراف، فهو يتيح إعادة إنتاج الجريمة، وردها إلى جسم المجرم، وهو ما يجعل الجريمة تظهر وتلتغي بذات البشاعة، وللتعذيب شكل مزدوج؛ مبدأ وصل الجريمة بالعقوبة من جهة، ومن جهة أخرى تشديد القصاص بالنسبة إلى الجريمة، وهيَّ تُؤمِّن بذات الوقت علنية الجريمة والسلطة عليها، وهيَّ تجمع بين الإثنين في جسد المحكوم[130].

من الاستجواب إلى التنفيذ، يعبِّر الجسد عن حقيقة الجريمة وإعادة إنتاجها، أو بالأحرى لقد شكَّل السجين الّذي اعترف، عبر سلسلة من المراسم والاختبارات، أنَّ الجريمة قد وقعت، والّذي صرَّح أنَّه هو من اقترف الجريمة، والّذي يبين أنَّه يحملها مسجلة في ذاته وفوق ذاته، فتحمل عملية العقاب في هذه الحالة آثار ومفاعيل ارتكاب هذه الجريمة، إنَّ الجسد المُعذَّب عدة مرات يؤمن تركيب واقعية الوقائع،

---

[128] Idir Iouani, “De La Selinquance a La Reinsertion des Sortants De Prison: De Reintegration et Impact De Lexperience Carceral,” *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*, no 28 (2017):9

[129] فوكو، *المعاقبة والمراقبة:* 85.

[130] فوكو، *المراقبة والمعاقبة*، 85.

وحقيقة الإعلام والأعمال الجزائية، وخطاب المجرم، والجريمة والعقاب، إنَّ الجسد هو بالتالي قطعة أساسية ضمن مراسمية جزائية لتحقيق سيادة وسلطة الحاكم[131].

ظهرت فكرة السجن لإخفاء وحشية الدولة في استخدام التعذيب وعلنيته، وإخفاء الأساليب والأدوات الوحشية الّتي يتم بها إنتهاك الجسد المذنب وإماتته، لأنَّ هذه المشهدية أصبحت مرتبطة بطهارة مؤسسة الدولة، وتعبير عن حداثتها وحضارتها، فانتقلت أدوات التعذيب والضبط والأهداف منها إلى السجن حيث تُمارس في الخفاء/الظل، فحتى لو لم تعد المقصلة وأسلوب قطع اللحم، وحرق الجلد موجودة داخل السجن بشكلها القديم والتقليدي، إلّا أنَّ التكنولوجيا والأدوات الّتي تُحقق الألم المستمر والموت ببطء أصبحت أساس العقاب داخل السجن، بالإضافة إلى تعليق حقوق الجسد واحتياجاته.

إنَّ السجن حقق في هذه الحالة نقش الألم والعقاب الناتج عن القيام بجريمة ما في الذاكرة، ونُقش الألم المُرافق لها في "ذاكرة المُذنب والحر"، ونُقش معها شعور الخوف والرهبة والضبط الداخلي، وتعزيز المراقبة الذاتية من الأفراد على سلوكياتهم، وبالتالي إنَّ الأهداف الأساسية من معاقبة الجسد المذنب، "وضبط الأجساد الحُرَّة[132]"، وإقرار السيادة، ما زالت مُؤَمْنَة من خلال السجن، وهكذا كان السجن يعمل كوظيفة عقابية مُكملة ومستمدة من المرحلة الوحشية السابقة.

أيديولوجية السجن سعت للتقويم والتصحيح، للأجساد وعن "العلاج"، أي تقنية تحسين تضمر في العقاب المفروض على الذنب فقط، فتمركزت السلطة على الجسد باعتباره آلة، وعلى السلطة تدريبه، وزيادة استعداده، واستخراج قواه، والتنمية المتوازية لما فيه من منفعة ومن سلاسة انقياد، ودمجه

---

[131] المرجع السابق، 81.

[132] وسيلة تمثيل جزاء الجسد المذنب على الجسد الحر، ويعني ذلك أنَّ الجسد الحر المسؤول، أو الجسد الملتزم بالمعايير الّتي حددتها سلطة المجتمع/ الدولة، يصبح منضبطًا أكثر، فلم يعد هنالك داعٍ إلى حبل الشنق، ولا أقفاص التشهير، ولا الدولاب والمقصلة، كلها أدوات أصبحت موجودة في اللاوعي، تحكم تصرفات الأفراد لتجعل من أجسادهم طيّعة.

بمنظومات اشراف فعالة واقتصادية[133]، فالجسد غارق في الحقل السياسي، وعلاقات السلطة تعمل فيه عملًا مباشرًا؛ فهيَّ توظفه، وتطبّعه، وتقوّمه، هذا التوظيف (الإستثمار) السياسي للجسد مرتبط وفقًا لعلاقات معقدة ومتبادلة، باستخدامه اقتصاديًا[134].

برز التحول في صورة السجن أثناء التعامل معه كمكان إصلاحي وتأهيلي للمذنبين، وذلك بعد سلسلة من الاجراءات الّتي فصلت بين الرغبة الداخلية للفرد المذنب بفعل ذنبه، وبين الجريمة/ الذنب نفسه؛ وذلك كون "إرادة/رغبة الفاعل" مُحدد أساسي في ضبط هذا النازع الإجرامي[135]، ويُحدد بناء عليه البرنامج التأهيلي والإصلاحي للمذنب/ كما ويحدد القانون العقوبة الّتي يستحقها المذنب، من أجل ترويضه وإعادة إدخاله كفاعل متناسق مع المنظومة المجتمعية، وطيّع للمنظومة السياسية، وهذه المهمة الاصلاحية تركزت في عمل السلطة داخل السجن كجهاز للمعرفة، يعمل على تطوير منظومة من المعرفة الذاتية عن الإمكانات الإجرامية داخل الفرد، ويلعب السجن دور مؤسسة علاجية تحاول تغيير سلوك وعادات وموقف السجين، من خلال الأنظمة العلاجية، ومن خلال تكثيف أوقات السجين ببرنامج اجتماعي وثقافي وديني وتعليمي، وبهذا التحليل للدور الإصلاحي في السجن، فإنَّه يشترك مع مؤسسات الدولة، مثل المستشفى والعيادات، والأحزاب، والنقابات، والإعلام أيضًا كونَّه مؤسسة دولة أيديولوجية، في تشكيلها للانضباط لغايات مفيدة للسلطة السياسية[136].

---

[133] فوكو، *المراقبة والمعاقبة*، 82-85.

[134]المرجع السابق :61 -65

[135] المرجع السابق

[136] Gerald Turkel, “Michel Foucault: Law, Power, and Knowledge,” *Journal of Law and Sociology* 17, no 2 (1990): 184.

قام السجن على فكرة المراقبة والتصحيح والتدريب في مكان مغلق، من خلال "برنامج السجن[137]"، ولكن حصر السجن وانغلاقه، وعدم بعثرة أماكنه وسلطاته والمؤسسات المتحكمة فيه، وتأكيد علاقاته بالقوانين الجنائية والإصلاحية، لم يتم إلّا عندما غدا المجتمع مقتنعًا بالضرورات الإصلاحية والردعية، عن طريق وسائل التوعية كالمؤلفات الحقوقية والقانونية والتعليقات الصحفية والاعلامية، فغدا بذلك السجن هو بؤرة العقاب المركزة وحدها، وعلى الرغم من محاولة السجن تحقيق هذه الأهداف، إلّا أنَّه لم يستطيع تحقيق تلك الأهداف أو بعضها، بل ظلت المؤسسة العقابية تتابع إدارة العمليات الاجرامية بشتى أطرافها من السجون والشرطة والمحاكم، ويضيف فوكو إنَّ هذا المجتمع العقابي كل شيء فيه يشتمله القانون[138].

فالسجن يقوم على مبدأ سلخ السجين عن المجتمع الّذي ينتمي إليه ماديًا ومعنويًا[139]، ووضعه داخل فضاء مغلق يحول دون اتصاله مع الآخرين، حتى مع المجرمين الآخرين الّذين يُصنفون أيضًا حسب جرائمهم، وهذه العزلة مع عدم وجود برنامج إصلاحي وتأهيلي، أو عدم قبول السجين لهذا البرنامج الإصلاحي يُغذي فيه فكرة النبذ والاقصاء الّذي تستخدمه السلطة ضده، ونبذ المجتمع أيضًا، مما يساهم في بلورة ذاتية جانحة لدى السجين، ولذلك اعتبر هدف السجن بتقويم وإصلاح السجين، هدفًا غير محقق ولا يمكن تحقيقه، وذلك أنَّ نزعة العقاب تغلب على الرغبة في الإصلاح وتعطي أثرًا أكبر على السجين، وهذا ما برر اعتبار السجن والعزل وسيلة لإعادة إنتاج الجريمة، وترسيخ لها، كما أنَّه وسيلة لترسيخ السلطة وإقرارها.

---

[137] يشمل هذا البرنامج، التحكم في المواعيد الأساسية للمساجين، سواء وقت نومهم أو صحوتهم، وكذلك وقت العمل والرياضة، والتعليم، ونوع التعليم.

[138] مطاع الصفدي، "مأسسة الإنسان الإنضباطي،" *مجلة الفكر العربي المعاصر- مركز الأنماء القومي*، عدد 77-76 (يوليو/ 1990): 10.

[139] أحمد محمد كزيز، "كيف يكون السجن مؤسسة إصلاح،" *جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية* 18، عدد 203 (1999): ص64.

شكلت المراقبة أساس المعاقبة والضبط داخل السجون، من خلال اعتماد السجن على تصميم بنثام "للبانوبتيكون[140]"، ويناقش فوكو في هذا الصدد أهمية الرؤية الدائمة كمبدأ عام لممارسة السلطة على الجسم[141]، فهذه الرؤية الدائمة تحقق الانضباط دون وجود رقيب، ويحلل فوكو الانضباط من خلال المراقبة والرؤية كونَّه يُركز على مبدأ مابلي؛ "فليتناول القصاص، إنّ أمكنني التكلم هكذا، الروح قبل الجسد"؛ بوصول المراقبة إلى عمق الإنسان، "الروح" والّتي هيَّ جزء أساسي وفعَّال في عمل السلطة؛ وذلك أنَّ إنهاك الروح من خلال المراقبة يُصيّر الروح ويجعلها طيّعة، وذلك يخلق جسدًا منضبطًا متحكمًا بنفسه، ويلعب دور السيطرة الخارجية عليها.

فوكو نظر إلى هذا النوع من السلطة بوصفها منتجًا إيجابيًا للمعرفة والتحكم، حيث وصف هذه السلطة على أنَّها نوع من الآلات الاجتماعية القسرية غير المؤلمة، والمصممة لإنتاج أجسام سهلة الانقياد وأرواح طيّعَة، بناء على فكرته بأنَّ تأديب الجسد وتشكيل الروح تولد تحت المراقبة، وتخضع لضبط غير محدد، ولكن الأهم أنَّ عملية التشكيل والمعاقبة هذه طوباوية، وفيها يموت الإنسان دون ألم، "معنويًا"، ويُعاد إنتاجه بشكل يُسهل عملية إعادة إدماجه واستيعابه في المجتمع[142].

يجادل نيتشه أنَّ الإنسان الحر هو الإنسان الّذي يستطيع قطع الوعود والإيفاء بها، وهذا الإيفاء بالوعود هو من يجعله حرًا قويًا، لهذا يُعيد نيتشه الإعتبار للإنسان القوي مالك الجسد القوي والإرادة الثابتة، والقادر على التحدي والمواجهة والقوة من خلال التحكم بسياقه بقدرته على الاستشعار الناتجة

[140] البانوبتيكون؛ هو الذهن الأعلى للنظام التأديبي والمراقبة داخل السجون، حيث هو تصميم معماري لمكان السجن، بشكل يفضي إلى السيطرة على فضائه من خلال عملية الإنكشاف الداخلي على المساجين داخل غرفهم وأكثر مواقع السجن حميمية، وذلك بتصميم السجن بشكل دائري، يوجد نافذة واحدة تطل على الساحة، وتُمكّن هذه النافذة الحارس الّذي يعتلي برج المراقبة في وسط الساحة من الروية الدائمة للسجين، وتؤمن للحارس أو السجان صفة التخفي، وهذا سلطة تؤمن فكرة الضبط للمساجين حتى لو لم يكن هنالك مراقبًا.

[141] Michel Power, “Foucault and Sociology,” *Annual Review of Sociology* 37 (2011): 39.

[142] Miller James, “Carnival of Atrocity Foucault, Nietzsche, cruelty,” *Political Theory* 18, no 3 (1990): 471,473.

من تجاربه المتراكمة، والكيفية التّي يعمل بها جسده على التعامل مع السياقات المحيطة به[143]، وهذا ما تسعى له السلطة إنتاج هذه الأجساد من خلال صناعة ذاكرتها بالألم، الألم الّذي يُقابل كل فعل جانح/ جريمة، وهذا يُحقق بناء على طرح فوكو "مجتمع الانضباط" الشامل الّذي يتوزع داخل المجتمع بشكل كامل.

حين يَّنكث الإنسان بعهده ومسؤوليته، – أي حين يخرج من حيز مفاهيم الإنسان المسؤول، الّتي تتلخص بأنَّه المُنشأ والمُعوَّد على الانضباط– ، فعلى العقاب أنّ يُعيد تدجينه وتدجين الآخرين المراقبين لإعادة إدخالهم داخل مجتمع الإنسان المسؤول والملتزم. حتى يتمكن من قطع العهود على نفسه[144]، فالروح هيَّ مُنتج من مُنتجات السلطة.

إذًا فالسجن وحرمان الجاني من الحرية واخضاعه للمراقبة أصبح الوسيلة البديلة للوسائل العقابية العنيفة/العلنية، وتحول السجن من مؤسسة عقابية إلى مؤسسة إصلاحية هدفها إعادة دمج الجناة[145]. لكنَّ هذا الفهم لهدف السجن وغاية وسائل المعاقبة والمراقبة لا يعني أنَّ السجن مكان تأديبي أو تأهيلي أو إصلاحي (إعادة إنتاج إنسان منضبط وفق رؤية السلطة الحاكمة سيادية كانت أو استعمارية) بحت فهنالك تداخل كبير بين الوظيفة التأهيلية الإصلاحية وبين الوظيفة العقابية، فلا يمكن أنّ يكون السجن في الحالة الإصلاحية دون وجود أدوات عقابية لألا يفقد السجن هيبته، وبالتالي يجب عليه الحفاظ على دوره في القضاء على الجريمة والتعامل معها بما يتناسب مع المنظومة الحاكمة[146].

---

[143] نيتشه، *في جنيالوجيا الاخلاق* : 83.

[144] المرجع السابق.

[145] Louani, “De la Selinquance a La reinsertion des Sortants de Prison,”

[146] جارية كشير بناجي، *السجون الاستعمارية بالجزائر:* مع دراسة نموذجية لسجن سركاجي (بربروس) اعتمادًا على سجلات الإيداع (1954–1962)(الجزائر: جامعة الجزائر، 2003)، ص17.

يختلف السجن الحديث عن السجن في بداياته والّذي يسعى للتأهيل والإصلاح، وذلك لعدة عوامل، تجمع بين ضعف أداء السجن في المجال الإصلاحي والتأهيلي، وإعادة دمج الفرد المذنب في المجتمع كفرد واع ومنتج من جهة، وبين غلبة تمثيل طابع العقوبة داخل السجن كأحد تجليات السلطة، حيث يتم إخراج الفرد من المجتمع وقوانينه، وتُجرد منه كافة حقوقه المدنية والفطرية[147]، وبالرغم من كونّه عقوبة إلّا أنَّ بعض الفئات الاجتماعية ما زالت ترى بأنَّ السجناء يأخذون حقوقًا أكثر منهم، إذ أنَّ السجين يجد مكانًا ينام به، وطعامًا يأكله دون انقطاع، وهذا قد لا يتوفر لدى طبقات معينة أو أفراد وفئات في المجتمع.

فالسجن الّذي يُراد به أنّ يكون أداة من أدوات مكافحة الجريمة، إنَّما يُعد في ذاته عاملًا لا يُستهان به من عوامل عدوى الجريمة[148]، فالسجن الحديث هو مجال للعنف وممارسة القوة، وذلك أنَّ حضور القوة داخل السجون بأشكالها وسلوكياتها المختلفة، عززت من أشكال الجريمة وانتشارها، بدلًا من ضبطها وقمع انتشارها[149].

فسر دوركهايم فشل الوظيفة الإصلاحية في أنَّ العقاب لا يُصلِح المذنب أو مقلديه المُحتملين، فهو يرى أنَّ وظيفة السجن من هذه الزاوية مشكوك فيها، أو على الأقل ضئيلة، إنَّ الوظيفة الحقيقية للسجن هيَّ في الحفاظ على التلاحم الاجتماعي تامًا، وللحفاظ على حيوية الضمير العام، هذا

---

147 C. Fred Alford, “What Would It Matter if Everything Foucault Said about Prison Were Wrong? Discipline and punish, After Twenty Years,” *Theory and Sociology* 29, no 1 (2000): 131.

148 كزيز، "كيف يكون السجن مؤسسة إصلاح،".

149 محمد غزالي، "البنيات الثقافية والعصبية داخل الفضاءات المغلقة: رؤية سوسيولوجية للوضع داخل السجون،" *مجلة العلوم الانسانية* 10 (2018): 254.

الضمير الّذي يؤكد نفسه كي يعبر عن نفور بالإجماع من الجريمة، ولا يتم ذلك إلّا عبر الألم الّذي يخضع له الفاعل[150].

إنَّ الوظيفة العقابية للسجن، تحط من كرامة الأفراد وإنسانيتهم، فهيَّ بعيدة كل البعد أنّ تحضر كمؤسسة في استطاعتها تطويع مدخلاتها (الفاعلين السجناء والمعتقلين)، وتهذيبهم وتصويب سلوكهم، بل على عكس ذلك، فهيَّ مؤسسة تزرع في فاعلية العنف والجنوح بنفس انتقامي وتمردي، مما يجعل السجين في أول فرصة تتاح أمامه، يمارس التمرد والانتقام مرات آخرى، بشكل لا يكترث فيه لقواعد وقيم المجتمع الّذي قد لفظه ويلفظه من جراء النبذ الاجتماعي الّذي يتعرض له ويقصيه من الإندماج في النسيج المجتمعي[151].

السجن بأدواته الإصلاحية والعقابية يُعد مجالًا للقوة وإقرار السيادة، ومنتج لقوة وعنف لا يمكن مقاضاته، فإنَّه يُعلّق حقوق السجين الاقتصادية، المتعلقة بحريته، وحركته، والتحكم بزمانه ومكانه، بالإضافة إلى ارتكازها على القمع، فالتحكم وإدارة الحياة داخل السجن هو العقاب في حد ذاته، لكنَّه عقاب لا يترك أثارًا على الجسد فحسب، إنَّما يترك أثاره داخل السجين، في روحه وإرادته وسلوكه، وتساهم المعرفة الّتي يحصل عليها السجّان من خلال المراقبة الدائمة على السجين قوة إضافية في التحكم في المقاومة والأشكال المرتبطة بها للسجين[152].

إنَّ السجن في الدول السيادية القديمة والحديثة، لم يبرز أهميته كفاعل في عوامل الإصلاح وإعادة الإدماج كما هو مقرَّر في وظيفته المُعلن عنها إلّا في بعض المجتمعات، إنَّما هو تجل من تجليات

---

150 المصدر السابق، 256، 257.

151 المصدر السابق، 254.

152 Power, “Foucault and Sociology,”.

إقرار السلطة، وتثبيتها، وعكسها في أرواح الأجساد الآخرى[153]، لذلك فإنَّ التداخل الكبير بين الوظيفة الإصلاحية والعقابية للسجن ساهمت في تبلور السجن كمجال عقابي لممارسة السلطة، مما قلَّص من حدود ومساحات الإصلاح والتأهيل وإعادة الإدماج، ليصبح الجسد المسجون تعبيرًا عن قدرة السلطة على الضبط وتطويع الأفراد الجانحين، وهذا هو الهدف الأساسي من السجون، أما رد الجريمة لجسد المجرم ومحاولة إنهائها، فهيَّ أيضًا تعكس المفارقات في القوة بين جسد المذنب وجسد السلطة، والّتي تضبط الجسد طالما كان مسجونًا، ولكن في أول فرصة تتاح لهذا الجسد أنَّ يكون متمردًا، سيمارس أفكاره ذاتها ولكن بحرفية وحذر أكثر.

المحور الثاني: السجون الاستعمارية/ الاستيطانية

عند الحديث عن السجن لا بُدَّ لنا من طرح أسئلة محددة ب: من هو السجّان؟، ومن هو السجين؟ وما هو السياق الاجتماعي والسياسي للسجن؟ وبالتأكيد هذه الأسئلة تجيبنا عن العلاقة السياسية والتاريخية بين خارج السجون وداخلها، ويساعدنا أكثر في فهم وظيفة السجن، وفهم إلى ماذا يسعى التعذيب أو الضبط داخله.

عند الحديث عن السجون/المعتقلات في المستعمرات يجب أنّ نسلط الضوء على فكرة سلب الحرية منذ الدخول الأول للقوات المستعمِرة أراضي المستعمَرين؛ فتصبح العلاقة واضحة بين مُستعمِر يُريد أنّ يسلب كل شيء بالقوة وبين مستعمَر يُحارب من أجل استعادة حريته، لذلك يسعى الاستعمار إلى تسكين الذوات المُستعمَرة من أجل إكمال المشروع الاستعماري والاستيطاني، وهنالك العديد من الأمثلة حول آلية عمل السجون في الحالات الاستعمارية، مثل تجربة الجزائر والمغرب وتونس، وجنوب إفريقيا والهند وآمريكا اللاتينية أيضًا، والعديد من الكيانات المُستعمرة، الّتي شهدت على أشكال مختلفة من

[153] Claire Spivakovsky, “Negotiations of Space: The Indigenous Prisoner and Discourse,” *Enter Text,* Vol 6, No3 (2011) 347.

الضبط العنيف والمحو للمشهد الثوري والمقاوم من خلال الإبادة، والتعذيب والتهميش، والاقصاء، فضلًا عن المُعتقلات الّتي لم تعد تستوعب الأعداد الهائلة من الأسرى الّذين يطالبون بحريتهم واستقلالهم.

تتكثف أدوات الضبط والمحو داخل السجون الاستعمارية، وتتشابه مع ممارسات السلطة/القوة الّتي يستخدمها الاستعمار على الأرض/السكان المستعمَرة، فالاستعمار يرى في نفسه صاحب السيادة ومسؤولًا عن تحقيق العدالة، وتُعد السجون أحد أهم تجليات هذه العدالة الّتي يُقررها المستعمِر على المستعمَرين الجانحين بنظر الاستعمار، وهمّ المستعمَرين المقاومين، لذلك يعد السجن الاستعماري هو حلقة ضرورية في استمرارية المشروع الاستعماري، ووسيلة لتفرقة المجموعات البشرية الكبيرة إلى مجموعات صغيرة في السجون، لتسهيل عملية ضبطهم والتحكم بهم، أو التخلص منهم.

يقوم الحبس بتعطيل وظائف الإنسان الحيوية؛ سواء الحركة أو ممارسة حقوقه الفطرية، أو المدنية المكتسبة، بحيث يتم تنظيم حاجات الإنسان الفطرية في الأكل والشرب والنوم، واستخدام المرحاض، وتهديد مستمر لحاجة الإنسان الاجتماعية بالشعور بالأمان والانتماء، ويُعد الحبس بذاته عنف وحرمان جنسي، وهذا الشكل من السيطرة أداة قمعية للوجود الإنساني، وتدمير مادي للأجسام البشرية والسكان؛ وهذا ما يطلق عليه بالسياسة الحيوية للتحكم وضبط التفاصيل الّتي تُشكل الجسد، من جهة آخرى؛ إنَّ السجن يعمل على تحقيق الموت الاجتماعي، من خلال الحرمان من الحقوق المدنية العامة "التصويت/الانتخاب" والحرمان من الحياة الخاصة "أسرة، اصدقاء، التعبير الجنسي[154]"

في السجون الاستعمارية، تستخدم أبشع وسائل التعذيب للحصول على المعلومات المتعلقة بالخلايا الثورية، والحركات التحررية المختلفة، وتم تاريخيًا استخدام الأدوات الّتي كانت تستخدم على العلن مثل

---

[154] Jessi lee Jackson, “Sexual Necropolises and Prison Rape Elimation,” *Journals The University of Chicago Press* 39 (2013): pp:198-199.

الدولاب، والجلد بالعصي والسوط، والإهانات، والتعرض لدرجات حرارة مرتفعة أو باردة جدًا، والإهمال الطبي والتسبب به أيضًا، كما والحرمان من الغذاء والماء.

على الرغم من التشابه الكبير بين الأدوات العقابية والتعذيب بين السجون في بعض الدول السيادية، والسجون في الحالات الاستعمارية والاستيطانية، إلّا أنَّ بعض الدول السيادية، وإنَّ كان السجن يعمل كمؤسسة عقابية، فإنَّ هذه العقوبة تأتي ضمن منظومة العقد الاجتماعي بين السلطة والشعب، للحفاظ على السلطة من جهة وعلى أمن المجتمع السياسي والاقتصادي والأخلاقي من جهة آخرى، وهذا لا يعني تبرير لحالة السجن وأدوات العقاب والعنف الّذي يُمارس داخل هذه السجون والّتي قد تكون عنيفة بعنف الاستعمار، ولكن السجن في الدول السيادية يُعتبر مؤسسة من مؤسسات الدولة الّتي تلقى قبولًا بمعاقبة المذنب وفق قوانين واضحة وثابتة نوعًا ما، وهدفها الحفاظ على الأمن المجتمعي، إلّا في حالات سياسية واقتصادية محددة، أما في الحالات الاستعمارية، فالسجن يُعد خطة مدروسة وممنهجة في التعامل مع المستعمَرين ضمن منظومة الضبط وإعادة الإنتاج للمستعمَرين ليكونوا تابعين ومنضبطين أمام عنف سياسات المنظومة الاستعمارية، أو أنّ تكون هذه السجون وسيلة محو وإقصاء، للوجود الفيزيائي والمعنوي للسكان الأصليين في هذه المستعمَرات.

السجن أو الحبس أو المعتقل[155] أو المحتشد، أو مراكز الاستنطاق، مهما تعددت مسمياته لدى المستعمِر إلّا أنَّها تدل على مكان واحد؛ يُزجّ الأسير المستعمَر فيه من قِبل الاستعمار، ليفقده حريته ويعطل حركته، وإفقاده مظاهر الحياة بإقامة جبرية تحت وحشية التعذيب والتنكيل[156].

[155] تتميز المعتقلات عن السجون في الحالة الاستعمارية أنَّها تتشكل خارج الاجراءات القانونية، واللوائح والأنظمة؛ فهو كل مكان يجمع فيه الأشخاص الّذين تُقيد حريتهم من قِبَل المستعمِر، بغية ضبط ثورة قائمة، أو مُحتملة، فلا يتعرض من في المعتقل إلى المحاكمة في كثير من الحالات، وهذا يوفر الكثير من الاجراءات الّتي لا تحتاج إلى البحث والتدقيق أو إلى المحاكاة. لمزيد من التفاصيل أنظر : صالح بوسليم، "جوانب السياسة الاستعمارية الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1956–1962،" *دورية كان التاريخية* 35 (2017): ص86.

[156] وسيلة بكيس، "تجليات الجسد المُعذب في الشعر الجزائري: الشعر السجني نموذجا بين 1954–1962،" *مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية* 4 (2014): 55.

هدفت السجون الاستعمارية/ الاستيطانية إلى التهجين وخلق أفراد (وليس جماعات) طيّعَة، حيث أنَّ هذه السجون جمعت بين الوظيفة الانضباطية، وبين الحبس العقابي، وكانت تجربة جنوب افريقيا وأميركا الشمالية متشابهة في هذا النموذج المختلط من السجون، فهيَّ من جهة "نماذج أصلية محددة في غاية الحبس العقابي" ومن جهة آخرى تسعى لخلق "مجتمع الانضباط والمراقبة/المعاقبة"[157].

يجادل فوكو أنَّ السجن لا يعمل على الجسد فقط كمساحة مادية بل كتكوين اجتماعي قوي، وهذا ما سيتم تفسيره في حالة السجون في جنوب افريقيا، والّتي جمعت بين الوظيفة التأهيلية والعقابية؛ حيث يحتل السجن مكانًا بارزًا في تاريخ جنوب إفريقيا؛ شكَّلَ نظام السجون البريطانية في بداياته إنشاء قوة عاملة صناعية حديثة في جنوب إفريقيا من خلال استغلال السجناء في العمل، حيث أجبر السجناء على العمل لصالح الاقتصاد الاستعماري، وبحلول أوائل القرن العشرين من (1902 إلى 1936[158])، أصبح نظام السجن مكانًا لممارسة الاضطهاد؛ وشهدت تلك الفترة زيادة هائلة في أعداد المحكوم عليهم في السجون، كان جميعهم تقريبًا "رجالًا سودًا يُحاكمون بموجب قوانين الضرائب والعبور والسيد والخدم[159] "، حيث تم بناء الكثير من المناظر الطبيعية الحديثة في جنوب إفريقيا من خلال السخرة، وتم استخدام عمل السجون لبناء طرق عامة شيدت خلال الأربعينيات والثمانينيات من القرن التاسع

---

[157] Daniel branch, “Imprisonment and Colonialism in Kenya: 1930- 1952, Escaping the Careeral Archipelago,” *The International Journal of Africa Historical Studies,* 38 (2005): 240.

[158] بعد انتهاء حرب جنوب إفريقيا في عام 1902 ، أصبحت الدولة وصناعة التعدين تعتمدان بشكل متزايد على عمل الأفارقة المحتجزين. وكان هناك ارتباط مباشر بين القوانين التي زادت من مستويات السجن واحتياجات العمل في الدولة والصناعات الزراعية والتعدين، لمزيد من المعلومات أنظر: Gabeba Baderoon, “The Creation of Black Criminality in South Africa,” *Africa is a Country* (2018) (used:20/10/2019) < https://africasacountry.com/2018/12/the-creation-of-black-criminality-in-south-africa>.

[159] استخدمت بريطانيا أداة القانون لتوليد أشكال جديدة من الإجرام وتحويل السود إلى مجرمين. كما تم توفير هذه الهيئات القانونية على وجه السرعة لاستغلال السود كعمالة رخيصة. أدى الاستخدام المتزايد لقوانين المرور (التي صدرت لأول مرة بموجب الحكم الاستعماري البريطاني في عام 1809 وإلغائها فقط في نهاية الفصل العنصري في عام 1988) وقانون الماستير والخدم (1841 و 1856 ، وألغيت فقط في عام 1974) في نهاية المطاف إلى خلق أكبر عدد من السجناء المسجونين في القارة. كما وخلقت فكرة أنّ الأجسام السوداء مجرمة بطبيعتها ، منحرفة ، وخطيرة، لمزيد من المعلومات أنظر المصدر السابق.

عشر، وشهدت ظروف العمل على وحشية وقسوة في المعاملة سواء من خلال الضرب الجسدي (الجلد)، أو القمع النفسي[160].

أثناء الفصل العنصري، تم توجيه اتهام فوري إلى أي جنوب أفريقي أسود لم يكن لديه وظيفة معتمدة وتم القبض عليه خارج البانتوستانات[161] بارتكاب جريمة، وهذا يعني أنّ تكون أفريقيًا في جنوب إفريقيا هو أمر إجرامي، وحولت الطبيعة المعتادة للسجن العرقي الرجال السود إلى مواد في السجن، اعتبر احتجازها ضروريًا لإعادة تأهيلهم، ولكي يعمل المجتمع العادي بأمان وفعالية[162].

هذا الاستراتيجية للاستعمار البريطاني في التعامل مع السجناء، استخدمت أيضًا في مستعمرات آخرى لها، مثل آيرلندا؛ حيث هدفت السجون البريطانية أيضًا في ايرلندا إلى تطويع المستعمَرين، عملت بريطانيا على وضع مجموعة من الاستراتيجيات للتعامل مع السجناء؛ مثل الاحتواء التفاعلي حيث تم فيها احتواء من يُعتقد مشاركتهم في أعمال العنف، وقمع تلك الفئات ومؤيديهم، وشملت الاستراتيجية الاعتقال دون مُحاكمة، وتصنيف للسجناء السياسيين لغويًا؛ وتقوم هذه على احتجاز السجناء في أماكن منفصلة وفقًا للفصيل السياسي، مركزة بالأساس على فكرة "فرق تسد" بين المجموعات والفصائل السياسية، وبين المناضلين للسيطرة عليهم؛ وذلك أنَّ أصحاب الفصيل الواحد يتم توزيعهم وتفريقهم بين

[160] Baderoon, “The Creation of Black Criminality in South Africa,”.

[161] هي مناطق في جنوب أفريقيا الّتي يشكل بها السود الأغلبية السُكانية في كل من جنوب أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا (ناميبيا الآن)، واسم بانتوستان هو من بانتو أي الأشخاص الذين يتحدثون لغات البانتو و ستان معناها أرض باللغة الفارسية وبلغات إيرانية أُخرى، وهذه المناطق يحكمها مجموعات من المستعمَرين البيض الّذين يستمرون في انتهاك حقوق المواطنين السود، وتعد هذه البانتوستات مستودع للعمال البشرية الرخيصة بنظر البريطان، ومكان للفقر والبطالة والجهل، وهذه المناطق جائت بفعل التقسيم العنصري البريطاني على الأرض والسكان، بناء على تقسيمهم للأعراق.

[162] Baderoon, “The Creation of Black Criminality in South Africa,”.

أعضاء من فصائل المعارضة، ومع المجرمين العاديين، وإجبارهم على العمل وارتداء زي السجن، والقيام بمختلف الأعمال الّتي يقوم بها السجناء العاديين[163].

كما اعتمدت بريطانيا سياسة الخطاب الإداري للتعامل مع السجناء الايرلنديين، بدلًا من الخطاب السياسي، وسعت السجون إلى السيطرة على تبعيات العنف في المستعمَرات، وذلك من خلال الحد من تدخل السجناء السياسيين في عملية ترشيد وصناعة القرارات، واتخاذ القرارات التنفيذية داخل السجن[164]. هذه السياسات الاستعمارية هدفها اقصاء البُعد السياسي والنضالي في التعامل مع السجناء ومحاكمتهم، وتحويلهم إلى مجرد سجناء مجرمين أخلّوا بالنظام، وهذا النوع من السياسات يحمل بُعدًا محويًا، حيث يحاول المستعمِر الحفاظ على تفوقه على الآخر الأصلاني، وتطويع خطاب الأصلاني في حقه في الحرية وحقه في المقاومة.

يختلف شكل التطويع/الضبط/المحو السجني وأهدافه بين تجربة استعمارية وآخرى، فبينما كانت الاجراءات في السجون البريطانية في ايرلندا تسعى إلى ضبط المساجين أكثر من خلال السياسات واللوائح الداخلية، فقد كانت تجربة السجون الأميركية في العراق تتجسد باستخدام أدوات العنف تحت شعار "مكافحة الإرهاب" ولكنَّ الهدف هو انتزاع المعلومات من السجناء، وإذلالهم، وإلحاق الهزيمة بهم، حيث ركَّزَ المستعمِر الأميركي والسجان على القسر البدني والإذلال الجنسي للسجناء العراقيين، في محاولة منهم لاستخراج معلومات تخص المقاومة، وجعل بعض منهم يعملون كمخبرين، عن طريق التهديد والابتزاز بالإكراه الجنسي والتعذيب الجنسي الّذي حصل داخل السجون[165]. بالإضافة إلى

[163] لمزيد من التفاصيل أنظر الورقة البحثية بعنوان: *"السجناء السياسيون، المقاومة والقانون في إيرلندا الشمالية: ورقة بحثية عن النشطاء الفلسطينيين"* في مارس 2015 ضمن مشروع (محامون، صراع، انتقال).تاريخ الدخول للموقع (2018/11/22)، > https://lawyersconflictandtransition.org/themainevent/wp-content/uploads/2015/04/POLITICAL-PRISONERS-RESISTANCE-AND-THE-LAW-ARABIC-APRIL-2015.pdf< :.3

[164] المصدر السابق،4 .

[165] سايمور هيرش، "المنطقة الرمادية كيف انتقل برنامج سري للبنتاغون إلى أبو غريب،" *المستقبل العربي* 305 (2004): 47،38.

الحرمان من النوم لساعات طويلة، وإبقاء الجسد في وضعيات مؤلمة ولفترات زمنية طويلة، واستخدام الحرارة والبرودة القاسية كأداتي تعذيب، بالإضافة إلى العزل[166].

وفي حالة الجزائر، استخدمت فرنسا وسائل عديدة للإنهاك الجسدي والنفسي للجزائرين الأسرى؛ حيث استخدمت الصعق بالكهرباء، والتعذيب بالثلج والجليد، والغطس في الماء البارد حتى الموت، العزل في الغرف الإنفرادية، الصلب على الأشجار في العراء، والتعريض لنهش الكلاب، وتسليط الأضواء الكاشفة على العينين لمدة طويلة، ونتج عن هذه الوسائل استشهاد العديد من الأسرى، أو فقدانهم أجزاء من أجسادهم، أو فقدان جزء من ذاكرتهم، أو إصابتهم بالجنون[167]، إنَّ هذه النتائج الجسيمة على الجسد المستعمَر السجين تسعى إلى محوه بتعطيل إرادته وقدرته على أنّ يكون فردًا فاعلًا في النضال، أو حتى أنّ يكون قادرًا على تلبية احتياجاته الخاصة، بالإضافة لمحاولة تفكيك ارتباطه بالمجموعة المناضلة الفاعلة من جهة والمجتمع المستعمَر بشكل عام، وتحييد الأسرى عن العلاقات الاجتماعية والإنسانية بإعطاب ذاكرتهم ونفسيتهم.

إنَّ السجون في الحالات الاستعمارية الاستيطانية، تهدف إلى محو السكان، وضبطهم بالسيطرة عليهم لترهيبهم، وتحويلهم إلى ذوات ساكنة لا تُعيق المشروع الاستيطاني، لذلك انتهجت ممارسات العقوبة والتعذيب في السجون فن إمساك الحياة في الوجع؛ فالتعذيب تقنية، وظيفتها إحداث كمية من الوجع وإنّ لم يكن بالإمكان قياسها بدقة أو تقديرها من جهة، من جهة آخرى؛ تقسيم التعذيب إلى ألف موتة قبل أنّ تتوقف الحياة على أشد حالات الفزع[168]. ولذلك نرى أن وسائل التعذيب داخل السجون هدفت إلى إماتة القدرة الفاعلة والثورية لدى الأسرى، حيث أنَّ استخدام التعذيب بالكهرباء على أعضاء الجسد

166 المصدر السابق، 48.

167 بكيس، "تجليات الجسد المعذب،" 57.

168 المصدر السابق، 55.

عامة، وفي المناطق الحساسة خاصة، وبتر الأعضاء، وقلع الأظافر وتشريح الجسد، ورش الجسد بالملح أو المواد الكيماوية الحارقة، والحرق بالسجائر[169]، وكسر العظام، والإجبار على بناء قاعات من الحجر تحت الضرب والشتائم والإهانات، والزحف أرضًا تحت وقع البنادق، والإجبار على مسح أحذية الشرطة والضباط والسجانين ولعقها، وتجليس المعتقلين فوق لهيب النار، وكسر الحجارة بالحجارة أو بالمطرقة، والتعذيب بالأنبوب المطاطي أو الأسلاك الكهربائية في الأماكن الحساسة، وعض الكلاب لسيقان الاسرى، وربط الرقبة بسلك حديدي مع الأطراف والضرب بالأعمدة الخشبية، بالإضافة إلى التعرية مع السب والشتم والصراخ والبصاق[170]، كل هذه الوسائل ما هيَّ إلّا وسائل لكسر السجناء داخليًا، وإجبارهم على العمل بذل لصالح خدمة الاستعمار وتبعيتهم له، وعدم التفكير في المقاومة، أو تشويه جسد السجين بحيث يفقد القدرة على المقاومة، ويخاف أيضًا من فكرة المقاومة وتبعياتها تحت الاستعمار الّذي يستخدم هذه الممارسات دون رحمة.

اشتلمت وسائل الضبط أيضًا على التعذيب من خلال انتهاك القيم الدينية والثقافية للمستعمَر؛ فمثلًا في الجزائر تم إرغام الأسرى على شرب الخمر بالقوة، والتهديد الدائم بتابو الجسد والجنس وصورتهما مجتمعيًا[171]، كما واشتملت على سياسات الترويع والترهيب للسجناء والمجتمع أيضًا؛ من خلال إصدار قرارات وهمية بالقتل، ومن ثم يتم استبعاد واخفاء الاسير، ليعتقد باقي الأسرى أنّه قتل، مما يترك شعورًا بالخوف والترقب لهذا المصير، كما وسياسات تشويه سمعة السجين لكسر معنوياته، وتحطيم ذاته؛ من

[169] بوسليم، "الجوانب السياسة الاستعمارية،": 86.

[170] بشير المدني، "شهادات وقراءات حول السجون والمعتقلات خلال فترة الاحتلال،" *مجلة الحكمة للدراسات التاريخية* 11 (2017): 167.

[171] بوسليم، "جوانب السياسة الاستعمارية،": 86.

خلال استصدار قرار عام باخلاء سبيله، ثم يتم عزله واخفاؤه، وإخبار العائلة والتنظيمات أنَّ الأسير رفض الخروج، مما يسبب حالات طلاق، وتشكيك بوطنية الأسير[172].

هذا التعذيب الجسدي، والتعذيب النفسي الّذي سعى المستعمِر الفرنسي إلى وضع الجزائري فيه؛ هدفه تحطيم معنويات المعتقلين، وتغيير أفكارهم وذهنياتهم، وزرع اليأس على ملامح المعتقلين، وجعل القلق يسيطر عليهم، مما يتسبب بحصول اضطرابات نفسية مثل الجنون، أو الإجهاض في حالات النساء، أو إحداث أزمة نفسية، وانهيارات عصبية، والموت بالأزمات القلبية، أي التعذيب الّذي يُفضي إلى الموت.[173].

في بعض حالات الاستعمار الاستيطاني مثل الجزائر وليبيا، تم تصميم السجون بطريقة تقصي عددًا كبيرًا من المستعمَرين عن الأرض؛ في الصحراء الجزائرية تم توزيع السجون والمعتقلات في المناطق النائية نوعًا ما، والخالية من السكان، حيث كانت السجون على أبواب الصحراء بعيدة عن أي تجمع سكاني[174]، ويتقصد المستعمِر أنّ تكون هذه الأماكن تتوافر فيها شروط وظروف السجن المكانية القاسية، سواء من خلال الحرارة القاسية والشديدة نهارًا والبرودة ليلًا، ويحيط بهذه السجون سياج من الأسلاك الشائكة، وتزرع الألغام من ورائها، وذلك في سبيل منع أفاق الهروب من السجن، والعزل الكامل عن المجتمع[175].

كانت عملية النفي الإيطالية في ليبيا والّتي عملت كمرادفة لمفهوم السجن، حيث تم نفي المستعمَرين الفاعلين بشكل خاص، ومجموعات من المستعمَرين بشكل عام إلى جزر إيطالية، وتتجهز السجون

---

[172] المدني، "شهادات وقراءات،": 164.

[173] المصدر السابق 168

[174] بوسليم، "جوانب من الحياة السياسيةالاستعمارية،": 86.

[175] نصر الدين بشير العربي، "المنفيون الليبيون إلى سجون الجزر الايطالية: سجن تراميتي نموذجا،" *رابطة الأدب الحديث* 78 (2013):521،530.

على قمم هذه الجزر حيث طبيعة المناخ غير ملائمة للأفارقة، كما وتم استخدام الكهوف النائية كمكان للسجن، وكان الإيطاليون يتركون السجناء في هذه الكهوف النائية دون خدمات صحية ودون رعاية غذائية، الأمر الّذي لا يستدعي وجود مراقبة عليهم، وذلك لضمان عدم قدرتهم على الهروب بسبب إنهاكهم[176].

المثير أنَّ حملة نفي الليبيين كانت من الخطوات الأولى الّتي بدأ الاستعمار الإيطالي العمل بها، أي أنَّه أمر قد سبق التخطيط والتحضير له، ويفهم منه أن خطة النفي لم تكن نتيجة وإنَّما هي جزء من حملة الغزو في رسم استراتيجية السياسة الإيطالية تجاه ليبيا، والّتي تلخصت في تخفيف ضغط المقاومة، تشجيع رعايا إيطاليا على الهجرة والاستيطان والاستقرار دون وجود خطر يهدد وجودهم، وبوجود مساحات شاسعة تم إخلائها[177].

السجون الاستعمارية/الاستيطانية هيَّ المكان الّذي تُكثَّف فيه ممارسات الاستعمار على الجسد المستعمَر ولكن كل جسد على حدا، ووظيفة هذه السجون هيَّ إقصاء الأفراد الفاعلة والواعية عن الميدان المقاوم، وردع الأفراد الّذين من المحتمل مقاومتهم للاستعمار، ويتم هذا الردع من خلال الألم الجسدي والنفسي الّذي ينقشه المستعمِر على جسد الأسير، باستخدام أدوات وأساليب وممارسات تمس بجسده وما يحمله من روح ونفس وجنس، ويعلق حقوقه المرتبطة بهذا الجسد، كما ويسعى إلى إضعافه من خلال تشويه جسده وإعطابه، كنوع من نقش علاقات القوة والسلطة والسيادة، وهذا التعذيب ينتقل إلى وعي الآخرين ليضبط سلوكياتهم المقاومة، وهذا لا يعني وجود معايير وإشارات معينة تدل على أنَّ فرد مقاوم وآخر لا، ففي الحسابات الاستعمارية كافة المستعمَرين هم "مشبوهين"؛ لهذا في حالات التمرد والعصيان، يتعرض أي مستعمَر سواء كان فاعلًا أو لا للاعتقال والتعذيب، فالتعذيب وظيفته

---

[176] المصدر السابق، 528.

[177] المصدر السابق 524.

إقرار السيادة بالأساس لصالح المستعمِر، وتسهيل عملية الاستعمار والاستيطان في الأرض دون وجود معيقات وقوى تحررية، أو مشاريع وطنية تقود نحو الاستقلال والتحرر.

المحور الثالث: السجون الصهيونية

تعتمد السلطات الاستعمارية في المعتقلات الصهيونية على أساليب تعذيب وعقاب تقوم على الدمج بين العنف الجسدي والعنف النفسي الّذي يستهدف الأجساد الفلسطينية، وتستخدم في ذلك شتى أدوات التعذيب الّتي تطبع قسوتها على جسد الأسير/ة وذاكرته/ا، وذلك بهدف قتل الأجساد المقاومة، واستبعادها عن ساحات ممارسة فعل المقاومة، وتحييده/ا عن الفعل الوطني، وإعادة إنتاج أجساد خارج دائرة الاستثمار السياسي للمقاومة.

إنَّ الاستهداف الأساسي للجسد في الواقع الفلسطيني، يأتي من فكرة الاستيطان نفسها المبنية على اللا وجود الفلسطيني، فوجود هذا الجسد يشكل عائقًا أمام استكمال المشروع الاستعماري الاستيطاني ولا يمكن إلّا أنّ يكون ميتًا في الحسابات الاستعمارية. لذلك؛ صُممت المُعتقلات لتقوم بهذه الوظيفة، قتل وعي وفعل المقاومة لدى المقاومين الفلسطينيين، من هُنا نستدل على أهمية الجسد الفلسطيني، كفعل مُضاد لكافة الممارسات الاستعمارية.

لكن المحو الّذي أريد التركيز عليه والخاص بالأسرى يأخذ بُعدين، البعد الأول المحو للذات الفاعلة من خلال الممارسة باعتقاله وعزله عن مجتمعه وتأثير هذا العزل على الوعي الجسدي، والبعد الثاني من خلال المحو للذات الفاعلة بأدوات التعذيب المُختلفة وخطاب الاستجواب الّتي يخاطب المُحقق ورجال المُخابرات بها الأسير.

السجن وظيفيًا

قادنا النقاش في المحورين السابقين حول الدور الوظيفي للسجون في الدول السيادية، والدول الاستعمارية والاستيطانية، إلى تحديد عدد من الوظائف الأساسية للسجون، وهيَّ الإصلاح والتأهيل؛ وهيَّ لم تكن اصلاحية دون استخدامها للعقاب بأدواتها المختلفة الّتي تسعى من خلالها إلى رسم موازين القوة والسلطة على جسد السجين، وبهذا كان التأهيل مرافقًا للعقاب، إلى أنّ اختفت قيمة الإصلاح وغلبت عليه سمة العقاب، وسادت الوظيفة العقابية وتكثفت في سجون المجتمعات الاستعمارية والاستيطانية والّتي تمثلت في الضبط لإعادة إنتاج أفراد ومجموعات تابعة للهيكلية الاستعمارية، ومفيدة في جمعها للمعلومات، وطيّعة/منضبطة في نشرها لثقافة الخوف والاستسلام.

أُستخدمت أيضًا السجون كأدوات للاقصاء والتحييد للمستعمَرين الفاعلين والذوات المقاومة والواعية عن المجال والميدان السياسي العام، حيث استخدمت لممارسة القمع السياسي وللتأكيد على السيادة والقوة، في الحالات ذات المشاريع/الرؤية الاستيطانية، يكون السجن والنفي مفهومان متلازمان، فيتم إفراغ الأرض من خلال سياسات الاعتقال والنفي على حدود الدولة المستعمَرة، أو في جزر وكهوف نائية في أراضي الدولة المستعمِرة، وهكذا كان السجن يحمل دائمًا وأبدًا أداتين لا يمكن الاستغناء عنها في الحالات الاستعمارية الاستيطانية؛ أولًا: محو وعي الأفراد والجماعات المستعمَرة، تحديدًا وعيها المقاوم، وذلك من خلال العزل عن المجموعات الثقافية والسياسية الّتي تُشكِّلَهم، وممارسة أقسى أنواع التعذيب الجسدي بالاستعانة بأشكال مختلفة من ممارسات القوة على الجسد بمكوناته النفسية والجنسية، ثانيًا: محو المُستعمَرين فيزيائيًا عن الأرض، وتجميعهم داخل سجون موزعة بشكل منظم في مناطق مختلفة على الجغرافيا المستعمَرة، الأمر الّذي يُسهل من عملية التوسع في الاستيطان على الأرض، والتحكم والسيطرة على الأرض والسكان خارج السجون من جهة، وعلى الأسرى داخل السجون أيضًا من جهة آخرى.

لا يختلف السجن الصهيوني في وظائفه عن الوظائف السابق ذكرها للسجون، بل وتتكثف في الحالة الصهيونية لتسعى في حالات معينة خلال فترات زمنية بتصفية الأسرى واغتيالهم، أي ممارسة القتل والإبادة الفيزيائية للعديد من الشخصيات الفلسطينية ذات الكاريزما المؤثرة في الثقافة الوطنية والنضالية مثل الأسير/الشهيد "إبراهيم الراعي"، والّذي تم تصفيته في العزل الانفرادي في عام (1988)، وكذلك محاولات التصفية والإبادة للعديد من رموز المقاومة الفلسطينية، كما في شهادات العديد من الأسرى أبرزهم مروان البرغوثي الّذي لطالما سمع في اعتقاله الثاني عبارة "يُفترض ألّا تكون حيًا" وأحمد سعدات بصراعه مع الأفاعي السامة في زنازين العزل الانفرادي.

تعتبر السجون الصهيونية أحد أهم الأدوات السياسية والاستراتيجيات الأمنية، الّتي تستخدمها البنية الاستعمارية "الاسرائيلية" في السيطرة على المشهد النضالي في المجتمع الفلسطيني، ويهدف الاعتقال في الأساس إلى اعتقال أدوات وفكر المقاومة، لتثبيط ممارستها، من خلال اعتقال الأفراد المقاومين أو المحتمل ممارستهم للمقاومة، وبذلك تقوم أيضًا بعزل واقصاء المقاومين في السجون.

يسعى السجن الصهيوني أيضًا إلى تحقيق الإقصاء والعزل، ونزع الفرد من مجموعته، والسعي نحو غربلة قيمه الوطنية الفلسطينية، واستبدالها بمشاعر خائفة ومترددة ومنهزمة، وهذا يعني محاولة محو وجوده من خلال اقصائه وإخفائه، ومحاولة محوه من خلال تفريغ محتواه وانتمائه الفلسطيني، واستبداله بوعي آخر، لا يهدد الوجود والاستقرار الاستيطاني الصهيوني.

السجن الصهيوني أداة لإماتة الفلسطينيين ببطء، من خلال سلب سنين عمرهم داخل السجون لمجرد وجود شبهات/شكوك، فالفلسطينيون جميعًا عرضة للسجن، لأنَّ الاستعمار الاستيطاني الصهيوني أوجد سجونًا كبيرًا على الجغرافية الفلسطينية، عزل فيها المجموعات الفلسطينية عن بعضها البعض، إنّ لم يكن حدوديًا، فتم العزل عن طريق الحواجز، ومن خلال جدار الضم والتوسع، وتقسيم المناطق الحدودية بين المناطق الفلسطينية، وكذلك سياسة العزل داخل السجن، حيث يتم عزل الأسرى داخل

تصنيفات حزبية ومناطقية، حسب العديد من العوامل: الانتماء السياسي، الفئة العمرية، مكان سكن الأسير، طبيعة "التهم/ الأحكام" الّتي توجه للأسير/ ويحاكم عليها، طبيعة الوعي والثقافة لدى الأسير، وشخصيته وقدرته على التأثير، وهذه التفرقة والتصنيفات داخل السجون يسعى من خلالها الفكر الصهيوني الاستعماري إلى منع تشكيل أنوية مقاومة، وبناء مجتمع وفضاء وطني داخل السجن، حيث يتم عزل المؤثرين والقيادات عن الأسرى الآخرين لمنع إعادة إنتاج الوعي المقاوم الّذي حاول المحقق والسجن كسره خلال عملية الاقتحام والتحقيق والاستجواب.

تُعد سياسة عزل النخبة الفلسطينية؛ وهم القيادات الّتي ترأست الأعمال الثورية قبل الاعتقال، وأصحاب العمليات النوعية، والشخصيات المؤثرة في الوعي والثقافة الفلسطينية، سياسة ممنهجة تهدف إلى منع هذه النخبة والّتي تُعد نواة صلبة في تشكيل مجتمع المقاومة داخل السجون، من تشكيل علاقات اجتماعية بين الأسرى، والّتي بطبيعة الحال تتبلور لتشكل سدًا منيعًا أمام الاجراءات والقوانين والهجمات العنصرية الّتي تُمارس بحق الأسرى داخل السجون، ولمنع نقل الخبرات القتالية والعسكرية.

إذًا السجن الصهيوني يُعد مؤسسة دولة عنيفة/مباشرة، مثلها مثل جهاز الشرطة وأجهزة الدولة التنفيذية والقضائية أيضًا من حيث قوانينها وأدواتها، وعنفها الظاهر والعلني، ومن جهة آخرى يتم التطوير عليه ليصبح نموذجًا لمؤسسة استعمارية أيديولوجية (استعمار حديث)، حيث تسعى لضبط الأسرى وكيّ ومحو وعيهم، واستبداله بوعي آخر منهزم متردد، حيث تصبح هذه التجربة تلاحق الأسرى في لاوعيهم بعد تحررهم، ويتم التركيز على الأطفال والشباب في هذه التقنية، وذلك لا يعني أنّ كبار السن لا يتعرضون لمحاولة كي الوعي، بل أنَّهم يتعرضون ولكن بشكل أخف وذلك أنَّ الكبار في السن تشكلت أيديولوجيتهم وخلفيتهم الفكرية بمتانة ليس من السهولة زعزعتها، وذلك أنَّهم تشرَّبوا الوعي الوطني من خلال التجربة المباشرة والانخراط في المقاومة لسنوات طويلة، أما الشباب والأطفال فهم في طريقهم

لتشكيل وعيهم الوطني الخاص، وهذا يعني أنَّ هنالك احتمالية بنسبة معينة للتأثير في وعيهم ومحاولة كيه.

يُعرّف الأسرى الأطفال السجن بأنَّه الخوف من التعذيب والانتهاكات، وهو المكان الّذي يكون فيه الأسير مقصيًا، بعيدًا عن عائلته وأصدقائه ومدرسته، وهو المكان الّذي يترك بصمته ونقشه في وعيه ونفسيته حتى بعد الخروج منه، وهو المكان الّذي لا يستطيع الأسير أنّ يكبر وينمو داخله[178]، فالسجن يحمل تبعيات نفسية وعاطفية جدية داخل الأطفال، مما يُعيق إمكانية تحررهم من العنف والقوة الّتي عايشوها، وهذا ينعكس على قدرة الأطفال أنّ يحيوا حياة طبيعية دون مشاعر الألم والخوف الّتي اختبروها داخل المعتقلات

السجن مكان للتعذيب وممارسة العنف "الاسرائيلي" واستمرار العقاب منذ لحظة دخول الأسير وصولًا لمحطته الأخيرة، وتترافق تفاصيل العنف مع كل جزء داخل السجن. وصف الأسير المُحرر/ الباحث وسام الرافيدي السجن في كتاب *أولست انسان*؛ على أنَّه دولاب يستمر في إنتاج آلية عقاب غير منتهية؛ ويقول: "أنا لم أعاقب مرة واحدة فقط، بل أعاقب بشكل مستمر ومتواصل، عندما أحشر في زنزانة لا هواء فيها، مع خمسة عشر معتقلًا آخر، ومرحاض واحد ومكان استحمام واحد، عندما لا استطيع إيجاد مكان مناسب للقراءة والكتابة، وعندما لا استطيع رؤية عائلتي وأصدقائي، وعندما أسأل نفسي عن صحة والدتي وإخوتي ولا استطيع أن أعرف جواب[179]".

فالسجن يحرم الأسير من عدة حقوق عدا عن حريته، مثل رؤية وملامسة عائلاتهم، والحرمان من النوم والمطالعة في الاوقات الّتي يرغبون بها، والحرمان من المثول أمام محكمة حقيقية، والحرمان من

---

[178] فراس أبو هلال، *أولست إنسان.. معاناة الأسير الفلسطيني في سجون الاحتلال الاسرائيلي*. (تحرير: محسن صالح ومريم عيتاني) (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009):91-97.

[179] شهادة وسام الرافيدي في كتاب فراس أبو هلال، المصدر السابق، 55.

الخصوصية سواء في الاستحمام أو استخدام الحمام، والحرمان من الخدمات الطبية، والعزل، ورش المعتقلين بالغاز المسيل للدموع أثناء اقتحام غرفهم خلال فترة النوم، وتقليص الاحتياجات المقدمة، وقلة ورداءة الطعام، ونقل الأسرى من مكان إلى آخر خلال فترة زمنية قصيرة وخلال فترة الليل وبشكل مهين ومتعب، حيث يتم تكبيل يديه وقدميه، وإهانته، وضربه، بالاضافة إلى فرض نوع معين من اللباس ولون محدد[180] .

السجن من وجهة نظر الأسرى الفلسطينيين هو مرحلة/أداة لاستمرار بنية القمع السياسي الّذي يسعى إلى ضبط/ قمع الذوات المقاومة من خلال محوها بالعزل والاقصاء، ومن خلال سعي السجن لتجريد الأسرى من حقهم في المقاومة، واستبعادهم عن ساحاتها، وعن الجسد الجمعي الّذي يبلور معاني جديدة للمقاومة والنضال باستمرار، ومن خلال مصادرة الحقوق الأساسية للفلسطيني بحرمانه من حريته، وتعليق كافة حقوقه السياسية والاجتماعية والجسدية.

سياسة الاعتقال

منذ اليوم الأول سعى الاستعمار "الاسرائيلي" إلى تفريغ الأرض الفلسطينية، وتعددت الأساليب والاستراتيجيات في ذلك، وكان من ضمن هذه الاستراتيجيات "الاعتقال"، حيث شهدت فترة 1948 حتى عام 1965 اعتقال ما يقارب 9000 أسير في سجني صرفند وعتليت، وتم إجبارهم على العمل بالسخرة في ذلك الوقت، وتعرض الأسرى للمعاملة المُهينة والقاسية، والسرقة، واغتصاب النساء والتحرش بهنّ، والمضايقات الجسدية للأسرى، وتمت تصفية غالبية الأسرى في تلك المرحلة بالقتل في نهاية الأمر[181].

---

[180] فراس صلاح الدين جابر، *السجن "الاسرائيلي" كمفهوم زماني ومكاني دراسة في المفهوم والأثر* (رام الله: جامعة بيرزيت، 2010): 27.

[181] أبو هلال، المصدر السابق، 16.

في قراءة لفترات ومراحل الاعتقال، فنرى أنَّه في الفترة ما بين 1967-1987 اعتقال 420 ألف أسيرًا، وتتزايد هذه الأعداد وترتفع خلال فترة الثورات الشعبية، في الانتفاضة الشعبية الأولى ما بين 1992 -1987 بلغ عدد الأسرى (420 أسيرًا) وفي فترة الانتفاضة الشعبية الثانية عام 2002 (9750 أسيرًا) وفي الهبة الشعبية في القدس عام 2015 (4800أسيرًا)[182]؛ إنَّ سياسة الاعتقال تترصد الفلسطيني المقاوم بالأساس، والفلسطيني الّذي يقتحم الميدان ليرفض الاحتلال.

تركِّز الاعتقالات في قطاع غزة المحاصر على تحقيق مزيد من الضبط على سكانه والحصول على معلومات، من خلال اعتقال الأشخاص ذوي الحاجات الطارئة والانسانية واستغلال حاجاتهم، مثل اعتقال صيادي الأسماك، والمرضى الّذين يُسافرون عبر معبر "ايرز" بحثًا عن العلاج، حيث يقومون بالضغط عليهم ليصبحوا أدوات استخباراتية بشرية، تساهم في الحصول على معلومات حول الجهاز الأمني الفلسطيني المقاوم في قطاع غزة، وجمع معلومات أكثر حول بعض الشخصيات، ويتعرض الصيادون والمرضى لشتى طرق الإذلال والمعاملة القاسية والمهينة والتعذيب الشديد أيضًا، كل ذلك سعيًا لتعزيز السيطرة الاستعمارية "الاسرائيلية" الفعالة على قطاع غزة[183].

فالاعتقال يهدف إلى ضبط المشهد الفلسطيني، وتقليص حالة المقاومة، وإشاعة الرعب في نفوس أبناء الشعب الفلسطيني، لضبطه وحصر إرادته، "فوظيفة السجون تسعى إلى تطويع المجتمع الفلسطيني وقمعه، وإلى شرعنة الاحتلال عن طريق محاربة ما يتناقض معه لتثبيت وجوده الشرعي، وتطويع

---

[182] "تقرير: عدد الأسرى الفلسطينيين بلغ800 ألف منذ عام 1948،" *الإنقاذ الأحمر العربي* (2010/9/22) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/20) <
https://alinkad.wordpress.com/2010/09/22/%D8%AA%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%B1-%D8%B9%D8%AF%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B3%D8%B1%D9%89-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A%D9%8A%D9%86-%D8%A8%D9%84%D8%BA-800-%D8%A3%D9%84%D9%81/>.

[183] لمزيد من التفاصيل، أنظر: "ممارسة اسرائيل التعذيب وغيره من ضروب المعاملة و/ أو العقوبة القاسية و/أو المهينة و/أو اللانسانية ضد الفلسطينيين في قطاع غزة"، *عن التعذيب*، 93،95،96.

المعتقل/ السجين، الفلسطيني بهدف عدم عودته لممارسة دوره المقاوم، كما ويهدف مبدأ الاعتقال إلى القتل والتصفية ونزع الروح المتمردة والثائرة في الفلسطينيين لتحويلهم من إنسان إلى مجرد رقم لا قيمة له، محطمًا دون قناعات[184]".

هذه الأرقام تُشير أيضًا أنَّ المعتقل مكان للاقصاء بمعنى محو وجود المقاومين، ومحو إمكانية وجودهم كفاعلين في المشهد الفلسطيني العام، وأيضًا محاولة محو تسعى إلى تقليص قدرة الجسد على المقاومة، وتحديد أدواته أيضًا، وحصره في حيز يمكن التنبؤ به، ووضعه في ظروف تضيق على جسده وتهلكه.

في جميع المناطق الجغرافية المقسَمة بفعل الاستعمار، تنتهج الآلة الاستعمارية مبدأ الاعتقال بالاشتباه، والاعتقال للمشاركة في مظاهرات أو احتجاجات سلمية، والاعتقال الاداري، ويصَّنف الأسرى بناء على أي تهمة اعتقلوا أو أدينوا بموجبها بمعتقل أمني، "وهو الشخص الّذي ارتكب جريمة، أو مشتبه بارتكاب جريمة، والّتي وفقًا لطابعها أو ظروفها، تُعرَّف كمخالفة أمنية أو أنَّ الدافع من ورائها هو دافع قومي" وهذه الأعمال تسبب الأذى "للاسرائيلين" أو خطر على الدولة "بما في ذلك مقاومة آليات الاحتلال العنصرية والقمعية" إنَّ كل الفلسطينيين يعتبرون معتقلين سياسيين محتملين، وهم عرضة للتوقيف والتحقيق، والمحاكمة أو الاعتقال الإداري[185].

يُحلل الأسير وليد دُقة أنَّ سياسة الاعتقال هذه، وترسيخ سياسة السجن في داخل السجون وخارجها في المجتمع الفلسطيني، هيَّ صهر البُنية التحتية للمقاومة الفلسطينية، وهيَّ الروح المعنوية، ومقولة الشعب الواحد والهم الواحد الّذي شكَّل الفلسطينيين كجسد واحد خلال الانتفاضة الشعبية الأولى، والّتي

---

[184] جابر، "السجن الاسرائيلي،" 12،19.

[185] ليزا حجّار، محرر "قراءة في كتاب "التهديد": المعتقلون السياسيون الفلسطينيون في اسرائيل،" *في عن التعذيب* (عدالة – المركز القانونية لحقوق الأقلية العربية في اسرائيل و أطباء لحقوق الإنسان – اسرائيل و مركز الميزان لحقوق الإنسان – غزة ،2012):104

جعلت "اسرائيل" تُركز في عملية تصميم سجونها على تفكيك هذه الجسد جغرافيًا وسكانيًا من خلال المعازل/ السجون[186]، فإنَّ إبادة الفلسطيني (بالقتل/ بالسجن/ بالعزل) آلية واستراتيجية استعمارية "اسرائيلية" والّتي لا يمكن التعامل معها على أساس أنَّها أحداث متفرقة، بل هيَّ بنيوية ومخطط لها، وتطور آليات القمع وتعذيب هذه الأجساد ووسم السلطة عليها يترافق مع تطور آليات النضال الفلسطيني والمقاومة، في محاولة لقمع المقاومة وكسر أدواتها، ونقش الألم على أجساد وفي ذاكرة ممارسيها[187].

داخل السجن

يُحاصر الأسير الفلسطيني داخل السجون بمنظومة متكاملة من استخدام العنف والقوة؛ فالمكان غير مُجهَّز للعيش الآدمي، من حيث طبيعته الداخلية، وأيضًا من خلال التعذيب الّذي يُرافق الأسرى منذ أول مواجهة مع السجن حتى النهاية، ولهذا نرى المسميات المخيفة الّتي يُطلقها الأسرى على السجون؛ فسجن المسكوبية (المسلخ) وصرفند ونفحة الصحراوي والجلمة وبتاح تكفا، وسجن قمر اسرائيل (1319 السري[188]) يُطلق عليها ب"مقابر الأحياء" لما تشهده من بيئة عزل تامة عن العالم الخارجي، من خلال ارتفاع أسوار سجونها، وكونها مُحاطة بالأسلاك الشائكة، إضافة إلى أبراج المراقبة، ومساحتها الضيقة بحيث يخصص للمُعتقل حوال متر ونصف المتر في الغرفة المزدحمة أساسًا، ولا تدخلها الشمس، مع ارتفاع حرارتها الّتي لا تطاق، واستخدام الضوء أغلب الوقت داخل المكان، والأهم

---

[186] دقة، *صهر الوعي*، 28.

[187] الناشف، "إما قاتلًا أو مقتولًا،" : 83.

[188] يتمتع هذا السجن بالسرية التامة، ولا يعرف حتى الآن عدد المعتقلين فيه. يحكي أحد الأسرى الذي تم تحريره بعد ذلك بأنَّهم كانوا يقومون بتشغيل مكيفات الهواء الباردة في الشتاء وفي الصيف العكس، ويحكي بأنَّه اضطر لأكل قشر البيض لعدم وجود طعام كافٍ، ويوجد في هذا السجن فلسطينيون ولبنانيون وإيرانيون ألقي القبض عليهم خلال الاحتلال العسكري لجنوب لبنان، وقد أعلنت "لجنة أنصار السجين في مدينة الناصرة" وجود 15 أسيرًا مفقودين يرجح وجودهم في هذا السجن. لمزيد من التفاصيل أنظر: سلوى يحيى، "ماذا تعرف عن السجون الاسرائيلية في دولة فلسطين،" لمزيد من التفاصيل أنظر: *ساسة بوست* (2015) (استخدم بتاريخ (2019/10/20)< https://www.sasapost.com/israeli-prisons-in-palestine/ >.

هو الاستخدام المفرط للتعذيب أثناء التحقيق، وتخصص هذه السجون بالعادة للمعتقلين بأحكام عالية[189].

في حالات بعض السجون يكون المكان الّذي يقام فيه السجن وسيلة تعذيب بحد ذاتها، مثل سجن شطة حيث الحرارة المرتفعة والّتي تصل في فصل الصيف لأكثر من 40 درجة مئوية، إلى جانب الغرف الصغيرة، وتنتشر فيه الزنازين الانفرادية الّتي يزج بها المعتقلون الفلسطينيون. وسجن بئر السبع أو الّذي يعرف باسم سجن "إيشل" حيث تبلغ مساحة المعتقل أكثر من كيلو متر مربع وقد أقيم عليها تسعة أقسام رئيسية وقسمين فرعيين آخرين[190].

تمارس السجون أيضًا بموقعها الجغرافي وسيلة إرهاب ورعب على الأسرى؛ نتيجة لتواجد قاعدة عسكرية، أو ميدان تدريبي عسكري، أو مخزون أسلحة قريب من السجون، مما يسبب حالة من الإرباك والتوتر الدائم، الناتج عن الأصوات والحركة المستمرة؛ مثل معتقل قدوميم والنقب الّذي يقع في محيط معسكر "للجيش الاسرائيلي" ولا يبعد المعتقل عن مخازن الأسلحة الثقيلة والذخائر في هذا المعسكر سوى أمتار معدودة بالإضافة إلى أنه يوجد بجانب المعتقل حقل رماية نارية يسبب فزعًا دائمًا للأسرى على مدار الساعة بسبب إطلاق النار وصوت الانفجارات المتتالية بالإضافة إلى تشكيله خطرًا على الأسرى[191].

مؤخرًا عمدت إدارة السجون إلى زرع أجهزة تشويش في محيط السجون، بحيث لا تبتعد عدة أمتار عنهم؛ بحجة أنَّ الأسرى يمتلكون هواتف للاتصال بالخارج، وهذه الأجهزة سببت الكثير من المشاكل

---

[189] منقذ محمد أبو عطوان، *مأسسة الحياة الاعتقالية للأسرى الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية 1967-2005* (رام الله: جامعة بيرزيت، 2007): 18-24،

[190] ما خفي في السجون أعظم،" *السودان اليوم* (2018) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/20) <https://alsudanalyoum.com/?p=189271> .

[191] المصدر السابق.

النفسية والجسدية للأسرى، حيث بدأ الأسرى يشتكون من أعراض وأمراض لم تكن موجودة قبل زرع أجهزة التشويش، مثل قلة النوم، والقلق، والصداع، وآلام الرأس وتسارع في ضربات القلب، إضافة إلى مشاكل في السمع، وهذه المشاكل تتزايد في السجون الّتي زرعت فيها أجهزة تشويش متطورة[192]، فهذه التقنيات الّتي يستخدمها المستعمِر بحججه الأمنية، تهدف إلى إماتة جسد الأسرى ببطء، أو بأدنى تقدير قتل وظائف جسده، وإضعافها عن القيام بمهامها الأساسية.

تسعى المنظومة الأمنية "الاسرائيلية" إلى جعل السجن مكانًا يُمارس التعذيب دون تدخل السجّان ودون أدوات التعذيب، فظروف السجن وحدها كفيلة بتفاصيلها أنّ تُشكل تعذيبًا نفسيًا وجسديًا على الأسرى، ففي سجن عوفر، والّذي يُطلق عليه السجناء اسم "غوانتانامو" نظراً لسوء الأحوال فيه حيث يعيش في كل خيمة من خيامه 30 أسيرًا يعانون من نقص الطعام والملابس (لا سيما الداخلية) وسوء الرعاية الصحية. وسجن "أنصار3/ كتسيعوت" حسب الاسم الصهيوني أو "أنصار 3" حسب الاسم الفلسطيني، هو السجن المقام في صحراء النقب، وهو ليس أحسن حالًا من "عوفر"، فهو حار جدًا في النهار وبارد جدًا في الليل، ويعاني هذا المعتقل من المشاكل ذاتها في سجن "عوفر"، إضافة إلى وجود الحشرات والزواحف، ووجود حمام واحد لكل عشرين معتقلًا في خيمة واحدة[193].

السجن أُعدَّ لاستمرار إهانة الأسير وإرضاخه وإحكام السيطرة عليه، من خلال جعله ينشغل بهذه التفاصيل اليومية الروتينية الّتي تقهر روحه، وتسعى إلى تقليص دائرة السجين الحياتية، ومنعه من التواصل مع العالم الخارجي حتى لو كان ثقافيًا، فالمطلوب تعطيل ذاكرته وحصر وجود دائرة اهتمامه

---

192 "إعلام الأسرى: أجهزة التشويش الموزعة في سجون الاحتلال تسبب اضرارًا صحية للأسرى،" *مكتب إعلام الأسرى* (2016) (استخدم بتاريخ: 2019/11/12) <http://asramedia.ps/post/1392/files.php>.

193 ما خفي في السجون أعظم،" .

فقط بتفاصيل السجن الصغيرة، وحظر التفكير، لأنَّ التفكير الحر "يمكن أنّ يمس أمن الجمهور والدولة والعالم، وربما يعتبر ارهابيًا[194].

هذه التفاصيل الّتي تُصبح كل جزء من تشكيل يوم الأسير ووعيه أيضًا، سواء من حيث الرائحة أو التهوية في السجن، أو من حيث برودة المكان وخشونة الجدران والرطوبة، والابتعاد كثيرًا عن المنطقة الّتي يسكنها الأسير حيث تترك تبعات سلبية كثيرة على الأسير[195] ، كما سوء المعاملة، ولا انسانيتها، والتعذيب المهين، والإذلال والتنكيل، والقسوة المفرطة، والّتي يمكن التعبير عن قسوتها باستشهاد 72 أسيرًا فلسطينيًا نتيجة للتعذيب منذ عام 1967[196]، بالإضافة لتوثيق حالات كثيرة تسبب لها التعذيب بالشلل والأمراض الجسدية الخطيرة، والّتي سيتم توضيحها أكثر في القسم اللاحق حول التعذيب.

إنَّ كافة الاجراءات والتفاصيل الّتي تُشكل مفهوم السجن في وعي الأسرى، يمكن وضعها في إطار مفهوم التعذيب القانوني الّذي يُعرّف التعذيب كونّه: "إساءة المعاملة/المعاملة القاسية واللانسانية والمهينة"، بالإضافة إلى كونَّ السجن منظومة متكاملة من العلوم الطبيعية والإنسانية المعرفية الّتي تهدف إلى حصر الأسرى سعيًا للتأثير في وعيهم وتجربتهم، فالسجون "الاسرائيلية" تسعى إلى ممارسة أقسى العقوبات الجسدية والنفسية على الأسرى الفلسطينيين، سواء من خلال وسائل التعذيب والاستجواب والتحقيق، أو من خلال الموقع الجغرافي الّذي يتم فيه بناء السجون، أو طبيعة وظروف السجن والاعتقال، واستدخال التكنولوجيا في تصميم السجون، وشكل البناء أيضًا.

---

[194] سعدات، *صدى القيد*، 84

[195] لمزيد من التفاصيل، أنظر: أبو هلال، مصدر سابق. وتقرير هيئة شؤون الأسرى لعام 2018، مصدر سابق.

[196] Look: Palestinian Political Prisoner in Israel Prisons, *Adameer Prisoner Support and Human Right Association* (January, 2014), (1/4/2019). <http://www.addameer.org/files/Palestinian%20Political%20Prisoners%20in%20Israeli%20Prisons%20(General%20Briefing%20January%202014).pdf>.

سياسة العزل والمراقبة داخل السجون

في عام 1967 لجأت "اسرائيل" إلى ممارسة الاعتقال بحثًا عن السلاح أو تجميع الملفات الأمنية الّتي تركتها السلطات المصرية والأردنية، وبدأت بمطاردة المقاومين بعد أشهر قليلة من الاحتلال الجديد، ولاستيعاب هذا العدد الهائل من الأسرى في أشهر قليلة تم اللجوء إلى القانون البريطاني (قانون الطوارئ) الّذي كان يطبق على كل شخص تشتم رائحة انتمائه إلى المقاومة أو الاحزاب السياسية، مهما كان شكلها وسواء توفرت ضد الفلسطيني بيانات تمكنها من تقديمه للمحاكمة أو لا، فإذا لم تتوفر فسياسة الاعتقال الاداري موجودة، وتحل مكان السجن بمحاكمة[197].

هذه الاجراءات وفي إطار تفكير مسبق لممارسة عملية الإبعاد، كما جرى عامي 1970-1971 من إبعاد لمئات المقاومين إلى الأردن، ومع اتساع نطاق المقاومة وتبلورها ازداد بشكل تصاعدي عدد المعتقلين الفلسطينين والعرب، وتنفيذًا لهذه السياسة لجأت مصلحة السجون إلى سياسة (العزل) مدة أشهر طويلة، والهدف منها استمرار التحقيق مع المعتقلين، وكانت مراكز الشرطة داخل الخط الاخضر والموروثة من الاستعمار البريطاني والسلطات المصرية والاردنية وبعض السجون العسكرية تستخدم لتنفيذ هذه المهمة، وكان أبرز هذه المعتقلات في البداية صرفند وعتليت والنبي صالح العسكرية[198].

يولد العزل داخل السجن مشاعر الانقطاع عن الحياة، حيث يعتبر العزل عبارة عن غرف صغيرة أكبر مساحة لها 1.5 -2.5 متر، فيها إضاءة معتمة، ورطوبة خانقة، ويتم تحديد الفورة لساعة أو أقل وتلغى في أحيان كثيرة، وتتم المداهمة في كثير من الأوقات ورش الغاز واستخدام الضرب واستفزاز

---

[197] سعدات *صدى القيد*، 25-26.

[198] المرجع السابق، 27.

الأسرى، بالإضافة إلى جود الحشرات والزواحف الّتي تخرج من المرحاض الموجود في وسط الغرفة دون عوازل، ولا يوجد الّا شباك صغير جدًا للتهوئة ومغطى بصفائح حديدية[199].

يهدف العزل الانفرادي إلى التدمير العصبي والمنهجي للأسرى؛ من خلال منع الاتصال مع المحامي أو مع العيادة أو مع الأهل، فالعزل الانفرادي تقطيع لكل الروابط بين الأسير المعزول ومحيطه الاجتماعي الاعتقالي والخارجي، وقد يتم في أي لحظة مصادرة الكتب والأوراق وكافة مقتنيات الغرفة البسيطة والأولية في أي وقت، كما ويتم قطع المياه في أي وقت أو قطع الكهرباء، وبعض الأسرى المرضى الّذين يتم عزلهم، يتم تكبيلهم لفترات طويلة على السرير، ولا يتم فك قيدهم إلّا عند الذهاب لقضاء حاجة أو تناول الطعام، فتتحول غرف العزل إلى منطق لإبادة وتصفية الأسير، وهزيمته، وإضعافه، وتحويله إلى جسد يعاني من الكثير من الاضطرابات النفسية والسلوكية، وغالبا أنَّ الأسرى الفلسطينيين السياسيين الفاعلين والمؤثرين ثقافيًا والملهمين عسكريًا ما يكون قد تم اصدار قرار باغتيالهم، ووقوعهم بالأسر يعني أنَّ هنالك طرق ووسائل ممنهجة لتصفيته واغتياله[200].

بالإضافة إلى المراقبة الدائمة داخل السجن نفسه وتقسيم السجن إلى غرف وأقسام، حيث أنَّ مجموعة من الغرف تشكل قسم، أو مجموعة من الخيم تشكل قسمًا، وهذا التقسيم يساهم في السيطرة والمراقبة على أدق التفاصيل داخل الغرفة/ الخيمة منفردة، وأيضًا تساهم في إشعار الأسير بالعجز، وقدرة السلطة على تسيير حياته، وعدم معرفته لمصيره ومصائر الأسرى الاخرين[201].

ما يتيحه نظام المراقبة، هو تفادي الأسرى ككتلة بشرية جماعية، ولذلك تعمل على تقسيمهم، حيث كل واحد محبوس في مكانه يرى المراقب وجهًا لوجه، إنَّه مرئي ولكنه لا يُرى، إنَّ انعدام الرؤية هذا هو

---

[199] المرجع السابق، 33.

[200] المرجع السابق.

[201] جابر، *السجن "الاسرائيلي"*: 25.

ضمان النظام، فلا خوف من وجود مؤامرة لمحاولة هرب جماعية أو مشروع للمواجهة، والأثر الرئيسي للمستشرف (بانوبتيك) هو الإيحاء للمعتقلين بوجود حالة واعية ومتواصلة من رؤيتهم لهم ومراقبتهم، مما يؤمن وظيفة السلطة الأوتوماتيكية[202].

تؤثر الرقابة الدائمة على المعتقلين حتى ولو كانت متقطعة وغير دائمة في عملها الفعلي، بحيث أنَّ هذه المراقبة تصبح مع الوقت داخل الأفراد، حيث يقوم المعتقلون بمراقبة أنفسهم، فهذا الجسد الهندسي للسجن الّذي يحقق المراقبة بصورة مستقلة عن الشخص الّذي يُمارسها إلى درجة أنَّ المعتقلين يتحولون إلى حاملين لهذه السلطة يمارسونها على أنفسهم[203]، هذه المراقبة الشمولية على الأسرى تسعى إلى تحقيق "إبادة سياسية" من خلال العزل الّذي يمنع تشكيل ثقافة وطنية أو يحاول دثرها من خلال الاقصاء، وهدم الروح المعنوية للأسرى بإمكانية تنفيذهم خطط للهروب أو مقاومة سياسات عنصرية وانتهاكات معينة[204].

دور المؤسسة الطبية والقضائية في العقوبات السجنية

السجن "الاسرائيلي" مكان تعمل بداخله المنظومة الصهيونية الأكاديمية والأمنية والطبية والقضائية، كبنية تستمر في ابتكار أساليب وأدوات للعنف واستخدام القوة، بحيث يصبح السجن مكانًا لتحطيم المقاومة، وكسر شوكة الأسرى وفعلهم المقاوم، وإنكار عدالة قضيتهم، وعَمِلَ مختصون في العلوم الإنسانية والأنثروبولوجية والأمنية والطبية في بلورة هذا المكان بشكل يفرض سيطرة ورهبة على الأسرى قبل وصولهم إلى زنازين التحقيق، ليضمن الجهاز الأمني "الاسرائيلي" وصول الأسير منهزمًا، مذهولًا، يستسلم ويُسلم كل ما يملك من معلومات، ويبدي استعدادًا للتعاون.

---

[202] دقة، *صهر الوعي*، 34-35.

[203] المرجع السابق، 35.

[204] المرجع السابق، 30-31.

في السجن تحضر كل التخصصات المعرفية كوسائل تعذيب وإهانة للأسرى، وتساهم في إحكام السيطرة عليهم؛ فإنَّ قوة المعرفة الطبية وتخصصها، يمكن أنّ توظف للتسبب بالأذى، فالجهاز الطبي يؤدي وظيفة وكيل المراقبة والإشراف والضبط والسيطرة، كما ومنح مجتمع الاخصائيين في مجال الصحة السلطة ليحكموا ويعاقبوا، ويقدموا الترخيص الطبي لاعتقال السجناء في السجن الانفرادي والعزل، والاطباء النفسيين كذلك قدموا وجهات نظر طبية للمحكمة لإكمال حالة العزل[205].

الاطباء "الاسرائيليون" متورطون في التعذيب والمعاملة القاسية للمعتقلين والسجناء المحتجزين بصورة خاصة من خلال: تجاهل وإهمال الشكاوي حول التعذيب والمعاملة القاسية، وعدم منع المحققيين من استكمال التحقيق، وإخفاقهم في توثيق الشكاوي السابقة والحالية حول التعذيب الّتي يقدمها المعتقلون والسجناء، واخفاقهم في تقديم تقارير عن شبهات حول التعذيب أو المعاملة القاسية، ونقلهم معلومات طبية سرية إلى المحققين المشتبه باستخدامهم طرق تحقيق تعتبر تعذيب أو معاملة قاسية، وتقديمهم ترخيصًا طبيًا مباشرًا أو غير مباشر لممارسات مؤذية لصحة الأسير[206].

عدا عن سياسة الاهمال الطبي من خلال سوء الطعام من حيث عدم نظافته وكفايته ونقصه للقيمة الغذائية، وعدم مراعاة الأسرى المصابين بالأمراض المختلفة مثل السكري والضغط، واعتماد الأسرى بشكل كامل تقريبًا على الكانتين والّتي هي مصاريف من أهلهم للشراء من دكاكين السجن، بالإضافة لمنع الاستحمام لفترات طويلة مما ينتج عنه انتشار الأمراض الجلدية والأوبئة، ونقص الأغطية والألبسة، والحرمان من النوم بسبب ظروف السجن جميعها، والحرمان من العلاج، وعدم توفر علاج يتناسب مع الالتهابات المزمنة والأزمة الصدرية، وأمراض العيون الناتجة بالأساس من طبيعة

[205] روحاما مارتون، "من الشخصي إلى السياسي: تورط الأطباء الاسرائيلين في تعذيب السجناء ومعاملتهم القاسية،" *عن التعذيب*، 14،13.

[206] المصدر السابق، 14.

الاضاءة، وقرحة المعدة والأمراض العصبية، بالإضافة إلى أنَّ الفسحة أو الفورة غير مناسبة وتشهد اكتظاظًا كبيرًا، وهيَّ حارة جدًا في الصيف وباردة في الشتاء ولا يوجد فيها ما يراعي حالة الأسرى[207].

ككما ويُساهم القضاء والقانون في تكثيف وظيفة السجن وشرعنتها، من خلال شرعنة عملية الاعتقال ذاتها سواء بشبهة أو غير شبهة، وفي شرعنة العنف والتعذيب داخل زنازين التحقيق والاستجواب، والثقة بأقوال المحققين، والرد على شكاوى الأسرى حول تعرضهم للتعذيب الوحشي، إما بأنَّ هذا لم يحدث على أرض الواقع، أو أنَّ هذا التحقيق تم حسب الاجراءات المُناسبة[208].

وصلت نسبة التوقيف للفلسطينيين في السجون الاسرائيلية 36.5% وهي مرتفعة إذ أن أي نسبة تزيد عن 30% عادة تكون مؤشرًا على خطأ ما، وهذا يعني أنَّ القضاء لا يعمل، أو أنَّه يعمل ببطء[209]، وهذا يؤشر أيضًا على خضوع الجهاز القضائي للجهاز الأمني وضروراته الأمنية، وأنَّ سياسة الاعتقال تتزايد بشكل متسارع بين الفلسطينيين، سواء في ظل وجود "أحداث أمنية" أو في الأوضاع الهادئة نوعًا ما، وهذا يعد مشاركة للقضاء في سياسات التنكيل في الفلسطينيين من خلال الاعتقال.

السجن الصهيوني هو سلسلة متكاملة وممنهجة من إلحاق التعذيب على الجسد الأسير الفلسطيني، ليصنع له ذاكرة ألم تُعيد تذكيره بلحظات الاعتقال الأولى، هذه السلطة والقوة الّتي تطال جسد المقاوم، وتوقع به آلام لا يمكن للجسد والذاكرة نسيانها، فآلية التعذيب في السجون تنتهج مبدأ صناعة الذاكرة الحية واليقظة للأسير، ومنعه من النسيان، بزرع كل مفاصل السلطة وجعلها تتشكل في يومه وفي نومه، وفي حاجاته وفي حقوقه المستلبة، فالسجن بكل تمثلاته هو عقاب آخر غير العقاب الّذي يحاول المستعمِر إجبار الأسير على دفعه بالسجن مقابل فعله الثوري، وهذا العقاب هو الحصر والعزل

[207] أبو هلال، *أولست إنسان*، 58-67.

[208] ايريت بالاس، "أنظمة الحصانة،" عن *التعذيب*، 46.

[209] مانفريد نوفاك، "الكلمة الافتتاحية: التعذيب في القرن الواحد والعشرين استنتاجات من عملي مقررًا خاصًا للتعذيب في الأمم المتحدة،" عن *التعذيب*، 31.

عن العالم، وتعزيز المراقبة على كافة سلوكيات الأسير، ومن خلال مواعيد السجن ونظامه الّتي لا تهدف "للإصلاح والتأهيل" وإنَّما تُعد شكلًا من أشكال فرض السلطة والسيادة على الأسرى، والتأكيد المستمر على هيبة السجن وعنفه وسطوته على الأسرى.

هذا النظام السجني هو بنية سلطوية محوية، تحاول باستمرار انتزاع أفكار المقاومة من داخل الأسرى، ومحاصرة أفكار الأسرى وقدرتهم على صد الممارسات والانتهاكات الّتي يتلقونها من إدارة السجن، بتوصيات أمنية وطبية وقضائية، وعلى السجن الاستمرار بشكله وأدواته في إضعاف جسد الأسير، حتى إماتته ببطء وبصمت، دون إحداث ضجة، تظهر كأنَّها موتة طبيعية، ولكن عند تشريح هذا الجسد وفق المركبات الّتي حكمته وفُرضت عليه قسرًا، فيتبين كيف لعبت الإضاءة ولون الجدران، ورائحة الغرف وعفونة الملابس والهواء، وقذارة المكان، وتدخلات السجان، ومهاجمة الوحدات الخاصة للزنازين أثناء فترات الراحة، والاهمال الطبي المتعمد والتسبب به، ومنع الزيارات والاختلاط داخل السجن بين الأسير وعائلته، ومشاعر الاشتياق للأهل والمجمع، ومشاعر القهر من الوضع الّذي يعيشه والحال المُفترض أنّ يكون به، هذه المركبات التفصيلية جميعًا، وغيرها الآلاف أيضًا قد سببت هذه "الموتة الطبيعية" المحو الصامت للأسرى داخل السجون الصهيونية.

رحلة التعذيب هذه والقهر هيَّ استمرار لمحاولة كسر الأسير، وإعادة بناء هذا الكسر وفق رؤية صهيونية، جسد ضعيف معزول، يهتم بتفاصيل حياته الخاصة، دون أنّ يُشارك بما هو سياسي، ودون تبنيه لفكر وأدوات المقاومة والحق السياسي والتاريخي، إجبار الأسير على التفكير فقط بعواقب وتبعيات المقاومة، وهذا ما يحاول "الاسرائيلي" القيام به مع الأسرى منذ اللحظة الأولى للاقتحام والاعتقال، والمواجهة مع الزنازين، والمواجهة أيضًا مع غرف الاستجواب والتحقيق، والّتي سيتم الحديث فيها في الفصل اللاحق.

الفصل الرابع: قراءة في أدوات المحو والمقاومة داخل زنازين التحقيق

مقدمة

يهدف هذا الفصل إلى تحليل محاولات المحو الفيزيائي والرمزي للأسرى الفلسطينيين في المعتقلات "الاسرائيلية"؛ من خلال دراسة الكيفية الّتي تؤثر بها أدوات "التعذيب/ سوء المعاملة/ المعاملة القاسية/المهينة" على تجربة/ وعي الأسرى، ومن جهة آخرى كيف يقاوم الأسير الفلسطيني عملية المحو من خلال جسده، بمكونات الجسد السياسية والثقافية والدينية، ومن خلال الذاكرة، بالإضافة إلى المقاومة من خلال المواجهة الواعية مع الآخر "المحقق"، ومن خلال تعبيرات الجسد العفوية.

إنَّ إبادة الفلسطيني آلية واستراتيجية استعمارية "اسرائيلية" والّتي لا يمكن التعامل معها باعتبارها أحداث متفرقة، وأيضًا ليس على أساس أنَّها ردة فعل أو وليدة اللحظة، بل هيَّ بنيوية ومنظمة ومخطط لها، وهيَّ تتكثف وتتشكّل بصور مختلفة، وهذا التغير لا يعني انتهاءها، بل أنَّها كُثفت وطّورت للتعامل مع تحول آليات استخدام الجسد في المواجهة والمقاومة[210]، لذلك فإنَّ التحولات الّتي حدثت في أدوات أساليب الاستجواب والتعذيب، وسوء المعاملة/المعاملة القاسية، تستند بالأساس إلى سؤال كيف يمكن للاستعمار "الاسرائيلي" من خلال أدواته التعذيبية خلال لقاء الاستجواب والمواجهة الجسدية، تطويع جسد الأسير الفلسطيني وفضاءاته، وهدم الوعي الجسدي للأسرى، لبناء وعي آخر غير مقاوم، وغير منتج معرفيًا من جهة، ومن جهة آخرى هدم قدرات الجسد للحيلولة دون ضلوعها في أعمال المقاومة، والأهم هدم نفس وروح المقاومة داخل الذوات الفاعلة، والبحث عن آليات لتسكينها.

---

[210] الناشف، "إما قاتلًا أو مقتولًا،": 82.

لا يختلف التعذيب قبل عام 1999 وبعده، حيث أنَّ الهدف ما زال واحدًا، هو إماتة الوعي الجسدي للأسرى، أو إماتة الجسد، وبالمناسبة هذان المفهومان يمثلان الوجود الفلسطيني، في النهاية الهدف هو محو هذا الوجود الفلسطيني بأيّ أسلوب أو سياسة كانت، وعلى الرغم من أنَّه في هذا العام صدر قرار باستخدام الضغط الجسدي المعتدل والضغط النفسي، واستخدام المعاملة القاسية في (دفاع الضرورة/ القنبلة الموقوتة[211]) أي حالة استثناء، إلّا أنَّه يجب فهم أنَّ محاولة "اسرائيل" في جانبها القانوني عدم استخدام كلمة "تعذيب" واستبدالها بـ"المعاملة القاسية/ سوء المعاملة/ المعاملة اللانسانية والمهينة" الّتي تحاول أنَّ تعارض وجودها في القانون، لا ينفي أنَّ هذه الممارسات تُعد تعذيبًا ولها هدف واضح وهو تصفية الأسير وثقافته، وتصفية المقاومة.

[211] أقرّ القاضي أهارون باراك عام 1999 استثناء يسمح للمحققين باستخدام التعذيب، وأطلق على هذا الاستثناء اسم "القنبلة الموقوتة"، أي بحال علم المحقق بوضوح أن هناك عملية فدائية على وشك الحدوث ويتوجب منعها واحباطها، بإمكانه نزع المعلومات ذات الصلة باستخدام وسائل عنيفة لإنقاذ الكثير من الأرواح.، وبهذا فإن محققي الشاباك الذين نكلوا بمن تم التحقيق معهم تحت مسمى "القنبلة الموقوتة" معفيون من المثول أمام القضاء، فقد منح هذا الاستثناء الشرعية الضمنية لمثل هذه الأعمال الخطيرة، على النقيض التام من روح القانون الدولي الذي لا يعترف بوجود استثناءات بسياق حظر التعذيب والتنكيل، في الفترة التي تلت القرار، طرأ انخفاض في عدد التّقارير عن حالات التعذيب والتنكيل خلال تحقيقات الشّاباك؛ إلا أن محقّقي الجهاز واصلوا استخدام أساليب تحقيق يمكن وصفها بالتنكيل والتعذيب تحت رعاية اعتراف القُضاة بالاستثناء المسمّى "قنبلة موقوتة"، كما لم يستخدم هذا الإجراء في حالات فريدة واستثنائيّة فقط، بل سرعان ما أصبح جزءًا من سياسة التّحقيق المتّبعة، وعقب قرار المحكمة الذي أقر استثناء "القنبلة الموقوتة"، سُن قانون "جهاز الأمن العام" عام 2002 الذي يحدد الإطار القانوني لممارسات الشاباك، ويذكر أن اقتراح القانون شمل بندًا يسمح للشاباك باستخدام العنف الجسدي بالتحقيقات، وتم تمرير القانون من دون البند المذكور، بالمقابل أُدرج هذا البند في قانون مكافحة الإرهاب. في قرارات المحاكم الاسرائيلية حول التعذيب، وتحديدًا عام 1999، حيث شرعنت المحكمة الاسرائيلية العليا التعذيب من خلال عدم تحديد وتوضيح "دفاع الضرورة" الّذي يُبيح استخدام التعذيب غير القانوني، هذا التعذيب غير القانوني الّذي اعتبر وعرَّف التعذيب داخل السجون "بالضغط الجسدي المعتدل، والتعذيب النفسي" وهكذا فإنَّ أيّ شكوى تعذيب تقدم لا ينظر فيها إما لأنَّ التعذيب مشرع في هذه الحالة، أو لأنَّ شكل التعذيب الّذي استخدم كان مسموحًا به،اقرت المحكمة بوجود حظر قانوني مطلق على ممارسة التعذيب أو المعاملة القاسية، إلّا أنَّ المحكمة حين نظرت في بعض وسائل التعذيب واتخذت قرارها الّذي يحظر استخدام التعذيب، لم تقر أنَّ تلك الوسائل الّتي تم استخدامها ومن ثم حظرها تشكل تعذيب، مثل الهز العنيف/ الشبح/ قرفصة الضفدع/ الحرمان من النوم أثناء التحقيق، تقرر أنَّها ممارسات غير قانونية تشكل سوء معاملة ولكن دفاع الضرورة يبيحها لمزيد من التفاصيل: أنظر: خلود أبو أحمد، "التعذيب في "اسرائيل" قانون فضفاض ومساءلة متواطئة،" *العساس* (2019) (استخدم بتاريخ 2019/11/2) < http://alassas.net/4375/?fbclid=IwAR0aHJBvMjA1ynxSBAJJWT2tBseLUVVIMkcUaOqnroIYYHhdn0oKDx8tjYA >.

ينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة محاور تُجمل الكيفية الّتي تحاول بها وسائل التحقيق والاستجواب محو الوعي الجسدي الوطني والثقافي للأسرى الفلسطينيين، واستبداله بوعي آخر منهزم، بالإضافة إلى الكيفية الّتي يقاوم بها الجسد الأسير هذه المحاولات.

المحور الأول: الألم الجسدي والتعذيب

يبحث هذا المحور في أثر الألم الّذي تستدخله آلية التحقيق إلى جسد الأسير الفلسطيني، من خلال استخدام أدوات تحقيق ذات طابع ألم جسدي، وآخرى ذات طابع ألم نفسي، يستهدفان في النهاية محو قدرة الجسد على المقاومة، ومحو الوعي الفاعل للأسرى من إعادة التشكل كوعي مقاوم؛ وذلك من خلال محاولات هدم هذا الجسد داخل زنازين التحقيق، وإعادة تشكيل جسد آخر خاضع ومنهزم، ومستسلم وخائف وهو الأهم، لأنَّ هذه الأجساد عندما تُقرأ ثقافيًا تَصبح مؤشرًا لعملية الضبط العفوية والداخلية للأفراد الفلسطينيين الآخرين من خلال هذا الجسد المُعذَب، وهذا ما يطلق عليه فوكو (مجتمع الانضباط).

من جانب آخر، سيناظر هذا المحور بين مقاومة الأجساد ووعيها لعمليات المحو المكثفة داخل زنازين التحقيق، مما يعطي معان وتعابير مختلفة لهذا الألم الجسدي الّذي تحاول المنظومة الاستعمارية الاستيطانية كاملة طبعها في ذاكرة ووعي وجسد الأسير، وبالتالي فهذا يُعطينا قراءة آخرى للأسير الفلسطيني داخل غرف التحقيق، بعيدًا عن تمثيل دوره كضحية معزولة لا تملك أي أداة من أدوات المقاومة الّتي تُساهم في الحفاظ على الحدود الأساسية من كرامته الشخصية، كما أنَّ هذا المحور لا يُمثل الأسير الفلسطيني في دور الأسطورة الّتي لا تُهزم، إنَّما يؤكد على الفرق في القدرة على الاحتمال والمواجهة بين أسير وآخر وقدرته على إدارة الألم ومقاومته وتضمينه داخل أكوانه الثقافية، وهذا التحليل يدفع باتجاه فهم حقيقي لتجربة التحقيق والاستجواب، وكيف يعيها الأسير، لأنَّ هذا الوعي يُساهم في تفكيك زنازين التحقيق وأدواتها التعذيبية والعنيفة، وأساليب الاستجواب المختلفة الّتي

يتعرض لها الأسير، ومن ثم إعادة بنائها كما تمثلت في الوعي والذاكرة للتجربة الاعتقالية للأسرى/الاسيرات.

إنَّ عملية إدراك الألم الّتي يتعرض لها الأسير في زنازين التحقيق تُساهم في فهم الألم كتجربة فيزيائية وذهنية وعاطفية، وذلك أنَّ خبرة/إدراك الأسير وقدرته على التكيف "مع وسائل وأدوات العنف" تلعب دورًا في تشكيل هذه التجربة الجسدية، ويعرِّف جاكسون الألم بأنَّه خبرة جسدية وعاطفية وعقلية، وبالتالي فإنَّه عند ربط المعنى بالألم يُصبح جزءًا من تجربة الألم، وهذه التجربة الّتي يُقدمها الجسد ليست كما هيَّ في الحقيقة، ولكن كما تذكرها الجسد وأدركها، فذاكرة الجسد هيَّ شيء نحن تشكلنا من خلاله[212]، وهذه التجربة هيَّ المواجهة بين ذاتية الأسير وبين أيديولوجيات التحقيق والمحققين الأمنية والشخصية المختلفة.

الاقتحام والمداهمة

يتحدث بعض الأسرى في كتابة تجربتهم الاعتقالية حول تجربة التحقيق/التعذيب منذ اللحظة الأولى الّتي يتم فيها إبلاغ الأسير أنَّه مطلوب "للمخابرات الاسرائيلية"، وبعضهم الآخر تبدأ تجربة التحقيق بالنسبة لهم منذ لحظة مداهمة المنزل أو الاعتقال عن الحواجز، أي أنَّ تجربة الألم والمقاومة لدى الأسير تبدأ قبل المواجهة مع زنزانة التحقيق، وحتّى أنَّ زنزانة التحقيق تُعد أحيانًا مرحلة نهاية الألم/العزل بالنسبة لهم.

ترافق عملية الاعتقال من خلال اقتحام منازل الفلسطينيين العديد من الممارسات الّتي تنتهك حقوق المعتقل الفلسطيني، سواء بالاعتقال التعسفي الّذي لا توضح فيه التهمة للمعتقل حيث يتم اعتقاله والتحقيق معه وتحويله للحكم الإدراي، أو من خلال الانتهاكات القانونية والحقوقية أثناء المداهمة؛ مثل

212 Elise Johnsen, “Pain as Counterpoint to Culture: Toward an Analysis of Pain Associated with Infibulation Among Somali Immigrants in Norway,” *Medical Anthropology Quarterly* 16 (3) (2002):313-315.

التفتيشات العارية، والممارسات المهينة، ومداهمات المنازل في منتصف الليل واستخدام أفراد الأسرة للضغط على الأسير[213].

تشكل عملية الاقتحام والمداهمة لاعتقال أحد الأسرى جزءًا ومكونًا أساسيًا من مكونات التحضير لعملية التحقيق والاستجواب، وجزءًا أساسيًا من عملية التعذيب؛ سواء بالأدوات والممارسات الّتي يتم استخدامها بالقوة أثناء الاقتحام، أو من خلال الظروف القاسية والعنيفة للاقتحام.

تختلف عملية الاعتقال وحدَّتها بين وضع ومكانة أسير وآخر، وطبيعة العمل السياسي والنضالي أيضًا للأسير، ويتم دراسة هذه اللحظات بشكل يفضي إلى إرباك الأسير واحتوائه داخل هيمنة قوة وسلطة الجيش والمنظومة الاستعمارية، فهذه اللحظات مهمة في كتابة الإنطباع الأول عند الأسير وسلوكه وردود فعله، كما يدَّعي المحقق كوبي "إنَّ هذه اللحظات الّتي تشمل عنصر المباغتة والتوجه نحو المجهول، تجبر الأسير على ترتيب أولوياته (الذات/ الجماعة/ العائلة والأصدقاء)[214]"، أي وظيفة هذه اللحظات إرباك الأسير، وإجباره على التراجع والاستسلام.

تترك هذه اللحظات الكثير من الذكريات والمشاعر داخل الأسير/ة حتى بعد تحرره تقول الأسيرة رشا؛

"مداهمة البيوت وتطويقها بتسبب رعب للأسير وأهله، التفتيشات والخراب ومصادرة بعض الأمور الخصوصية، مصادرة الذكريات حتى لو كانت طفولية وهذه المصادرة أقسى من الاعتقال نفسه، كيف الأهل رح يتعاملوا مع هذا الخراب اللي أحدثوه داخل المنزل، فقدت صور الطفولة، مصادرة شاشة التلفزيون، الاعتقال مش بس اعتقال وكمان خراب، مجرد الخروج من المنزل وتقييد اليدين والقدمين وتعصيب العيون، ووضع الأسير في البوسطة والاقتياد نحو المجهول، بظل السؤال وين رح أروح،

---

[213] أبو هلال، *أولست إنسان*، 40،43.

[214] مارك بودن، "فن التعذيب الأسود،" *مجلة الدراسات الفلسطينية* 57 (2004): 3.

والاعتقال عن الحواجز ما بتقل رهبة عن الاعتقال من المنزل اعتقلوني مرتين على الحاجز، وبتفكر بسؤال واحد شو موقف الأهل إنَّه ابنتهم طلعت وما رجعت".

هذه التساؤلات والذكريات الّتي تعبر عنها الأسيرة رشا، هيَّ بالتحديد ما تحاول عملية الاقتحام والاعتقال وسّمه في ذاكرتها، الخوف والإرباك، وفقدان السيطرة والقدرة على المواجهة، وتوجيه بصيرة وأحاسيس الأسيرة بأنَّ كل ما تملكه الأسيرة مُحاصر ومُذَل ومسيطر عليه، وأنَّ الأسيرة منذ لحظة الاعتقال تبدأ بفقدان سلطتها على أدق الأمور حميمية لها، سواء بالمساحات والحدود الّتي ترسمها الأسيرة كإنسانة لجسدها خاصة فيما يتعلق "بالمسافة بينها وبين الآخر"، والإنكشاف على الجسد، هذه اللحظات مهمة لوسم القوة وتثبيتها على جسد الأسيرة لترتبك وتضبط ردودها الانفعالية الغريزية حول الدفاع عن جسدها وذاتها وحجبها عن الآخر، وأيضًا مهمة لإهانة شخصية الأسيرة، ويقصد بهذه الإهانة السيطرة على الأسيرة وجعلها ممتثلة لأي ممارسة وإجراء قمعي.

كانت ثقة رشا بدعم والدتها لها في كافة نشاطاتها، تزيدها قوة وقدرة على التحمل، وقدرة على المواجهة أيضًا، فلم يكن التفكير في فكرة "المصير" للأهل، والمشاعر الّتي تُركت لديهم جراء اعتقال ابنتهم تسيطر على رشا، على العكس تمامًا، كانت تتصور الفخر في عيون ونفس والدتها، وكذلك تستمد الإيمان والثقة من تصورها لشقيقيها المعتقلين، والتجربة الّتي نقلاها إليها، وهذه كانت أولى الاستراتيجيات الّتي اتبعتها رشا في محاولتها لمقاومة أسلوب القمع والاعتقال الّذي واجهته، باستخدام مشاعرها الّتي من المفترض حسب الأدوات "الاعتقالية العنيفة" أنّ تحبطها، إلّا أنَّ هذه المشاعر والتصورات ساعدتها على التحضير والاستعداد لمراحل التحقيق باستقرار وهدوء وثبات.

تُضيف عائشة عودة "كانت لحظة المواجهة مع الاحتلال أثناء لحظات اعتقالي سيئة جدًا بدءًا من اقتحام خصوصيتي أثناء تبديلي لملابسي داخل المنزل، وأيضا المعاملة القاسية الّتي تعاملوا بها معي أثناء الطريق من بصق بالوجه وهز وشتائم سيئة وجنسية". إنَّ هذا العنف هو ضروري لإظهار عجز

الأسيرة، وضروري أيضًا من أجل التمهيد لاعتراف الأسيرة وذلك من خلال التأكيد على سيادة عنف وسيطرة المحققين والمنظومة الاستعمارية كاملة، وذلك لكسر مقاومة وشخصية الأسيرة، ولكن بالعادة ما تكون الأسيرة متنبهة ومدركة بأنَّ هنالك عملية مداهمة واعتقال، وتكون قد اتخذت بعض التدابير والقرارات بداخلها والّتي تساعدها على الصمود والمواجهة، وفي هذه اللحظات في حالة "عودة" وأثناء رؤيتها عن بُعد اقتحام منزلها وكان خيار الهروب متاحًا أمامها، إلّا أنَّها اختارت المواجهة، وذلك لأنَّها تعي أنَّ "الصمود ممكن/ ومجدي"، من تجارب الآخرين المقهورين في العالم.

على الرغم من الصمود والتحدي الّذي يُبديه الأسرى خلال عملية الاقتحام والمداهمة، إلّا أنَّ هذه اللحظات تترك انطباعها في جسد وذاكرة الأسير/ة والأهل والمجتمع أيضًا، شعور برهبة الجيش وقوتهم العسكرية، وقدرتهم على السيطرة والتحكم بالأسير/ة وعائلته/ا، وإذلال الأسير/ة وإهانة شخصيته/ا، وذلك بتوليد مشاعر عميقة من الخجل والدونية، وهذا يؤثر على الأسرى وعائلاتهم؛ حيث أنَّ الإذلال والإهانة شكل من أشكال الإبادة الفردية والجماعية[215]، ومفاهيم الإهانة والإذلال تبدأ بجعل الجسد بلا حماية، والسجناء تحت رحمة السجان، أنّ يبقى الجسد دون مساعدة من الخارج، وأنَّ تكون خيارات مقاومة هذا الاعتداء غير ممكنة، ووضع الأسير في حالة من الضياع التام، فالأسير في لحظة الاعتقال يكون وحده دون إمكانات الدفاع، وهذا يجبر الأسير/ة على فعل الأشياء الّتي يحتقرها بشدة، يجب عليه/ا الامتثال لأمر القوة، ويجب أنّ يوافق/توافق على الاجراءات الّتي تهدف إلى تدمير سلامته/ا الشخصية واحترام ذاته/ا، وكسر فخره/ا[216].

---

[215] Meike Vorbrüggen, MD, Hans U. Baer, “Humiliation: The Lasting Effect of Torture,” *Military Medicine*, Volume 172(2), (November 2007) < https://doi.org/10.7205/MILMED >.

[216] Ibid.

يشارك الأسير طارق تجربته في الاقتحام؛

أنا لما تم اعتقالي في اللحظة الأولى يلي حاصروا فيها البيت .. كان عندي قرار أول ما وقعت قنبلة الصوت جنبي إنَّ أنا بديش اعترف، نقطة، فكان أول اختبار للقرار من خلال البلفون، من خلال التحقيق الميداني كانوا بدهم البلفون تاعي وبدهم أغراض خاصة، وأجا أبوي قال إنَّ إنتَ كان معك بلفونات ولازم تسلمهم، وهدول بهددو فينا يهدوا البيت، سلم الأغراض خلينا نخلص، فهان كان أول اختبار، المواجهة مع أبوي قبل المحقق، فلما أجا ابوي وهو مكلبش وصار يقلي إنتَ خلص بدك تدمرنا، وهم قلوله لأبوي لما دخلنا الدار كنا بنعرف شو في مع إبنك وشو كان لابس، في وقتها خلص أول واحد واجهتو أبوي، فكسرت كل إشي اسمو عواطف، وقلتلو لابوي إنتَ واحد كذاب أنا مفش معي اشي، وقتها تدخل ضابط الشاباك وقلي ليش بتحكي مع أبوك بهيّ الطريقة، قلتلو ما الك علاقة، هلا هون خلص بما إني رحت مع أبوي على الحيط وأنا كنت حزنان على أبوي كيف واقف بينهم، خلص لما طلعت بالجيبات أقسمت يمين، أنا كنت بدي اتبنى الموقف بشكل قدسي عشان هيك اقسمت يمين إنَّ فش اعتراف.

يُعد الشعور "بالعار" الّذي يظهر كنتيجة لإهانة كبار السن وخاصة الأهل، من التجارب الذاتية الواعية الّتي تُنقش داخل الفرد بشكل عام، وداخل الأسير/ة بشكل خاص، وكذلك شعور الذنب والإحراج، فهذه المشاعر عبارة عن إحساس مؤلم وواعي حول ذنب ما أو خطأ، وكذلك هو شعور يظهر عند تعرض الأسير/ة لما تحثنا الطبيعة أو الحياء على إخفاءه[217]، فليست عورة الجسد هيَّ ما نُخفيها ونقاوم ظهورها فقط، وإنَّما مواجهة العلاقات الأسرية وقدسية مرتبة الأم والأب أيضًا، والّتي تم تجاوزها وكسر حدودها كما حدث مع الأسير طارق في مواجهة الاقتحام، وعلى الرغم من تدخل ضابط الشاباك إلّا أنَّ هذا هو المقصود، التأكيد على الفروق القيمية حول منهجية عمل قوات الاقتحام والاعتقال، وحول أخلاقيات الجيش وطهارته بعدم استخدامهم للقوة والعنف، والتعامل مع الأسرى ضمن الاعراق والقوانين الانسانية، وإشعار الأسير في كل وقت بأنَّه قد أساء لعائلته، فبشكل مقصود ومبطن يُجبَر الأسير على هذه المواجهة مع عائلته من أجل إفقاد الأسير قدرته على المقاومة، وإنهاك روحه، وتدمير

[217] Ibid.

شخصيته الاجتماعية والسياسية، فهذه المشاعر ستبقى للأبد بداخل الأسير/ة، قد تدفع هذه المواجهة فعليًا إلى ضمور روح التمرد ونزعة المقاومة، ولكن ما حدث فعليًا هو رد الفعل العكسي مع التحقيق وآلياته وأشخاصه، فهذه التجربة زادت من الرغبة في المواجهة والتحدي، حيث أنَّ الاعتراف أمر خارج الحسابات كليًا، وتم تضمينه داخل إطار مُقدس آخر أعاد بناءه الأسير طارق بعد تجربة القمع الّتي فككت أول علاقة مقدسة في حياة الأسير طارق (الأهل)، فإنَّ هذا التفكيك وإعادة البناء لدى الأسير هيَّ عملية تناظر نشطة وحيَّة مُواجِهة لعملية المحو وإعادة الإنشاء الّتي تسعى إليه ممارسات السلطة المتمثلة بالقمع والقوة والعنف بكافة أشكاله الّتي تُمارس منذ أولى عمليات الاقتحام وحتى انتهاء التحقيق.

إنَّ المواجهة الّتي يفرضها شكل الاقتحام على البيوت، يجعل من الأسير في موقف محرج أمام العائلة الّتي تعرضت للاقتحام في منتصف الليل من جهة، وتهديد الأهل أو ضرب الأسير أمام نظرات الأم، هذه المواجهة يشعر الأسير أنَّه يحمل جزءًا كبيرًا من مسؤولية عملية الاقتحام، يقول الأسير خالد"أنا كنت متجوز جديد، مرتي عمرها ما شافت جيش، تخيلي شافتهم عندي في نص الدار!"، هذا عدا عن مشاعر الخوف من الاعتقال، وفقدان أحد الأبناء، وعدم القدرة على المواجهة مع الأهل نتيجة تعريضهم لهذا النوع من الفقدان، وتعد ردود الفعل الأسرية خلال عملية الاقتحام مهمة لتحديد نقاط ضعف الأسير العاطفية والاجتماعية، من خلال تعامل عائلته اتجاهه، وتعلقه وتعامله مع عائلته أيضًا، فهذه اللحظات تحدد إذا كان سيستخدم أحد أفراد الأسرة كوسيلة لإخضاع وإضعاف الأسير، أم أنَّ هذه العائلة هيَّ مصدر قوة يجب عزل الأسير/ة كليًا عن أي محاولة لتذكرهم.

في هذه اللحظات الكثير من الأهل يكونون الدعم الأول لإبنهم، ويسمعونهم عبارات الصمود، يقول الأسير أحمد "أبوي قلي وأنا طالع اصحك تعترف، اصحك تحكي اشي"، الأهل الّذين في الغالب لا يعلمون شيئًا عن مقاومة أبنائهم، لكن في اللحظة الّتي توضع فيها الأكبال في يد الأسير، يصبحون

جزءًا من الفعل النضالي، سندًا لابنائهم، ويعطونهم الطمأنينة، وهذا الأمان يُصبح موقعًا مُفعلًا للصمود أثناء التحقيق والمواجهة، يتم استخدامه وتفعيله تلقائيًا عند الشعور بالخطر على أحد أفراد الأسرة، أو عند الوصول لنقطة الهزيمة والاعتراف، فيقول الأسير طارق "أبوي كانت عنده مشكلة إنَّ ما بحب يتمشكل مع الناس، ولا حد يعايره، هيّ كانت أزمة أبوي في الحياة، ما نسببله مشاكل مع الناس، وهذا كان سبب ثاني إنَّ الاعتراف ممنوع بعد ما كسرته قدام الضابط".

يشارك الأسير أحمد كذلك تجربته حول اللحظات الأولى للاعتقال؛

للحظة الاعتقال لما أجو يوخذوني كنت متوقع إنّهم رح يجو يوخذوني، كان في اعتقالات كثير في المخيم، وكانوا ماخذين كثير من صحابي، صحيت على صوت تطبيل عالي على الباب قمت أول واحد وصحّيت كل أهل الدار وطلبت من أبوي يفتح الباب عشان أقوم ألبس، والجيش سألوا أبوي كم ولد عندك قال اثنين، قلوا ناديلي اياهم، أنا وديت أخوي وبلشت أجهز أخر التجهيزات، وطبعًا أنا من أول يوم عرفت صرت أحط بوط لزيق لأنّي بعرف إنّهم بوخذو الحبل تاع البوط، وكانت الدنيا برد لبست جكيت دافي، وطلعت .كبلوا إيدي ومسكوني من كتفي وجروني، مسكوني من كتفي اليمين ومن كتفي الشمال، ليلة الاقتحام صار في ضرب على الجيش، عصبولي على عيني وشحطوني شحط، لوصلت عند مفتاح العودة، وجراي على المعكسر، بعدين بالمعسكر أجا كابتن حط رقبتي بين إيديه وراسي تحت أباطه، وسألني عن اسمي جاوبته، وبعدين اسمك الرباعي، وأنا كنت بعرف إني أنا لازم أجاوب على قد السؤال بالزبط وما أعطي أي معلومة زيادة، وبعدين صار جدال على موضوع العمر، مسكني وقلي اسمع يلي بتعلمش من عصاة موسى بتعلم من عصاة فرعون ويلي بتعلمش من عصاة فرعون المخابرات الاسرائيلية بتعلمه، حطوني في جيب والشخص الثاني يلي اعتقلوه في جيب ثاني، وبعدين نزلني من الجيب وأعطاني حبة دوا، وأنا ضليت أرفض أخذ الدوا، بعدين خطرلي إنَّ هيّ حبة لازم أخذها عشان هم رح يبروخوا في كتل وعشان محسش فيهم، فأخذتها زي الحلاوة، رجعوني على الجيب وصاروا يغنوا في ذاني وأنا معصَّب عيوني وحطوا التلفون في إيدي وهو عليه أغاني بصوت عالي، وأنا كنت قارئ إنَّ ما تتكاوحش معهم ولا تستفزهم لأنَّ هم هيك بدهم عشان أوكل كتل، بالجيب كنت قاعد ومعصب ومكتف وحاط إيدي بين رجلي عشان ما يضربوني على المنطقة الحساسة.

يتحدث الأسير هنا حول تجربتين متداخلتين شكلتا وعيه وتجربته قبل دخول زنازين التحقيق، الأولى تتمثل بتقديره ومعرفته بأنَّ اعتقاله هو مسألة وقت، وذلك لأنَّ غالبية محيط علاقاته الاجتماعية تم اعتقالهم، بالإضافة إلى تواصله مع مؤسسات الأسرى الّتي أخبرته بوجود اعترافات عليه متعلقة بمواضيع معينة، هذه المعرفة الّتي اكتسبها الأسير أحمد جعلته يندفع بنهم نحو التثقيف حول التجربة الاعتقال من خلال قراءة التجارب الّتي كتبها الأسرى، والحديث مع أسرى سابقين، ليكون التحقيق بالنسبة له مسرحًا واضحًا لا يوجد غموض فيه، بالإضافة إلى تحضيره جملة من الملابس المسموحة حتى يحافظ على الحد الأدنى من السيطرة على جسده من الإنكشاف والتعرية، ولكن كان مشهد الاعتقال في منتصف الليل ومحاصرة المنزل، هيَّ التجربة الحقيقية الّتي لا يستطيع فيها الأسير تفعيل جميع خبراته المكتسبة، ويبدأ جسده بكتابة تجربة جديدة متصارعة بين جسده كمُعتقَل وبين جسد القوة والعنف، وهذا لا يعني أنَّ تجربة الاقتحام مختلفة، لكن يختلف تأثيرها ووقعها على الوعي والتجربة من أسير إلى آخر.

يتحدث الأسير هنا عن تجربة عاطفية وسياسية، فمشاعر الخوف الّتي رافقته منذ اللحظة الأولى لمعرفته أنَّه معرَّض للاعتقال (لأَّنه مطلوب للمخابرات)، أصبحت المشاكل تتفاقم في حياته، سواء مع عائلته الّذين لم يكونوا يستطيعون التواصل معه لأنَّ الأسير لم يعد يستخدم أي وسيلة اتصال، ومشاكل العودة المتأخرة إلى البيت، ومشاكل في عدم القدرة على اتخاذ قرار التسجيل في الجامعة، هنالك الكثير من المشاعر المربكة أعترت الأسير قبل عملية الاقتحام، فقد كان يُفكر في شيء واحد "متى رح يجو يوخذوني، خليني أسكر هالقصة"، الانتظار للاقتحام لم يخفف من حدة المفاجأة والإرباك للمواجهة مع هذه المنظومة العنيفة.

التجربة الثانية كانت المواجهة مع القوة الجسدية، والّتي يحاول الجيش استخدامها متقصدًا في هذه اللحظات لإخضاع الأسير/ة وقمع أي فكرة/ ممارسة مقاومة، أو حتى رد العنف الموجه له، ولذلك تم

تثبيت رأسه للأسفل وتكبيل يديه وقدميه، فلا يستطيع الأسير/ة أنَّ ينظر بتحدي أو قوة أو صمود في عيني الضابط، ولا يستطيع الأسير/ة أنَّ يبادله البصق والشتائم الّتي وجهت له، فهذه الإيماءات محجوبة عن رؤية الضابط الّذي يسعى فقط لترسيم حدود السيادة والقوة على هذا الجسد، ولا يكتفي العنف والقمع بإثبات سلطة جسد على آخر، وإنَّما يبدأ الخطاب الاستعلائي، "والدور الأبوي بتعبير الأسير خالد"، حول وظيفة المخابرات "الاسرائيلية" بتربية هذا الأسير الفلسطيني الّذي لم يتعلم بالموعظة ولا بالضبط من أجساد الآخرين، فعليه أنّ يكون جسدًا محكومًا/معذبًا ليضبط الأجساد الآخرى.

تجربة الأسير عبدالله كانت مختلفة؛ حيث أنَّه تعرض للاعتقال مرتين، في المرة الأولى لا يتذكر الكثير عن هذه التجربة إلّا إرباكه من سلطة وقوة الجيش ولحظة الاعتقال نفسها، وذلك لأنَّه كان متوقعًا الاعتقال من جهة، ومن جهة آخرى لم يتم استخدام العنف الّذي من الممكن أنّ ينقش في وعيه، أما التجربة الثانية كانت تجربة مختلفة كليًا؛

بالاعتقال الثاني اشي مختلف بصير في حضور للقوة أكثر والدفاشة، وهذا بعتمد على المعلومات يلي عندهم، ومعلومات الجيش إنت بتتعامل مع شخص خطير أو مش خطير، الاعتقال الثاني قوات خاصة لغموا الدار حوطوها، دخلوا علي بطريقة همجية، وضرب يعني مسألونيش إنت مين، كان في جنبي شخص، مرقوا عنه وأجو عَلَيّ وبلشو ضرب فيّ، هلا أول واحد أجا كان معو اشي زي ترس ومسدس ضربني بالترس في وجهي والمسدس في راسي فوقعت، بعدين صار ضرب جماعي منهم كلهم، قدام أهلي، صار كل الضرب في الشارع باب الدار، وصاروا يسألوني عن سلاح ويطخوا من فوق راسي، كان واصلهم معلومات إنَّ عندي سلاح، فدخلوا على الدار صار في تحقيق ميداني، تحقيق ميداني يعني ضرب، يعني إنت عندك سلاح في البيت بدك تجيبها، كيف بدك تجيبها نحن بنعرفش، كلبشوني وحطوني على الأرض وحط البسطار على وجهي وصار يدعس علي ويضرب وين السلاح، ثلاث ساعات تحت الضرب، راحت عندي أنا القرنية لما طخ عند راسي دخلت شظية جوة عيني وراحت القرنية، قعدت الشظية 60 يوم وأنا في المسكوبية، ما عالجوني، بعد المسكوبية رحت على المستشفى كانت القرنية رايحةالمفاجأة بالاقتحام بتحطك قدام

خيارات يا بتوقف ما بتعمل شي يا بتهرب يا بضرب، فأنا قمت ضربت خلال الاقتحام الثاني، بالاعتقال الثاني خفت، مكنتش أعرف كان مفاجئة، بس أنا اليوم بخاف من الجيش من السجنة الثانية، لأنَّ هم ضبعوني .. لأنّهم ضربوني، لحد ما وصلت المعسكر والضرب شغال، وانفتح راسي 6 قطب من الضرب، أنا اتأذيت ونضربت ضرب قلت بجوز مطلعش منه، أنا قلت فيها موت، توقعت جايين يصفوني وخلص، وصارت تجيني تخيلات يرمي لسلاح عندي ويطخني والسلام عليكم، فحتى تفاجئت إنّي ضليت عايش واعتقلوني وتوقعت أنزل إداري، استغربت إني كمان رحت ع التحقيق.

إنَّ ممارسة الاعتقال بهذا العنف الواضح والمباشر يقوم على تفكيك عوالم الشخص الثقافية وكسرها، تجعل الأسير كجسد لا يشعر إلّا بالخوف المسيطر عليه، ويمكن فهم هذا بأنَّ الألم الحاد الشديد لا يتأثر بالنماذج الثقافية أثناء تجربته المباشرة للتعذيب، فإنَّ تجربة الألم الشديد هيَّ تجربة مضادة للثقافة، فالألم الّذي تنطوي عليه الندوب والتشوهات والكسور على الرغم من كونه مضمنًا في المعنى الثقافي إلّا أنَّه يُهدد هذه الأكوان الثقافية، فيبدو أنَّ هذا الألم الساحق يهدد معنى الحياة نفسها، وتساهم (المدة/الشدة/ اللامعنى) في تجربة المواجهة هذه، فتصبح هذه التجربة غير مشروطة ومرتكزة على الثقافة، فهذا الألم يجبر الفرد على التشكيك في القيم الثقافية الأساسية، حتى في الحياة نفسها وهذا ما يقر أنَّ الألم الساحق (هو نقطة مضادة للثقافة)[218].

في حالة الأسرى الفلسطينيين، إنَّ هذا الألم الشديد يستمر في إنتاج معانٍ ثقافية في كل لحظة يشعر فيها بالألم، فالألم مسببه واضح ومتشكل داخل الوعي الجسدي الفلسطيني، وهذا الألم بالنسبة للأسرى ليس نتيجة أو رد فعل اتجاه عمل ما قاموا به، بل هو تحصيل حاصل لكونَّهم مستعمَرين فلسطينيين، وهو نوع من مجموعة من الالام الّتي يتشاركها الكل الفلسطيني، وهذا بدوره يخفف من وطأة الألم

[218] Johnsen, “Pain as Counterpoint to Culture,”314.

الجسدي الحاد، ليتم استيعابه في إطار الألم الجمعي الفلسطيني من جهة، وأنَّ احتمال هذا الألم ومواجهته جزء من المقاومة الفلسطينية.

لاحظ كلينمان أنَّ تجربة الألم المفرطة لا يمكن تجنبها ببساطة، إنَّها تجربة تضع حدودًا للمعنى الّذي تُعطيه المعتقدات أو الخطابات أو الممارسات الثقافية، تصبح الحياة على المحك، وهذا الألم يُصبح تهديدًا هائلًا لشرعية العالم اليومي[219]، حيث أنَّ هذا الألم المتمثل في الجروح والتشوهات يُرافق الأسير حتى بعد تحرره، ويُعد التعبير عنها مستحيلًا؛ حيث يملؤها الصمت على الرغم من اللغة المستخدمة، فلا يمكن ترجمة احتباس الدموع والتردد في حديث أنس أثناء محاولة سرد كيف أصيب في عينه، "يبتلع ريقه باستمرار مقاومًا الهزيمة والانكسار وشعور الألم مرة آخرى، وكذلك إشارته إلى رأسه مكان التشويه من الجرح الّذي حدث في تلك اللحظات، يُريد أنّ يجعلني أراها، لا يمكن الحديث عنها ووصفها، فقط رؤية الألم ولمسه هيَّ الوسيلة في توصيفها، "هذه التجربة من الصعب كتابتها في لغة، لأنَّ الألم يمكن الإشارة إليه ولكن لا يمكن قول حقيقته" وتقول بيبتيت أنَّ الألم لا صوت له ولا لغة، ولا يمكن اختزاله في حقيقة موضوعية[220]"، وهكذا يمكن فهم لماذا لم تستطع الأسيرة إسراء جعابيص التحدث عن ألمها في المحكمة، وعند سؤالها عن "الأوجاع الّتي تُعاني منها، قالت: في أكثر من هيك وجع!، الوجع مرئي ! باين عليّ، تسأل الصحفية إسراء مجددًا: أصابعك ؟ إيديك؟ فترفع اسراء يديها فش أصابع[221]" لا يمكن الحديث عن الألم، يمكن رؤيته ولا يمكن توصيفه ولا تحليل العملية الّتي يتشكل فيها بكل تعابير الجسد والتعبير عنه، ومحاولات الإشارة إليه، تُشير سولهايم إلى أنَّ علوم

---

[219] Ibid.

[220] Consuelo Rivera-Fuentes and Lynda Birke, “Talking With/In Pain: Reflections on Bosies Under Torture,” *Women Studies International Forum*, (2001) < https://www.academia.edu/2897396/Talking_with_in_pain>.

[221] "الأسيرة إسراء جعابيص داخل المحكمة بتاريخ 2018/1/11). *يوتيوب* < https://www.youtube.com/watch?v=6o0ZCz4RCu8>.

الجسد تميل إلى التعبير عن نفسها بشكل رمزي، في عمليات جسدية ملموسة للغاية، وبالتالي علينا أنّ نبحث في أفعال جسدية ملموسة "دع الجسد يتحدث عن نفسه[222]".

هذه اللحظات الّتي يحكيها الأسرى كجزء من تجربة التحقيق، تعبر بشكل واضح عن الآلية الّتي يسعى بها الجهاز الأمني والاستخباراتي "الاسرائيلي" في إيصال الفلسطيني لهذه المرحلة الّتي يقول فيها "أنا اليوم بخاف من الجيش، أنا إذا قاومت بدمر أهلي، أنا حطيت أهلي في موقف محرج" تحميل الفلسطيني ثمن ما يحدث معه ومع عائلته من اقتحام وعنف، هذا هو الهدف الّتي تسعى قوة وعنف المستعمِر خلال الاعتقال إلى تحقيقه، من خلال استخدام وسائل مختلفة ومتعددة مرتبطة بجمع معلومات حول الأسير سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا، ويتم بناء على هذه المعلومات وضع الاستراتيجيات الأولى لكسر ذاتية الأسير وتطويقه بسيادة الجيش والقوة.

إنَّ هذا الوعي الّذي تحاول الآلية الاستعمارية استدخال الفلسطيني فيه، هو الاحتواء داخل الهيمنة والقوة الصهيونية، سواء من خلال وسائل القوة والعنف الّتي يتم استخدامها أثناء الاقتحام، باستخدام التوقيت الّذي يشعر فيه الإنسان بالخصوصية والحميمية أثناء منتصف الليل، أو من خلال استخدام قنابل الصوت والمطاط، أو تطويق المنزل وكسر الباب، انتزاع الأسير من بين عائلته بالقوة، وضربه بشدة أمام نظر عائلته، جميعها ممارسات ممنهجة بدقة لكسر إرادة الأسير وتفكيك وعيه، وتفكيك عوالمه الّتي تُغطيه بهالة من الصمود، والّتي تُعتبر مهمة لوسم السلطة على الجسد منذ البداية.

المواجهة الأولى مع الزنازين

إنَّ المواجهة الأولى مع مراكز التوقيف، تُدرس بعناية فائقة؛ فهيَّ تشغل دورًا في الإخضاع والقمع، فالاعتقال عملية مكثفة من التفاصيل الّتي تهدف إلى كسر الفلسطيني وإرهابه، وتطويعه أثناء المواجهة

---

[222] Johnsen, “Pain as Counterpoint to Culture,”.

مع المحقق للاعتراف، تقول الأسيرة رشا "مرحلة مريرة في أول تجربة، في الجلمة، كنت بسمع فيها بس ما بعرفها، شكل البناء الضخم بمجرد ما تتطلع عليه بتحس بالرهبة، بتفكر أنا شو جابني هان، شو في لقدام، بمجرد ما تشوف مبنى السجون من برة بتدخل مرحلة جديدة من الخوف"، إنَّ كون السجون والمعتقلات مراكز بعيدة عن الأماكن السكنية، مخفية، ومسوَّرة، فهيَّ محجوبة عن الرؤية، فالذهن لا يكون قادرًا على وضع تصور واضح عن شكل المكان وداخله، وكيفية نظامه وتوزيعه، يقتبس وليد دقة في مقاله حول صهر الوعي مبدأ عمل الزنزانة من فوكو: "إنَّ هذا النظام يعكس مبدأ الزنزانة الثلاث .. الحبس، والحرمان من الضوء، والإخفاء[223]" إنَّ السجن يحقق وظيفة الإخفاء بشكل أساسي عن المجتمع والمجموعة السياسية الّتي شكلت الأسير، وبالتالي فالهدف من هذا البناء هو كسر العلاقات والروابط الّتي تنتظم داخل الأسير وتفككها وبالتالي تشتيت الأسير وارباكه، لتحويل المواجهة أثناء التحقيق مع الأسير كفرد واحد بذاته وبحواسه وغرائزة، لجعل التجربة والألم تجربة فردية، وذلك لتسهيل السيطرة على الأسير، فالمكان هنا من المؤسِسَات المركزية الّتي يعتمد عليها تجهيز الأسير ليكون خاضعًا ومنهزمًا في التحقيق.

يقول الأسير أحمد؛

أول ما وصلنا عند عصيون، قلي "شييف" كلمة بالعبري، كنت أتذكر واحنا صغار كنا نحكي للكلب شييف، وهييك دارتلي إني لازم أقعد، ولما دخلنا ع المعسكر خلاني أشلح كل أواعيي، وأعطاني ورقة أوقع عليها. وأنا رفضت أوقع لأني معرفتي بتقلي ما أوقع ولا على أي ورقة، وبعدين عرفت إنَّ هيَّ الورقة للأمانات ومع ذلك ما وقعت، دخلت على غرفة الأواعي ولبست قميص وبنطلون كثير وساع بوسعو لثلاث أشخاص على الأقل، وكانت ريحتهن كثير سيئة ما قدرت أنام ثلاث أيام كاملات بعدين صارت ريحتي وريحة الأواعي وحدة فنمت.

[223] دقة، *صهر الوعي*، ص34.

وكذلك تجربة الأسير طارق الّذي يقول؛

أثناء تبديل الملابس جابولي ورقة عشان أوقع، ولما ما رضيت أوقع، وأنا ما كنت لابس ولا اشي، عاري تمامًا، قلي نزل إيديك لتحت بدنا نفتشك، ولما نزلت إيدي ضربني كف قوي، أنا كردة فعل رديت ضربته، وبعدها يلي متذكرة إنَّ ضرب اشي زي "الأزعاكاة" جهاز إنذار، شفت ناس كثير لابسة أزرق وهجموا عليّ، أكلت كتلة مرتبة يومها، ويلي بضحك بالموضوع إنّي لما صحيت ما فكرت بالكتلة، فكرت إنَّ شو الفرق بين يلي أجو ضربوني، كلهم لابسين نفس اللون الأزرق بس بدرجات، فقعدت أفكر بالاختلاف بالألوان، وكمان أنا كنت بورطة حقيقية أنا عاري يا بدي أوخذ أواعي وأوقع، يا بدي أظل هيك.

أسوء ما يحدث في الاعتقال حين يصبح جسد الأسير مستباحًا للرؤية، ينزع ملابسه مرغمًا أمام مجموعة من الجنود والشرطة، ليأخذ ملابس آخرى بالية وبرائحة عفنة، سهل انتزاعها عن جسد الأسير، هذه الحدود الموجودة والّتي يحاول الإنسان المحافظة عليها دائمًا تُصادر منه في أول لقاء داخل السجون، تمهيدًا لفكرة السيطرة على الجسد، ولون اللباس ونوعه، وطعامه فيما بعد، ومواعيد نومه وصحوته، تبدأ معركة السلطة على الحدود الشخصية الّتي يمتلكها الأسير، بهدف كسر إرادة الأسير/ة في السيطرة على جسده/ا وكرامته/ا، وإجباره/ا قسريًا على معرفة أنَّ هذا المكان هو اللاقانون فيه كل شي مستباح، وتنتزع القوة والسلطة من الأسير/ة على أي شيء يخصه/ا، حتى أحلامه/ا، فإنَّ حقيقة الامتثال الكامل للأسير/ة أو إجباره/ا على الامتثال للأوامر والاجراءات تؤدي إلى تجريد الأسير/ة من إنسانيته/ا، وهذا يترتب عليه الشعور العميق بالذنب الشخصي؛ بسبب عجز الأسير/ وعدم قدرته/ا على المقاومة والانتقام من نظام الإذلال هذا، كما ويترتب على هذا الامتثال أيضًا الخسارة الكاملة للكرامة، وتدمير القدرات العقلية والنفسية، فإحدى الخصائص المميزة لهذه الإستباحة والإهانة هو أنَّ الأسير/ة يجبر/تجبر على السلبية والتصرف بعجز[224]، كما أنَّ العري يمكن أنّ يتخذ

[224] Vorbrüggen, and. Baer, "Humiliation: The Lasting Effect of Torture,"

شكلًا ماديًا أو شكلًا عاطفيًا يصبح فيه مهينًا في الوقت الّذي يتعرض فيه الأسير/ة للعري، وهو أيضًا شكل من أشكال الإذلال، وكان دليل اكيوبارك قد ركز على مفهوم الإذلال في التعذيب النفسي كونَّه يدمر شخصية وإرادة الإنسان.

لكن الأسرى والأسيرات يفسرون العجز عن حماية أجسادهم كشكل من أشكال تمثل القوة، حيث أنَّ هذه الإجراءات الّتي تسعى إلى تحويل جسد الأسرى إلى جسد أعزل وعاري تمامًا في ظل ظروف قمعية من العدو ومسيطر عليها تمامًا، تشعر الأسرى بقوتهم، وبأنَّ هنالك منافذ عديدة للاحتمال والصمود والمقاومة، وأنَّ هذا القمع ما هو إلّا خشية لمقاومة محتملة، وأنَّ الصبر والتحمل بحد تعبير الاسرى هو السلاح الأساسي الّذي يُقابل هذه الاجراءات، لأنَّها تحفظ الأسير وتمنعه من الانهيار.

يقول الأسير أنس؛

في السجنة الأولى لحظات قبل المواجهة في التحقيق بكون الواحد مشتت بفكر، وبسأل حاله: وين رايح، إذا في تحقيق شو بدي أقول، مين المحقق يلي بدو يحقق معي، شو طبيعة الزنزانة، هيّ بتمر على الخيال بشكل سريع، بفكر بقدر أصمد أو لا، رح أتعرض للتعذيب أو لا، بتصير مخاوفك كلها تلاحقك، قديش أنا بثبت حالي .. في السجنة الثانية مقعدتش ساعة في عصيون بعدين على المسكوبية، هناك المسكوبية قصة، السجنة الثانية بتكون أصعب لأنَّ الواحد طلع شاف الحرية، فبظل يسأل حاله أنا شو بسوي هان، أنا كنت في صدمة، بمرق عليه شريط السجنة الأولى أول ما يحط الكلبشات في الإيد أول شي بفكر فيه وقتيش بدو أروح، أنا هيك حسيت باللحظات الأولى.

إنَّ الجسد المُعذب لا يحتاج إلى تعذيب مرة آخرى، لأنَّه قد عُذب جسديًا ونفسيًا، وانطبع هذا الألم في البشرة والعظام، وفي ذاكرة الجسد، حيث يصبح الألم هنا جزء من الأحلام الكوابيس[225]، لأنَّ ذاكرة الألم هي ذاكرة مكثفة، ولذلك تظهر بوضوح في الأشخاص الموجودين والأصوات والروائح والأحاسيس المختلفة[226] الّتي تُؤمنها وظيفة مراكز التوقيف، ورائحة المكان الأولى والملابس، وخشونة الجدران

[225] Fuentes and Birke, “Talking with/In Pain,”

[226] Johnsen, “Pain as Counterpoint to Culture,”

والممرات، كل هذه الإشارات تُحفز الخلايا العصبية لإعادة إنتاج الألم من ذاكرة الجسد، لتأمين إنضباطه أثناء التحقيق.

إنَّ مقاومة الأسرى لقمعية الزنازين خلال المواجهة الأولى مع مراكز التوقيف والتحقيق، وقبل البدء بعملية التحقيق، لا تعبر عن نفسها إلّا من خلال التصدي للاجراءات البيروقراطية والإجبار على التوقيع على "ورقة الأمانات[227]"، وتتم المقاومة من خلال رفض التوقيع على أي شيء داخل السجن، والثانية الضرب الّذي يوجه لهم يتم مقاومته والرد عليه حتى لو كان الثمن عنيفًا أكثر، لكن طبيعة المكان وحالة الإخفاء والعزل، ورائحة الرطوبة، والإضاءة، وخشونة الجدران وخفوت ألوانها لا يمكن مقاومتها، إنَّها تستخدم الجسد كوسيلة عقاب، حيث أصبح العقاب يستخدم الجسد كأداة أو وسيط، والّذي يُعد دائمًا نوعًا من تدبير الألم الجسدي، هكذا بقي عمق "تعذيبي" ضمن الآليات الحديثة للعدالة الجرمية – عمق لا يمكن السيطرة عليه تمامًا، ولكنه مغلف، بصورة تزداد اتساعًا، بمعاقبة ما هو غير جسدي[228].

تسعى هذه المراحل الّتي تسبق المواجهة في زنازين التحقيق، إلى جعل آلية العلاقات تنتظم انتظامها الآلي؛ بتحويل العالم نفسه إلى آلة كبيرة تتبع قوانينها الخاصة؛ فالسجن نظام بصري مرئي قبل أنّ يكون صورة حجرية، كما أنَّ هذا المكان "السجن" موقع استمد هندسته، وتوزيع الامتلاء والفراغ فيه، الممرات والحجر، مراكز الرقابة، كلها مجهزة بشكل قادر على تُهيئة عملية إنتاج الجسد المنضبط والمنصاع قبل الدخول إلى زنزانة التحقيق[229].

---

[227] الورقة الّتي تُوضح أنَّ الأسير ترك ملابس وعددها وصفاتها، ويأخذ ملابس وأغطية بدلًا منها خاصة بنظام السجن.

[228] فوكو، *المراقبة والمعاقبة*، 57.

[229] الصفدي، "مأسسة الإنسان الإنضباطي"، 8،7،6.

زنازين التحقيق

تُصمم غرف التحقيق لتعزيز العلاقة الكولونيالية، المحقق حُرّ ويأكل وجبة لذيذة ومشبعة، والأسير مُقيد جائع ونعس[230]، فهذا اللقاء بين الذات والآخر له دور في تكوين ذاتية الأسير، فالوعي الذاتي يتشكل من خلال مواجهة الآخر والاعتراف به[231]، ولهذا يُبدي الشاباك جهدًا مضاعفًا في معرفة الفلسطينيين من أجل تطوير وسائل وأساليب الاستجواب، وكيفية احتواء المقاومة الفعالة لتقنيات الاستجواب من قِبل الأسرى، فالتركيز في التحقيق ليس على الجسد فقط، بل على الإرادة أيضًا[232]. لأنَّ التحقيق هو نتاج المفاهيم السياسية والثقافية "الاسرائيلية" والفلسطينية المختلفة للتعذيب، وللألم والجسد[233].

يؤمن لقاء الاستجواب الّذي يجمع بين المحقق الحر والأسير المُقيد صراع داخلي للأسير، حول هويته كشخص يُهان، الأمر الّذي يحول هذا الصراع إلى تدمير قدرة الشخص على العيش في علاقات صحية ووثيقة مع الآخرين، ويبقيهم محبوسين داخل تجربتهم[234]، حيث يسعى المحقق من خلال الظروف المهينة واللاإنسانية والعنيفة الّتي يجبر الأسير على معايشتها من خلال تجربة الألم، على إعادة ترتيب علاقاته الداخلية، فالتعذيب من أجل إضعاف كل من جسد الفرد، والجسد الفلسطيني العام وإرادته، وكسر رغبته في المقاومة[235]

هنالك وسائل تعذيب/تحقيق تستهدف محو قدرة الجسد وإضعافها، وترك ندوب على الجسد وفي الذاكرة، وهذه الوسائل على الرغم من منعها إلّا أنَّها تستخدم ضمن استراتيجيات معينة بحيث تبدو

---

230 Meari*, A Philosophy of Confronting Interrogation,* 1.

231 Ibid, 4.

232 Ibid, 16.

233 Ibid, 21.

234 Vorbrüggen, and. Baer, “Humiliation: The Lasting Effect of Torture,”.

235 Meari*, A Philosophy of,* 28.

وكأنَّها ليست تعذيبًا محظورًا، ومن هذه الوسائل الشبح، والثلاجة، والاستحمام بالماء البارد والساخن جدًا، والحرمان من النوم والطعام لفترات طويلة، حيث تُرتب هذه الأدوات بطريقة تهلك الأسير، وتحقق لحظة من الانهزام أو الضعف أو السقوط، تسعى لتهيئته للاعتراف والإدلاء بالمعلومات، أي معلومة كانت، ولأنَّ "القانون الاسرائيلي" الخاص بتحديد ساعات منع النوم لمدة 37 ساعة متواصلة، فإنَّ المحقق يقوم بمنع الأسير من النوم لمدة 35 ساعة مثلًا حتى لا يضطر إلى مخالفة القوانين أو استصدار إذن من المحكمة لممارسة هذا النوع من التعذيب، ويتم وضع الأسير بعد 35 ساعة حرمان من النوم في الزنزانة لمدة ثلاث ساعات للنوم، وخلال هذه الفترة يُنقل الأسير من زنزانته أكثر من مرة، ويتم إزعاجه بالطرق على الباب أو الصراخ، أو الاستدعاء للاستحمام، وتُعد هذه الوسيلة فتاكة بوصف الأسرى سواء في كتابة تجربتهم أو روايتها شفويًا، حيث يصل الأسرى لحالة لا يستطيعون فيها التركيز في أي شيء، وهذا ما يسعى له المحقق الحصول على المعلومة في اللحظة الّتي يبدأ فيها الأسير بالهلوسة دون وعي وإدراك منه، ولكن الكثير من الأسرى أيضًا قالوا، بأنَّ دماغهم في مرحلة التحقيق كان يعمل مثل مطحنة الأفكار، أساسًا لم تكن الأسئلة الموجودة داخل رؤسهم تسمح لهم إلّا بالتفكير واليقظة والتركيز.

هذا التعذيب يكون الجسد مادته بالأساس، إرهاق الجسد وتشويهه، ووضع ندبة عليه، يتذكرها الأسير كلما نظر إلى جسده، كما حصل مع البرغوثي حين تذكر في آخر مواجهة له مع المحققين في اعتقاله خلال انتفاضة الأقصى، عملية التعذيب الأولى الّتي تعرض لها، وشارك فيها ثلاثة محققين عام 1976 مازال يذكر اسماءهم حتى اليوم، ومن وسائل التعذيب هذه الشبح والضرب والشتم والإهانة والتهديد، بالإضافة إلى وضع كيس خشن أسود على رأسه لساعات تفوح منه رائحة كريهة وتعرقل تنفسه وتمنعه من الرؤية وتشتت تركيزه. إنَّ وجود المحقق "عوفر" والّذي كان يُدعى "غزال" أمام البرغوثي بعد 15 عامًا، جعله يتحسس جسده بشكل غير واعٍ ليتلمس ألامه، وتنبه أيضًا البرغوثي في

ذكرياته إلى أنَّ هذا المحقق هو من أجبره على خلع ثيابه كاملة وفتح ساقيه وضربه بقوة كبيرة على أعضاءه التناسلية حيث أنَّه فقد وعيه من الألم، واختتم المحقق هذه الجلسة من التعذيب بعد أنّ أيقظوه برشق الماء في وجهه، وقال المحقق له: الآن اعتقد أنَّك لن تستطيع إنجاب الأطفال، ستحرم مدى الحياة من إنجاب الأطفال، لأنَّ أمثالك لن ينجبوا سوى المخربين والقتلة.

فالألم منقوش عقليًا وعاطفيًا وجسديًا، وهنالك تغييرات مادية ملحوظة في تكوين الخلايا العصبية الّتي تنقل مشاعر الألم، والّتي تخفف أو تزيد من نقل رسائل الألم، وبالتالي فإنَّ محفزات الألم الجديدة أو المواقف المشابهة للحلقات المؤلمة السابقة تُعيد تنشيط وتجديد تجارب الألم المُجسدة[236]، فالألم الظاهر ينشِّط الألام المُجسدة الّتي يحملها الأسير داخل جسده وروحه.

هذا الألم الظاهر والمجسد يمكن مقاومته كما فعل البرغوثي؛ بإدخاله داخل معناه الثقافي، والّذي يعني إحالة هذا الألم إلى الجسد الجمعي الكامل للفلسطينيين، الّذين يتشاركون في نفس المصير والمشروع، فهذا الألم يتحول بهذه الطريقة، ويأخذ تعبيرات وأشكال مختلفة من ضرورة الصمود والمواجهة والبقاء، كما والاستمرارية في الفعل، الأمر الّذي يعني بأنَّ أدوات التعذيب هذه لا تُحدث الألم المطلوب منها، وإنَّما الألم الّذي يسمح الأسير بإدخاله على جسده، من خلال تفكيكه وإعادة صناعته كشكل من أشكال المقاومة، "وهذا ابداع في التجربة الشخصية لفهم الألم وإدراكه[237]".

يتحدث الأسرى حول تجربة التعذيب الجسدي الّذي يسعى لإنهاك الجسد تمامًا؛ لتجهيزه للاعتراف، أو إذا رفض الاعتراف فتجهيز الجسد لمعاناة دائمة من الألم؛ ومنها أسلوب الشبح، الشبح الّذي يعني تعليق الجسد بوضعية غير مريحة، وهذا التعليق قد يكون بالجلوس أو الوقوف، أو الشبح على السرير، أو الشبح تحت المطر أو تحت الصيف الحار، هذا الشبح تعذيب وإنهاك للجسد، يقصد به

---

[236] Johnsen, “Pain as Counterpoint to Culture,”

[237] ibid

المحقق أنّ يدفع بالأسير نحو الاعتراف للتخلص من عذاب الشبح لساعات وأيام في ظروف سيئة جدًا، تقول الاسيرة رشا "أنا انشبحت يومين كاملين تحت المطر، كانت الدنيا كثير برد، الألم يلي سببلي اياه الشبح ما بقدر أوصفه" ويقول الأسير عبدالله؛

انشبحت 48 ساعة، نوم على التخت، قلت للمحقق بخبط راسي في المغسلة بفتحو نصين، قلي طيب ماشي راح جاب محققين معه وكلبشوني على التخت، طبعا الشبح على التخت وإنت مكلبش صعب، الواحد بصيبو خدران في جسمو بدو يحك ما بقدر، وأنا مشبوح طلع صرصور على الحيط وظل يمشي طول المسافة لحد ما صار فوق صدري تمامًا، ووقع على صدري، أنا خفت وما قدرت أشيله صرت أنفخ عليه

يمارس الشبح هيمنة مباشرة وواضحة على الجسد، وإذلال لجسد الأسير وذاتيته لعدم قدرته على حماية نفسه، فكثير من الأسرى تم التبول عليهم من قبل المحققين أو الحراس أثناء الشبح، أو مضايقتهم وتعذيبهم كذلك أثناء الشبح، أسلوب الشبح يُصادر قدرة الجسد على التحكم في ذاته، فكثير من الأسرى تبولوا على أنفسهم، شعروا بخيانة جسدهم لهم لعدم قدرته على الاحتمال، بالإضافة إلى عدم القدرة على التحكم بالجسد بالابتعاد بقدر الإمكان عن الأذى الّذي يسببه له الحراس أثناء التعذيب بالشبح، أو حتى الرد والمقاومة أثناء اعتداء المحققين على جسد الأسير وهو مشبوح، هذا الأسلوب يُعطي شعورًا مزدوجًا بالضعف والعجز من جهة والقوة من جهة آخرى، الضعف لعدم القدرة على المواجهة أو رد الأذى، والقوة أنَّ الأسير بعزله وحصاره واختلاف مكيال القوى كليًا بين الطرفين، إلّا أنَّه مُقيد ومشبوح حتى لا يقوم هذا الجسد المعزول والمكبل بأي فعل مقاوم.

إنَّ مخزون المقاومة في جسد الإنسان يوزع عبر نقاطه الحسية والعصبية جميعها، بشكل يُمكنها من تحفيز آحدها في حال وجود مشكلة في الآخرى، لذلك كان من المألوف أنّ أرى ابتسامة النصر والمقاومة في وجه الأسير أنس في مواجهته مع "الصرصور" الّذي سقط على صدره، بأنَّه استطاع تحديه وهو في أضعف حالاته من خلال "النفخ عليه"، وهذا أسلوب مقترن بالأسرى جميعهم، حيث أنَّ

مواجهة أصغر مخاوفهم وهم مُكبلين أو مشبوحين يمكن مقاومتها من خلال الوعي بجسدهم وكيفية استخدامه والتحكم به، حتى لو بتخبئة الوجه وإزاحته أثناء تبول أحد الحراس أو المحققين عليه، أو الضحك في وجه المحقق أثناء البصق عليه وهو مشبوح، هذه الوسائل على الرغم من بساطتها كونها لا تعتمد على ذات الأدوات الّتي يستخدمها الطرف الآخر، إلّا أنَّها كانت وسيلة لتعزيز قدرتهم على الاحتمال وعدم الاستسلام، وبالتالي تعزيز ثقتهم في أنفسهم.

يُعد الاستحمام بالماء البارد أيضًا، أو وضع الأسير داخل الثلاجة، عنف جسدي واضح، وآثار هذا التعذيب تستبطن داخل الجسد في مفاصله وعظامه، في روحه أيضًا، لقد تعرض الأسير عبدالله لعزل ثلاثة وعشرون يومًا داخل ثلاجة، لا يتم فتحها إلّا إذا قرع الأسير الباب من أجل الاعتراف، ويقول في تجربته؛

في زنزانة اسمها الثلاجة، رقمها 33، قعدت أنا فيها 23 يوم هيّ كثير سكعة، مش طبيعي السكعة، بيصير كل جسمك ثلج، بقلك السجان بس تتضايق من الزنزانة وبدك تعترف دق على الباب، أنا حسيتها كسر روس قعدت 23 يوم ما دقيت ولا مرة عشان يفتحوا، بس كنت أجننهم أظل أدق مرة بدي أكل، مرة بدي أروح على الحمام، أنا بعدين صار عندي مشاكل برجلي، ربط عندي العظم، لإنَّ يوم دخلوا على العدد، قلولي قوم على العدد مقمتش مقدرتش، رفعوني على حملات، بس هو كان بدو يكسر راسي وعظمي عشان أدق على الباب.

تعرض أنس لهذا النوع من التعذيب مقابل افشائه معلومة حول رفاقه، ولهذا فإنَّ التعذيب الجسدي والنفسي والعاطفي يُستخدم لتدمير الصحة الإنسانية، من خلال التسبب المنهجي في الألم الشديد والمعاناة النفسية، كما لتدمير هوية الأسير من خلال أنَّ يُرغم على أنّ يَصبح خائنًا لرفاقه وأيديولوجيته[238]، وهذه الأدوات ليست وظيفتها فقط إماتة قدرة الجسد الفاعلة والصامدة، وإنَّما تشمل

[238] Peter Berliner, Elisabeth Naima Mikkelsen, Anne Bovbjerg and Malin Wiking, “Psychotherapy Treatment of Torture Survivors,” International *Journal of Psychosocial Rehabilitation* 8 (2004): 85-96.

تحطيم البُعد النفسي من خلال إلحاق الأذى باحترام الأسير لنفسه، وتدمير ثقته في الآخرين، فهذه الأساليب تسعى لاستنفاذ قدرة الاحتمال وإشعار الأسير بالوهن والضعف.

يستخدم بالإضافة إلى الحرمان من النوم، الحرمان من الطعام لساعات طويلة، والحرمان من استخدام المرحاض، أي أنَّ كافة الاحتياجات الجسدية للأسير تُعلق أثناء التحقيق، بحسب المرحلة الّتي وصل إليها التحقيق، وقد تستخدم هذه الممنوعات أيضًا كوسيلة تعذيب حينما تُصبح متاحة تمامًا أمام الأسير، حيث أنَّ تقديم الطعام الجيد وبكميات كبيرة، والسماح بالنوم الكافي وتقديم القهوة والفاكهة والكولا وغيرها، تشعر الأسير بالضيق، وتجعله يفكر كثيرًا في صورته عن ذاته، وصورته في عيون الأسرى الآخرين الّذي يرونه بهذا البذخ بالنسبة لمرحلة التحقيق، وكان الهودلي قد أشار إلى أنَّ هذا الأسلوب يتبعه تخوين الأسير لذاته، وتخوين رفاق الأسير له، وبالتالي كسر جسر الثقة الّذي يربط بينهم وهم معزولين عن بعضهم، وبالتالي تسهيل عملية انتزاع الاعتراف، ولذلك في كلا الحالتين سواء الإسراف في تقديم الحاجات الأساسية للجسد أو تعليقها، يكون الهدف إرهاق الجسد والذهن ونفسية الأسير، حتى يصبح الأسير يبحث عن خلاصه، خلاصه بالاعتراف والانهزام أمام المحقق، والإقرار بالذنب.

يتعامل الأسرى في العادة مع هذا الألم والتعذيب بالإصرار والتمسك بإرادة عدم الاعتراف، فهذا النوع من التعذيب يفرض شكلًا واضحًا من أشكال السلطة، وبالتالي فالعلاقة الندية والتحدي هما ما يُديران المواجهة بين الطرفين، ويصبح الألم النفسي والجسدي نتيجة الحرمان في هذه الحالة مُحفزًا مثل مُحفزات الصمود الّتي اكتسبها وتعلمها خلال حياته الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية، هذا الألم الجسدي هو مصدر قوة واضح، ندبة تذكر الأسير بصموده وبسير التحقيق لصالحه، وعندما يخرج حرًا وحيًا من هذا التعذيب والألم لمرحلة آخرى من التحقيق، يتعلم أنَّ كل مرحلة من هذه المراحل ستنتهي، وأنَّ هذا الألم يُخيف الآخر "المحقق"، فالألم الّذي تسببه الأدوات الاستعمارية على جسد

الأسير تتحول إلى خوف وتردد لدى المحققين حول الأساليب الّتي سيتم استخدامها في المراحل المقبلة، أما بالنسبة للأسير فإنَّها تُعطيه شعورًا بالثقة بجسده النحيل والضعيف وتحثه على المقاومة، وتجادل لينا ميعاري في أطروحتها أنَّ القوة البدنية والجسدية لا يلعبان الدور الكبير في احتمال الألم، فأحمد سعدات على الرغم من ضعف بنيته الجسدية إلّا أنَّه استطاع الصمود بفضل إرادته، وكذلك الأسير أنس وطارق كان الألم الّذي يقع على أجسادهم يتم التعامل معه بوعي يرفض تقبل الألم ويرد عليه، وهذا ساهم بشكل كبير في تثبيت أقدامهم إلى نهايات التحقيق.

كما وأسلوب الضرب والركل والهز وكسر الظهر من خلال الجلوس على كرسي يشبه وضعية الموزة، أساليب لم يتوقف استخدامها مع الأسرى أبدًا، والّذي تسبب بموت أو إحداث شلل جزئي لعدد من الأسرى، أو إفقادهم لذاكرتهم، وهذه أساليب لا يمكن الشك اتجاهها بأنَّها وسائل قتل بالأساس وتصفية، وليس بالضرورة قتل الجسد يعني إيقاف حياته، فقد يشعر الأسير أنَّه ما زال على قيد الحياة ولكن ذلك لا يعني أنَّ الروح والعقل قد نجيا، هذا ما يحاول التعذيب الجسدي والنفسي تحقيقه، أنَّ يصبح من المستحيل إعادة الأسير إلى الحياة الاجتماعية والسياسية[239]. وهذا ما حدث مع الأسير أنس الّذي يعاني حتى هذه اللحظة من صعوبة في العودة إلى صفوف الدراسة الجامعية، والعمل بانتظام، ولكنَّ هذا التعذيب لم ينعكس على الوعي الوطني والثقافة الوطنية، فما زال أنس يُشارك ويساهم داخل النماذج الثقافية المجتمعية المؤسسية والبنى التنظيمية السياسية والحزبية.

إضافة إلى هذا، هناك التعذيب من خلال النقل في البوسطة، من معسكر تحقيق إلى آخر، أو الذهاب إلى المحاكم، حيث تشكل هذه الوسيلة تعذيب إضافي أخر للأسير، يُرمى الأسير وهو مُكبل على أرضية الزنزانة الحديدية الخشنة المليئة بالنتوءات، والّتي إما تكون حارة جدًا في الصيف وباردة في الشتاء، بالإضافة إلى المعاملة المهينة والقاسية داخل هذه البوسطة، سواء من خلال الركل أو الضرب

---

[239] Vorbrüggen, and. Baer, “Humiliation: The Lasting Effect of Torture,”.

أو البصق والشتائم، وإطفاء السجائر على أجساد الأسرى دون قدرة منهم على المقاومة، انتزاع القدرة على المقاومة وعجز الأسير عن حماية جسده يُعطيه شعورًا بالذل والامتهان لشخصه وذاته، وهذا الشعور يقوي لديه الرغبة بالانتقام وعدم التعاون، ولهذا يمكن أنَّ نلحظ أنَّ الأسرى الفلسطينيين بعد أنّ يخوضوا تجربة التحقيق المؤلمة هذه يكررون تجربة المقاومة، على عكس توقعات المحققين والمنظومة الاستعمارية الّتي تظن أنَّها قامت بمحو ثقافي ورمزي للحس الوطني للأسرى، إلّا أنّ تكرار التجربة يأتي في سياق استعادة الانسانية، وإعادة دمجها في الحيز السياسي كفاعلة ومسؤولة.

تحاول أدوات التعذيب الجسدية الّتي تترك أثارها على الجسد، وإنّ لم يكن بألم ظاهر بل متجسد يمكن الإحساس به أثناء ظهور أي مؤشرات حسية وبصرية تستدعيه، بأنّ تكسر إرادة الفلسطيني بإكمال حياته وانخراطه مجددًا في المجتمع، وإخبار قصته وتجربته، إلّا أنَّه وكما ظهر من خلال العينة الّتي تم اختيارها للدراسة بأنَّ هذا الهدف لم يُحقق تمامًا، فعلى الرغم من حدوث بعض المشاكل التعليمية أو الأسرية والمجتمعية، إلّا أنّ هذا الجسد أعاد الإندماج والإنتاج داخل ثقافته ومجتمعه، واستطاع من خلال عودته إلى المجتمع تقاسم ألمه ومشاركته، لأنَّ الغالبية العظمى من الشباب الفلسطيني قد خاض تجربة التحقيق ووسائل التعذيب المختلفة، وأصبحت مفاهيم الانكسار والهزيمة تُترجم من قبل الأسرى إلى قدرة الأسير على الاحتمال بدلًا من شعوره بالذنب/الخيانة، فزنزانة التحقيق على الرغم من خصوصيتها العالية إلّا أنَّها مسرح مُصور لدى الفلسطينيين، وهذا يُساهم في تأهيلهم لمعرفة ما هيَّ الأداوت والاستراتيجيات الّتي يتم استخدامها داخل هذه الزنازين، وتبقى معرفة كيفية تعامل الأسير مع هذه الأدوات، وإدارة الألم داخليًا والتحكم به، والاستفادة من تجارب الآخرين في الصمود الّتي تُساهم بعض كتب التثقيف في بلورة أساسياتها.

مقاومة الأسير لهذا الألم تتم من خلال مشاركته مع الآخرين الفلسطينيين، حتى وإنّ كان التعذيب الّذي تعرض له "هدد هوية الأسير من خلال التسبب له بالإهانة الشديدة والتسبب بالإذلال[240]"، فإنَّ مشاركة الألم تجعل من تجربة الألم جزءًا من تجربته في المقاومة المُكملة لفعله المقاوم قبل الاعتقال، وفي ذلك يقول الأسير طارق بأنَّ "الوعي بالمواجهة مهمة لأنّ هذه معركتي الخاصة الحالية، معركة المعلومة، أنا ما بستقيل عن النضال بمجرد دخولي للسجن، انا رحت على معركة جديدة بأدوات جديدة وأهداف جديدة، بس بالنهاية هيّ المعركة مع نفس العدو." هذا الوعي يترتب عليه تحويل معاني الإذلال الّتي يتشاركها الفلسطينيون جميعًا على الحواجز وأثناء المقاومة، وخلال اعتقال أحد أفراد الأسرة، وأثناء القتل المتعمد لأحد المارة الفلسطينيين في الشارع، وهذا الوعي الذاتي يُفسره طارق على أنَّه "الوعي بحقيقة الذات بأنَّ أعتبر نفسي جزءًا من مشروع سواء كبير أو صغير، وانهياري يعني انهيار يعبر عن خلل في البنية الوطنية والتنظيمية وانهيارها، لذلك لازم أعطي لحالي قدر كبير، أكبّر من حالي، يعني بدل إني لحالي بالزنزانة .. لأ أنا جزء من مشروع كامل واعترافي بترتب عليه كثير اشياء على المستوى الشخصي والعام"، وكذلك يُشير البرغوثي وعائشة عودة أنَّه يجب استحضار الأكوان الثقافية الّتي تشكلت بداخلنا من مقاومتنا ومقاومة الآخرين ضد الاستعمار والقمع، لنكون قادرين على المقاومة وليس فقط على الصمود.

على الرغم من ضرورة الوعي بالمواجهة والوعي بالذات لدى الأسرى الفلسطينيين، إلّا أنَّه من الضروري أيضًا فهم أنَّه لا يوجد ما يوازي الحياة في معسكرات الاعتقال، لا يمكن احتضان رعبها تمامًا بالخيال لسبب أنَّها تقف خارج الحياة والموت". نظرًا لأنَّ سكانها محرومون من المكانة السياسية وانحرفوا عن الحياة المجردة[241]، هذا تمامًا ما يحدث من انعكاس على وعي الأسرى الّذين خاضوا

---

[240] Ibid.

[241] الناشف،"إما قاتلًا أو مقتولًا،": 79.

تجربة التحقيق والتعذيب، إنَّها لا تشبه العبور نحو الموت، أو العبور نحو الحياة، هيَّ البقاء في المنتصف المجهول، المحقق والضابط يسحب الأسير باتجاه الموت (بتعبيراته الفيزيائية المعنوية) وطرف آخر بداخل الأسير يسحبه نحو البقاء والمواجهة، وهذا المنتصف هو الفراغ الّذي يترك أثره مطبوعًا داخل الأسير، لا يمكن للغة ما أنّ تكون قادرة على حملها، وإنَّ عملية كتابة هذا الفراغ هو تجريد لها، وإنَّ روايتها شفاهيًا تُعيدك إلى داخل الفراغ دون أنّ تستطيع وصفه أو تصنيفه.

فجسد الأسير عبدالله أعاد صناعة الألم أثناء المقابلة، لأنَّه لم يستطع ترجمته كما هو بشكله الحقيقي، فيقول عبدالله "وأنا بتعذب وأنا في الزنزانة، وأنا مشبوح، كنت أظل أصفِّر، مكنتش بقدر أسوي شي غير أصفِّر" وخلال رواية عبدالله لتجربة الألم هذه يتوقف عن الكلام لدقائق ويبدأ "بالصفير" ويؤكد أنَّ هذا الصوت يشير إلى أنَّه ما زال في داخل العزل والزنازين والشبح، هذه التفاصيل بقيت بداخله، لم يستطع التخلص منها، وطالما لم يستطع الجسد بلورة آلامه داخل معاني أو ممارسات يمكن تمثيلها، فسيبقى حين يستذكرها يعيش داخلها، وينشط الألم تلقائيًا، ويتم التخلص من الألم ومواجهته بذات التلقائية، كما فعل الأسير عبدالله "بالصفير".

إلّا أنَّه حين يكون الجسد في مرمى النظام القمعي الكامل للسلطة التأديبية والحيوية الهادفة إلى التجريد الجذري من أي شكل من أشكال الفاعلية السياسية، أي احتوائها إلى الحياة المجردة، يصبح الجسد خلال التحقيق هو الموقع والفاعلية، وتتحقق الفاعلية لحظة تدمير الجسد وتعذيبه، فالطبيعة الأدائية للفعل هنا تتجاوز السياسي على مستويين: أولًا كتجسيد للذاتوية وللألم في آن واحد، وثانيا كحياة مجردة ومعزولة أعيد صوغها بصورة أكثر فاعلية، هيَّ ذاتها تستهدف الآخر، وتتحقق هذه الفاعلية في

اللحظة الّتي يتم تكثيف فيها التعذيب على الجسد، عندها يكون الفعل المقاوم ذاته في صورة فعل ذات متمردة تجد فاعليتها في كسر موانع السيادة[242]

التحقيق يقوم بشكل أساسي أيضًا على إرهاق وترهيب الأسير، من خلال أدوات مباشرة مثل منع النوم، وتسليط الاضاءة على الأسير أو استبعاد الضوء كليًا، كما والضرب الشديد بالتركيز على الأطراف والأذن والأعين والشفاه والأعضاء التناسلية، والحرمان من الحمام وانتهاج سياسة التجويع مقابل المعلومة، والصفع والبصق في الوجه، واجباره على الجلوس أو الوقوف أو الحركة بوضعيات غير مريحة للجسد، وتكبيل مناطق الاعصاب في الرسغين والقدمين والضغط عليهما، وتنقيط الماء على الرأس، وحتى استغلال الجرحى للضغط عليهم، وهذا التعذيب النفسي/الجسدي يهدف إلى كسر العقل البشري من خلال إفقاده القدرة على تحقيق التوازن، أي كسر قدرة الأسير على التكيف داخليًا للحفاظ على توازن مستقر يساهم في الاستجابة للعنف والضغوط الخارجية، فالتعذيب النفسي هذا مصمم ليستنبط مستويات عالية من الإثارة عند الأسير دون قدرته على اتخاذ الإجراء المناسب الّذي يسمح بضبط هذه الإثارة[243] الداخلية للسلوك وبالتالي تأمين الاعتراف والانهزام للأسير.

<u>التعذيب دون وسائل التعذيب</u>

زنازين الاستجواب تحتمل المواجهة المباشرة الّتي توضح الحدود الكولونيالية بشكل واضح، وهيَّ كما ظهر من خلال المقابلات تؤمن نوعًا من الصمود والاستعداد وتحفز الإرادة دائمًا، بالمقابل هناك احتمال أنّ تكون زنزانة الاستجواب مواجهة اجتماعية أو تاريخية، أو ثقافية، يتم فيها مناقشة مواضيع قد لا تمت للقضية بصلة، أو يتم نقاش القضية بشكل "حضاري" دون استخدام العنف، ودون استخدام

---

[242] مي الجيوسي، "تشكيل الذات وحالة الاستثناء، الجسد كموقع للمقاومة،" في *حالات الاستثناء, والمقاومة في الوطن العربي* (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010):106.

[243] Daniel Kramer, “The Effects of Psychological Torture,” *international Human Rights Law Clinic* (2011) < https://www.law.berkeley.edu/files/EffectsofPsychologicalTorturepaper(Final)11June10.pdf: 4.

القوة والترهيب، ويقول الأسرى أنَّ هذه السياسة تضعهم في موقف حرج في داخلهم، لا يعرفون مصدر هذا الشعور، أنّ يكون السجان لطيفًا هو أمر يُحرج الأسير.

يختلف أسلوب الترهيب أو الترغيب بكسر الحاجز بين الأسير والمحقق، فمن جهة يحدث كما حصل مع الأسير طارق :"مزَّع ورقة الحقوق الخاصة بالأسير أول شي، وشعور مش لطيف أبدًا يمزع الورقة، بتحس حالك دخلت على منطقة اللاقانون، واللاشيء، بتحس إنَّك وقعت بين إيدين داعش، كإنك آخر واحد في هيّ الدنيا، أنا بعرف إنَّ هو كان قاصد يسوي معي هيك، لأني كنت صغير، قاصر، كان قصدو يخوفني"، هذا الاختلاف مبني من خلال دراسة البُنية العاطفية والجسدية والذهنية للأسير قبل البدء بعملية التحقيق، والّتي يتم جمعها بالعادة من خلال العملاء ومن خلال عملية الاقتحام والمداهمة لمنزل الأسير ودراسة ردود فعله، وبهذه الدراسات توضع الاستراتيجيات الملائمة لاخضاع الأسير، فإذا كان الأسير يحمل نزعة ثورية وتمردية إما يتم استخدام العنف المناسب "لإخضاعه كليًا" أو يتم التعامل معه دون استخدام أي شكل من أشكال العنف، وبدلًا من ذلك يُستخدم أسلوب مهذب ولطيف ومُحرج للأسير نفسه، ما حدث مع الأسير طارق من تمزيق للأوراق بشكل أساسي هو "استعراض للسلطة الاستعمارية، في محاولة لخلق أسير مهزوم، من خلال تدمير إرادته ومقاومته[244]، وفي المقابل تفعلت أيضًا روح التحدي والإصرار لدى الأسير طارق لمنع تقديم أي معلومة أو التجاوب مع وسائل الاستجواب، يقول الهودلي "إنَّ التعذيب الجسدي أفضل من أنّ تجلس وتسمع لشخص تكره الأرض الّذي يمشي عليها لساعات، لأنَّ الضرب والتعذيب يُعطي مساحة لتجسيد البطولة أكثر من الاستجواب المبني على تحطيم المعتقدات والرموز[245]".

---

[244] Meari, *Sumud, A Philosophy:* 153.

[245] الهودلي، *ستائر العتمة*. (رام الله: المؤسسة الفلسطينية للارشاد القومي، 2004): 41،40.

يُعد تأثير هذا النوع من التعذيب سيء وقاسي على نفسية الأسير وقدرته على الاحتمال، يشير الأسير عبدالله في تجربته؛

"بقعد الواحد على كرسي مكلبش من إيديه ورجليه بيضغط عليه وبسب عليه وبضغطه بالحكي، إنَّ إنتَ رح تقعد هان شهرين ثلاث هيَّ التفاصيل يلي بتخنق الواحد، بصير يكبر بالقصة، هو برفعلك السقف كثير عشان إنتَ تعترف على اشي بسيط، وهان بنحط الأسير بخيارات إني أنا بدي أنزل على الزنزانة وارتاح وخصوصًا لما تقعد مع المحقق من الصبح لثلاثة الصبح ثاني يوم، طبعًا بتبدلوا المحققين، بترجع على الزنزانة بتتضايق، فش نوم، فعليًا فش نوم، بتظل تتنقل بين الزنازين طول الليل هذا كمان أسلوب تعذيب نفسي قوي".

عبدالله لم يواجه الترهيب ذاته الّذي واجهه الأسير طارق أثناء لقاء الاستجواب، ولكن واجهه بصور مختلفة، وكان الهدف منها إنهاك ذهن الأسير من خلال تكثيف ساعات لقاء الاستجواب في مكان غير مريح، والمنع من النوم، الّذي يؤدي إلى وصول الأسير لمرحلة الهلوسة، وتحدث هذه الهلوسة نتيجة لوضع الأسير داخل بيئة مصطنعة للغاية تحرمهم من المنبهات الطبيعية، فهذا الحرمان الحسي للجسد عندما يُعطل من خلال الحرمان من النوم والطعام، فإن نظام الأسير للإثارة العصبية والذهنية سوف يخلق المحفزات في غضون ساعات، مما يسبب الهلوسة والوهم والذهان[246]. وذلك أنَّ النوم يلعب دورًا مهمًا في العمليات المعرفية الأساسية مثل التذكر وتشكيل البصيرة، والتفكير المنطقي، والمعالجة اللفظية المعقدة، واتخاذ القرارت وضبط السلوك، كما أنَّه يؤدي إلى تغيير مزاج الأسير[247]، وعدم قدرة الأسير على التحكم بالبيئة الّتي تحيط به، وبالتالي سهولة انتزاع الاعترافات من الأسير، وتأمين استسلامه وخضوعه واستجابته للتحقيق.

يقول الهودلي: "إنَّ التحقيق يؤكد فارق القوة بين الطرفين، فالمحقق يخبر الأسير بأنَّ لا ذنب له بوجود الأسير هنا، فهو له وظيفة يؤديها ثم يعود لممارسة حياته الطبيعية مع زوجته وأطفاله"، أما الأسير هو

246 Kramer, “The Effects of Psychological Torture,” 4.

247 Ibid.

من يبقى داخل هذه الزنزانة، والهدف من هذا الأسلوب إحباط الأسير وكسر قدرته على الصمود وكسر أمل الأسير بالخروج مجددًا إلى العالم الخارجي، ويضيف الأسير خالد "إنَّ رؤية المحقق في وظيفته يؤديها في التعذيب والتحقيق، وبعدها يذهب لممارسة حياته الطبيعية يترك شعورًا بالقهر والعجز والذنب داخل الأسير الّذي يواجه هذا المصير لوحده، ولكن قد يمكن استخدامها كاستراتيجية للصمود، أنَّ هذه مجرد وظيفة للمحقق لها وقت محدد، وهذا يعني أنّني كأسير سيأتي الوقت الّذي أخرج فيه من هنا"، فإنَّ إدراك الأسرى أنَّ التحقيق وظيفة يتم تأديتها مقابل المال أو الترقية، تمنع الأسرى من أنّ يكونوا جزءًا من ترقية ضابط مكافأةُ على تعذيب الأسير وحصوله على معلومات عن المقاومة.

إنَّ سياسة الإرهاق الذهني والنفسي للأسرى تكاد تكون الاستراتيجية المستمرة والثابتة في التحقيق منذ بداية تاريخ السجون حتى يومنا هذا، فالصراخ بالإذن أو تعريض الأسير لأصوات مرتفعة جدًا من الأصوات، الأغاني مثلًا، تسبب إرهاقًا مضاعفًا للأسرى، واستفزازًا لاعصابهم، تقول عائشة "صوت الصراخ الّذي كنت اسمعه في غرف التحقيق المجاورة سواء كانت تحقيق حقيقي أو مجرد مسرحية، كان يبقى الصوت بداخلي يؤلمني، أنَّ تكون تحت التعذيب أقل وطأة من أصوات التعذيب".

تضيف الأسيرة رشا "كانوا يضعوا أغاني صوتها مرتفع جدًا .. حسيت إنَّ صابني صرع، انصرعت صرع من الصوت العالي" ويقول الأسرى "إنَّ الصراخ مثل البصاق، سياستان مستمرتان من لحظة دخولك التحقيق إلى خروجك منه، الهدف منه إرباك الأسير، وإهانته، والشعور بسلطة وسيادة المحقق على كل ما يخص الأسير وعلى مكان السجن أيضًا، الصراخ تعبير عن القوة والعنف في ذات الوقت، الّذي يُمنع الأسير الفلسطيني منها، مقابل مجموعة من المحققين تقوم بالصراخ على أبسط المواضيع، أو العكس تمامًا أنّ يسود جو من الهدوء المربك، الّذي يزيد من عزلة الأسير، وإرباكه بالتفكير في المصير المجهول الّذي ينتظره بعد ساعات طويلة من التحقيق الصامت، الّذي يجلس فيه المحقق في الظل ويضع الأسير تحت الضوء، ويبقى جالسًا ينظر في عيني المحقق دون أنّ يكون مسموحًا له أنّ

يبعد نظره إلّا أنّ يسمح له المحقق، ويعي الأسرى أهمية لغة الجسد هذه وضرورة ضبطها، لأنّ الجسد أحيانًا يخون، أو يُعطي تعبيرات بالتوتر والإرباك أمام المحقق، مما يفتح المجال أمام جولة ثانية من التحقيق.

يقول الأسير أحمد "كنت مثبت حالي لا أفرك إيدي ولا أحرك رجلي ولا أتحرك، لإنَّ هيَّ الإشارات بتدل على إني متوتر وهم بفهموا بهذا الاشي، لدرجة إنّ لحظة من اللحظات سهيت وحركت رجلي بس بعدين انتبهت وثبتتهن" فالجسد وتعبيراته مهمة أيضًا داخل التحقيق، ولهذا يسعى المحقق دائمًا لاستفزاز أو نشر جو من التوتر خلال الاستجواب، ليرى استجابة الأسير لهذا الوضع، مما يُسهل عليه اختيار التقنية الأنسب في التعامل مع الأسير. " إنَّ الألم النفسي يمكن قراءته ثقافيًا من حيث (المشية /الصوت/السلوك)[248].

هذا فضلًا عن استخدام تقنيات الخداع المتمثلة بكرسي كشف الكذب، أو الصفقة الّتي يتم فيها إغراء الأسير بتقديم معلومة بسيطة مقابل إغلاق الملف، كما وتقديم تسهيلات وتخفيضات بالحكم والحفاظ على سرية المعلومات، بالإضافة لاستخدامهم التسجيلات والملفات المفبركة على أنّها اعترافات جاهزة على الأسير، بالإضافة إلى تضخيم أو تسخيف القضية الّتي يتم التحقيق فيها، والهدف منها عزل مفهوم الاعتراف عن الذكاء والوعي الجسدي للأسرى، بحيث يظهر للأسير بأنَّ الاثنين مفصولين عن بعضهما، وأنَّ الاعتراف في هذه الحالة لا تجعل الأسير في موقع الخائن أو المذنب.

إنَّ خيانة الحواس والجسد هو ما تسعى المخابرات للوصول إليه من خلال الإرهاق والتعب الذهني والنفسي، وجهاز كشف الكذب ما هو الّا وسيلة لإسقاط أخلاقي وأمني للمعتقل، لأنَّ الأسير سيبني علاقة مختلفة كليًا مع جسده إذا فضحه أو وشى به، وبالضرورة لأنَّ هذه الأجهزة عند المخابرات صممت بطريقة أنّ يبقى هنالك جواب أو جوابين على الأقل كاذبين وهما رأس الخيط أو المعلومات

---

248 Meari, *Sumud, A Philosophy* :129.

الهامشية الّتي تعرفها المخابرات وتحتاج إلى الاعترافات لإكمال ملف التحقيق، ورغم كل الطرق الّتي يحاول فيها الأسير خداع جهاز الكذب مثل التفكير في أمور مفرحة عند سؤاله أي سؤال كالتفكير بجامعته أو زواج صديقته أو أي تفاصيل جميلة إلّا أنَّ هذا لم يخرجه من ورطة جهاز كشف الكذب الّذي لا يمكن إلّا أنَّ يظهرك كاذبًا أمام المخابرات ويقوم بعدها المحقق باستكمال التحقيق على أساس أنَّه تم الحصول على جزء من الاعترافات سواء لتبرئة المتهم أو اتهامه وتبقى المهمة للمحقق حتى يكتمل التحقيق[249].

ييقول وليد الهودلي؛

"بدأ المحققون الحديث بالتعاطف وإخلاء المسؤولية عن أساليب التحقيق المتبعة والاهمال، وإنَّهم ليسوا إلا عبد مأمور، وطلبوا منه إنهاء هذا العذاب، عن طريق جهاز كشف الكذب، الّذي بادعائهم سيزيل عنه تهمة الاعتراف الواعي، وأنَّ الجهاز من كشفه، وللتدليل على أن الجهاز قادر على كشف الصدق والكذب، يستشهد المحقق بأنَّ "اسرائيل" دولة قانون ولا يستطيع أي شخص الوصول إلى مركز قيادي دون الجلوس على جهاز كشف الكذب واختباره[250]".

يحاول الأسرى المراوغة على هذه الجهاز، محاولة لتبرئة أنفسهم ولكن تجربة الأسير عبدالله في التحايل على جهاز كشف الكذب لم تنجح، لأنَّه اعتقد بأنَّ هذا الجهاز قد يكون وسيلة لإنهاء التحقيق دون تقديم معلومات من خلال ضبط الجسد، ذلك أنَّه لم يكن يعلم أنَّ هذا الجهاز مصمم بطريقة تجعل من الأسير كاذبًا بكل الأحوال، ويقول الأسير عبدالله؛

"كانوا يلفوا علينا يسألونا مين بدو يروح ع ماكينة الكذب، قلتله أنا، أخذوني بحطو أجهزة على الأصابع والصدر، هيّ اشي بشتغل على دقات القلب والأعصاب وردات الفعل، وقال بسألني السؤال مباشر عشان يشوف ردة فعلي، فلما سألني سؤال وقفت شوي بعدين جاوبت قلي في غلط في إشي ما طلع، قلتله كنت بدي اقح وبطلت، هيّ نزلت عليها

[249] الهودلي، *ستائر العتمة*.

[250] الهودلي، *ستائر العتمة*.

15 يوم متواصلة تحقيق، أنا كنت أعرف عن جهاز الكذب بس قلت بقنعهم إنّي بريء، لازم أتحكم بأعصابي، وهيك رايح لصالحي .. بس طلعت مش لصالحي".

إنَّ أساليب الخداع والتحايل، لا تقل تأثيرًا على وعي الأسرى عن استخدام وسائل الترهيب والعنف، لأنَّها تضع الأسير أمام مراحل جديدة من التحقيق والتفكير لم يكن الأسير يضعها في حساباته، مما يجعل الأسير يشعر بأنَّه السبب في استمرار التحقيق بدلًا من إنهائه، ولذلك تعتبر هذه الوسائل في وعي الأسرى نافذة حول مرحلة ألم جديدة.

استهداف الجسد كموضوع جنسي

تُعاني الأسيرات بشكل خاص من تمييز في المعاملة مع الأسرى، وذلك من خلال ربط الألم والتعذيب الجنسي بالصور والرؤية الاستشراقية للمعنى الثقافي العربي/الإسلامي لجسد المرأة من جهة، ومن جهة آخرى التعامل مع الجسد الأنثوي الفلسطيني في المقاومة السياسية المعادية للاستعمار باعتبارها مستغلة من الرجل، أي أنَّها ضحية له وليست مشاركة معه، وتم تصوير المناضلات ككائنات يتم السيطرة على أجسادهن، وينتزع منهن إمكانية أنّ تكون المقاومة ضد الاستعمار خيارًا واعيًا لهن[251].

لهذا يتم التعامل مع مادة الجسد الأنثوي، كموقع لحفر السلطة، ومحاولة تجريد جسدها من المعنى السياسي وانتمائها لثقافة المستعمَرين المقهورين، وتستخدم هذه الفكرة عن الجسد الأنثوي من وجهة نظر الغرب كأداة أساسية أثناء التحقيق مع النساء، حيث يستخدم التصورات الّتي تؤسس صورة نمطية حول شرف جسد المرأة، وتشير عائشة عودة "في لحظة من اللحظات ظننت أنَّ جسدي هو موضوع القضية وأخذت جلسة التحقيق بعدًا للنقاش حول وجودي كفتاة داخل أقبية التحقيق، في الوقت الّذي يجب أنّ تكون فيه بالخارج تكمل تعليمها وتتزوج وتنجب الأطفال، وتهتم بجمالها"، وفي جلسات أخرى

[251] Madalena Santos, “Relation of Ruling in the Colonial Present’; An Intersectional View of the Israeli Imaginary,” *The Canadian Journal of Sociology* 4, vol. 38 (2013): 523.

يتم تكرار سؤال "مع كم شب نمتي؟ وعندما كان الجواب لا أحد. نظر المحقق نظرة تحمل تهديدًا وخطرًا وخوفًا بداخل عائشة حول ما حملته نظرات المحقق[252]"، هذا التعذيب والإكراه بالإساءة والإيحاء الجنسي يهدد عالم الأسيرة الثقافي، لأنَّه يدخل إلى العوالم الثقافية الّتي تحتمي فيها وتستخدمها كاستراتيجية للصمود، سواء من خلال نظرة المجتمع الفلسطيني إلى جسد المرأة أو من خلال نظرة الثقافات والمجتمعات الرأسمالية البيضاء إلى دور المرأة المشاركة في النضال ضد الاستعمار، فهذا الهجوم يعمل على تحطيم ذاتها وإهانة كرامتها، وفي هذه الحالة فإنَّ الأسيرات يقاومن بالعودة المباشرة إلى المشروع الأكبر الّذي أدى إلى وجودهن في التحقيق، وهو كونهن جزءًا من منظومة المقاومة والحرية، وأنّهن استطعن أنّ يكسرن هذه المألوفية حول جسد المرأة، والّتي تسعى المنظومة الاستعمارية التعامل فيها مع المرأة في كل مناسبة، فبدلًا أنّ يسبب هذا الابتزاز لهن الإحراج والضعف، إنَّما يُصبح إضافة ثقافية للمقاومة والتحدي من خلالها.

وتضيف فالنتينا أبو عفصة؛

"إنَّ تهديد الأسيرة باختراق جسدها جنسيًا أو ثقافيًا من خلال التهديد بالاغتصاب أو مداعبة أعضاءها، أو تهديدها بنشر معلومات مزيفة حول ممارستها علاقات جنسية مع الفلسطينيين، أو أبناء التنظيمات على وجه التحديد، كوسيلة للضغط عليها لسحب الاعتراف منها، وهذا يعد أمرًا صادمًا ومُربكًا للأسيرة، إنَّها تخترق حدود تفكير الأسيرة بإمكانية تجاوزهم لهذا الحد من التعذيب والامتهان لجسدها" وتكمل أبو عفصة "كما أنَّه يتم التلاعب بكلمات معينة لإجبارها على الاعتراف مثل أنَّ الفتاة لها أحلام فقط بالزواج وإنجاب الأطفال وهيَّ هكذا تكون حرة، وأنَّه لا يمكن للمرأة أنّ تصل لمرحلة التحرر العقلي والنضالي الّذي يسمح لها بالنضال إلّا بأمر من التنظيم والقيادات، الَّذين يتم تصويرهم

---

[252] عودة، *أحلام بالحرية*.

فيما بعد على أنَّهم من كاس لكاس ومن أوتيل ل أوتيل ولا يهتمون بهذه التضحيات الّتي يقدمها أبناء وبنات الشعب الفلسطيني، بل أنَّهم يكسبون مردودًا ماديًا من هذه العمليات[253]".

فالجسد المجنس مادة أساسية في التحقيق بالنسبة للأسيرات، حيث يعتقد المحققون بأنَّها وسيلة ناجعة للضغط عليهن، والأسيرات يشعرن بالامتهان والإكراه لأسلوب التعذيب هذا الّذي يجردهن من كونهن مخلوقات سياسية، تقول الأسيرة رشا "عندما تأخرت الدورة الشهرية طلبت دواء لي، رفض المحقق إعطائي الدواء، وقال سوف ننشر في الإعلام أنك حامل من المحققين." إنَّ الممارسة الصهيونية داخل التحقيق تُشير إلى أنَّ الحبس يستهدف فكرة الجنس ليس فقط لتصورات الدلالات الاستشراقية حول الحالة الاجتماعية والاخلاقية الثقافية العربية، وإنَّما كساحة لترسيخ حدود سيادة المستعمِر على جسد المستعمَر، وقدرة المحقق على أنّ يُمارس فنون تعذيبه المختلفة على هذا الجسد الأنثوي، والّذي كان بالفعل قد استخدمه في مراحل سابقة، هذا الابتزاز الّذي تعرضت له رشا للضغط عليها في سبيل الاعتراف، كان واضحًا هدفه في وعيها، مما جعلها تتجاهل هذا الابتزاز، ولكنَّها من الداخل شعرت بالإهانة والكسر، ليس لأنَّ المحقق تلفظ بهذه الكلمات عنها وعن شرفها، وإنَّما لأنَّ هذا موضوع ذو مساحات وحدود خاصة جدًا، وليس مادة للنقاش مع أحد فهيَّ ليست في سجون إصلاحية أو تأهيلية لقيامها بجنحة أخلاقية، وإنَّما موجودة لأسباب سياسية، وهذا هو موضوع التحقيق الأساسي.

تحلل ميعاري تعذيب الجسد الأنثوي بمجموعة من تقنيات القوة المختلفة، كونَّها وسيلة لتفكيك عوالم الأسيرة، تبدأ من عوالمها الفردية، وهيَّ أنّ تقوم بتحويل جسد وفعل الأسيرة من جسد سياسي وفعل مقاوم إلى جسد أنثوي يحاول التعذيب أن يوصمّه بالضعف من خلال تشويهه أو استباحته، ولكن الأسيرات الفلسطينيات يعملن بشكل واع على إزاحة تبعيات وتأثيرات الإكراه أو الابتزاز أو العنف الجنسي من خلال إحالة هذه التجربة بشكل مستمر إلى المعنى السياسي لتجربتهنّ وأجسادهنّ،

[253] فالنتينا أبو عفصة، *أنا حرة* (حيفا: دار الشريف للدعاية، 2015).

وتحديدًا مع إدراك الأسيرات أنَّ التعذيب الجنسي ليس بمبدأ ضمن التعذيب وتقنيات التحقيق، وإنَّما هو أداة يتم استخدامها لتهديد القيم والمعايير الّتي تشكل جسد الأسيرة الثقافي[254]، والّتي تُهدد وجودها داخل المنظومة الاجتماعية، لهذه نرى وعي تجربة الأسيرتان رشا وعائشة مع جسدهن الأنثوي أنَّها تجربة مقاومة وفاعلة، وذلك يمكن فهمه اجتماعيًا وثقافيًا، بالكيفية المعمقة الّتي تعي بها المرأة جسدها والمفاهيم المرتبطة بها من شرف وعفة وطهارة، وأنَّ فعل الاحتلال والاستعمار لا يمس هذه المكونات، إنَّما تعيد صقلها لتصبح رمزًا وطنيًا، بدلًا من أنَّ تكون نقطة ضعف وشعور بالعار.

في تجارب الأسرى الفلسطينيين مع تقنية التعذيب بالتهديد الجنسي لأقرباء الأسير، فإنَّ هنالك عدة مشاعر مؤلمة تنقش على جسد الأسير نتيجة لهذه التجربة؛ ذلك أنَّ هذا الألم بتعبير الأسرى يعتبر جرحًا ثقافيًا وقيميًا، وهو بمثابة الجرح الجسدي الناتج عن التعذيب الشديد، وفيه يشعر الأسير بأنَّ هذا الألم يحمل تهديدًا على وجوده وحياته وهويته، وفي هذه الحالة لا يمكنه تضمين هذا الألم وهذه المشاعر داخل معان ثقافية من شأنها أنّ تُسكّن شعور الألم داخل الأسير، وبالتالي الحفاظ على توازنه، فيبقى الجنس داخل الوعي الخاص بالأسرى الرجال هو وعي ثقافي في الغالب، يشعر فيه الأسير بالعار إذا تم التعدي على شرفه، ويشعر الأسير أيضًا بالضعف لأنَّه يعتبر هذا التهديد الجنسي الموجه لعائلته هو مسبب رئيسي فيه ولا يمكنه الدفاع عنه أو حمايته، فيتكثف شعور المسؤولية بداخله اتجاه جسد عائلته الأنثوي.

[254] Lena, Meari, “Re/Signifying “Sexual” Colonial Power Techinques: The Experiences of Palestinian Women Political Prisoners,” In *Rethinking Gender in Revolutions and Resistance: Lessons from the Arab World, Publisher: Zed Books Ltd, Editors: Maha El Said* (2015).

كما وأن التحقيق من خلال التهديد بالآخرين[255]، يجعل وعي الأفراد متردد في فكرة الصمود، سواء للأسرى أو الأسيرات، حيث أنَّ هذا النوع من التعذيب والاستجواب تعرض لمجموعة من الانتقادات والتساؤلات متعلقة بتبعيات هذا الأسلوب وأثاره على وعي وهوية الإنسان المُعذَّب، فعائشة عودة رأت صديقتها تموت وتصاب بالشلل أمام عينيها، وبذلك اعترفت حول مكان السلاح، والأسيرة رشا تتحدث عن أقسى وسائل التعذيب وأبشعها بالتحقيق مع صديقتها الّتي لم يكن لها علم بأي شيء، وكذلك مشاعر الألم الّتي شعرت بها أثناء التحقيق مع أخيها أمامها كذلك، في هذه الحالة يشعر الأسير وكأنَّه جزء ومسبب من معاناة الآخرين، وعجزهم عن حمايتهم.

يتباين وعي الأسرى في مسألة تهديد وابتزاز الأجساد الأنثوية المرتبطة بهم، فالهودلي عبَّر عن غضبه أثناء التحقيق بشتم المحقق، وعلى الرغم من صموده أمام التهديد بشرفه، إلّا أنَّ هذا الموضوع يعد بمثابة نقطة ضعف لأنها تمس مكونات وعيه وهويته، وقال للمحقق "إياك أن تقترب من العرض .. لم يبق لنا ما نستميت من أجله غير العرض.. فالعرض عندنا يمس بمروءتنا[256]" أما البرغوثي خلال التحقيق مع زوجته كأسلوب ضغط عليه؛ كانت مكوناته الثقافية تؤكد على دور المرأة كجزء من المشروع الوطني الفلسطيني، وأنَّ إحضارها للتحقيق لا يُغير في إرادة وصمود الأسير، أما الأسيرة رشا والأسير عبدالله تعاملوا مع هذا النوع من التعذيب بوصفه (هذا جرح مقاتل)، فأي تعذيب أو انتهاك يقع على الجسد الأنثوي الفلسطيني، مثله مثل أي جرح أو تشويه ممكن أنّ يصيب أي مقاوم في أي مكان من جسده، ولا يمكن التعامل معه كوصمة أو فعل ثقافي خارج إطار العلاقة مع المنظومة الاستعمارية، أما الأسيرين خالد وطارق فشعرا بأنَّ هذا الاستجواب يضعهم موضع ضعف وخوف،

---

[255] وكان هذا النوع من التعذيب قد حُظر في عام 1977 عقب قضية الضابط عزت نافسو، الّذي تم التحقيق معه من خلال ضرب أحد أصدقاءه ضربًا مبرحًا أمامه، مما جعل الضابط يعترف دون أن يتعرض لأي شكل من التعذيب، وصدر بعد مباحثة هذا الأسلوب قضائيًا وقانونيًا، منع استخدام هذا النوع من الاستجواب والتعذيب إلّا في حالات القنبلة الموقوتة.

[256] الهودلي، *ستائر العتمة*، 58.

وهذا شيء يمكن فهمه ضمن فهم أوسع وأشمل للبيئة العشائرية والثقافية الذكورية، والعلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الفلسطيني، فالرجل يشعر بنفسه مسؤولًا عن حماية هذا الجسد بالذات، لأنَّ جسده مُصان ثقافيًا تحت أي ظرف، لذلك يشعر بالمسؤولية اتجاه موقع جسد المرأة داخل المجتمع.

استهداف جسد العائلة

هذا الابتزاز اتجاه جسد الأنثى والجنس، لا يرتبط فقط بالأسيرات، بل ويرتبط أيضًا بعملية التحقيق والضغط النفسي على الأسرى لإذلالهم، من خلال تهديد عائلاتهم، زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم وحتى الأخوة الذكور والأب، بأنَّ يتم استدعائهن/م للتحقيق، والتعرض لهن/م، سواء لفظيًا أو بالممارسة دون قدرة الأسير على حماية عائلته، مما يضعه في موقف المذنب والشعور بالمسؤولية والإذلال اتجاه تعذيب واستجواب عائلته أو أحد أصدقاءه والتسبب بألم لهم.

يقول طارق؛

"ظلوا يساوموا فيَّ إنَّ بدنا نجيب أخوك، وهون بدي أسجل هالنقطة، بهديك اللحظة أنا شعرت بشوي ضعف، مش عشان أخوي عشان إمي، هم (المحققين) لمسوا هذا الشي، وكيف بين علي الضعف، بالذات إني كنت زي الحجر، صرت أناقش فيهم إنَّ ليش بدكو تعملوا هيك وشو دخل أخوي، إنَّ انتو بتنتقموا مني ومن أهلي، فهو لما صرت أناقش فيهم هيك، انبسطوا .. شو ليش يا طارق إنتَ إلك 18 يوم بتجاكر فينا وماشي معنا راس براس وقاعد بتناقش فينا هلا ليش بدكو تجيبوا أخوي، إحنا بالنهاية مش جمعية خيرية إحنا مخابرات ومضطرين نوصل للمعلومة بكل الطرق، وصار يقنع فيَّ إنّي أعترف دون اعتقال أخوي، هلا هون أنا كان خللي إنّي صرت أناقش فيه".

بأسلوب التعذيب هذا باعتقال الأهل أو الأصدقاء، له تبعيات في وعي الأسير على الضرر الّذي سيسببه لهؤلاء الأشخاص، وخاصة بأنَّ الأسرى يدركون أنَّ "الاعتراف على الآخرين خط أحمر" فكيف

سيتعامل الأسرى مع هذا الضغط من خلال التهديد بالآخرين[257]، وهذا لا يتوقف على الأسرى الذكور، فعائشة عودة رأت صديقتها تموت وتصاب بالشلل أمام عينيها، والأسيرة رشا تحدثت عن التحقيق مع صديقتها الّتي لم يكن لها علم بأي شيء، وقالت أنَّ أسوأ ما في التعذيب هو إحضار صديقتي وأخي لتعذيبهم والتحقيق معهم أمامي، وكذلك حدث مع الأسرى مثل البرغوثي حيث أحضروا زوجته إلى التحقيق للضغط عليه، وفي شهادات الأسرى، كان هذا أسلوب مهم لزعزعة سلوك الأسرى والسيطرة عليهم بتهديدهم بالعائلة والأصدقاء، أو من خلال سب وشتم عائلاتهم، "فالألم متجسد في داخل الأسير"، وما يحدث خلال التحقيق مع أحد أحباء الأسير، هو استثارة لهذا الألم وتنشيطه داخل جسد الأسير، فيبدو الألم مضاعفًا ومكثفًا أكثر، بحيث لا يحتمل الأسير ويضطر للاعتراف.

تُثير عمليات الاعدام الخبيثة/ والتعذيب المهين لأحد أفراد أسرة الأسير/ة الشعور بالخوف والخسارة الكاملة للسيطرة الشخصية، دون ترك أي علامات جسدية على الأسير، ولكنها تؤدي إلى مشاكل نفسية خطيرة، ولهذا يُعد أسلوب استفزاز المشاعر العاطفية والعائلية أساسيًا في التحقيق، من خلال التهديد بتعرض أحد أفراد العائلة للتحقيق، أو معرفة معلومات معينة حساسة تخص قيم المجتمع عن أحد أفراد العائلة أو عن الأسير ويتم استغلالها مقابل الاعتراف؛ وهذا الأسلوب صمم لفك الارتباط العام الّذي يجمع الأسير بمجتمعه، من خلال استغلال فكرة" السمعة الحسنة" وأهميتها للأفراد في المجتمع، وبالتالي استخدام فكرة التهديد بتشويه سمعة الأسير وعائلته وحرقهم سياسيًا واجتماعيًا بتخوينهم[258]، هذا الأسلوب بشكل عام لا يمكن مقاومته إلّا من خلال إيمان الأسير بقضيتين: الأولى اقتناع الأسير أنَّ ما يحدث خارج إرادته وسيطرته، وأيضًا من خلال ما قاله البرغوثي "أنَّ أي جنحة

---

[257] وهنا لا بد من الإشارة أنَّ بالأساس تشكلت لجنة لاندو لتقنين عملية التعذيب في إطار قضية عزت نافسو الضابط اليهودي الشركسي الّذي تم التحقيق معه من خلال ضرب أحد أصدقائه ضربًا مبرحًا أمامه، وهذا كان محط اهتمام العديد من الحقوقيين والقانونيين لوقف هذا النوع من التعذيب، ولكنَّه ما زال مستمرًا حتى اليوم

[258] طارق أبو مطر، *الأبعاد النفسية والاجتماعية للمواجهة في زنازين التحقيق* (بيرزيت: جامعة بيرزيت،2017) :34.

اجتماعية تُعد أقل خطرًا وضررًا من التعامل مع العدو"، ثانيًا: اللجوء للإيمان، سواء الإيمان بالله والاستغفار ومحاولة امتصاص تجربة الألم بمشاركتها مع الله، أو الإيمان بعدالة القضية الّتي يُناضل من أجلها الأسير، وإرجاع كافة هذه الأساليب المؤلمة وتمثلاتها إلى مفهوم الجهاد والنضال الجماعي ضد الاستعمار.

إنَّ الممارسات الّتي استخدمت مع الأسرى المبحوثين، تم تصنيفها على أنَّها تركز على الإرهاق النفسي والذهني، والّذي بدوره يضغط الجسد ويربكه، ويوتره، ويشعره بالعزلة، هذا ما تسعى إليه وسائل التحقيق لفرض هيمنتها على الفلسطيني، وكسر حاجز العداوة والتحدي بين المحقق والأسير استعدادًا لتعاون الأسير مع المحقق، يقول الأسير عبدالله "الاشي النفسي ولا بقدر أوصفوا، بعجز. بس التفاصيل هيّ مش رح تروح من راسي، لما بتذكرها برجع بعيشها، بحس إني عايش جواها، بس إذا فكرت فيها بترجع جواها، أنا في المسكوبية وبعيش كل التفاصيل وبحس بالخوف نفس يلي كان هناك، مع إني بعرفش ليش كنت خايف بصراحة، المسكوبية بتخوفش فعليًا بس في خوف، ليش هذا الخوف بيجي بعرفش، يمكن من الحشرة ، يمكن من العزل".

<u>العزل</u>

يناقش هذا المحور تأثيرات العزل الجسدي للأسير عن الآخرين داخل الزنازين كأداة من أدوات التعذيب المستخدمة في استراتيجيات التحقيق، على الوعي الجسدي لتجربة الألم الّتي يُسببها العزل، كما وتحليل أثر الوعي الجسدي الثقافي والتضامني للأسرى أثناء العزل عن الجماعة ومعنى ذلك على فهمه ومواجهته مع ذاته واستيعابه وتكيفه مع الألم أو الاستسلام له، كما ويحلل العزل خلال جلسات التحقيق وآثر ذلك على إرادة وسلوك الأسير، وفي النهاية العزل وتبعياته في الاعتراف في زنازين العملاء/العصافير.

العزل قبل التحقيق

يلعب التعذيب من خلال العزل قبل التحقيق دورًا كبيرًا في قمع روح الأسير من خلال إهماله، فهندسة المكان بترتيب الزنازين، بحيث لا يطلع السجناء على بعضهم البعض، والمساحات تكون صارمة مع ترتيب رتيب تماشيًا مع التقييد الشديد للتحفيز الحسي، حيث نادرًا ما تحتوي هذه الزنازين على نوافذ أو مصادر ضوء طبيعي، أو تدفق الهواء أو أي مؤشرات على الوقت، فمن الشائع وجود أضواء صناعية مدارة على مدار الوقت[259]. تعمل على وضع حدود صارمة للمنبهات الحسية للأسرى، وبهذا الوقت يشعر الأسرى برغبة عالية في تجربة حواسهم من خلال المواجهة مع المحققين في الزنازين، فتعتبر زنزانة التحقيق في هذه اللحظات الخلاص الّذي يستعيد فيه الأسير إنسانيته، من خلال التواصل مع الآخر العدو الّذي يؤكد على وجود الأسير، في الوقت الّذي يعتقد فيه الأسير أنَّه وحيد ومُهمل وغير موجود.

يقول الأسير طارق؛

"أنا خلال أول يومين تشكل عندي صدمة، كانت بالأساس الصدمة من إنَّ كيف واحد جاي من برة ومرة وحدة ينحشر بغرفة، ومرة وحدة كل الأشياء انمنعت عنو، يعني أنا اول شي اشتقتلو باليوم الأول بالزنزانة هو معمول (كعك العيد) إمي شوفي قديش اشي صغير، وبعرفش ليش أجا في بالي فنمت وحلمت فيه، حلمت إنَّ هيّ بتقدملي في صحن وأنا مديت إيدي بدي أخذ، صحيت، هم بعرفوا إحنا شو بنحلم أول ليلة، بعرفوا إنَّ لما بحطوا الإنسان بهيك واقع، فالإنسان بحلم بإشي بحبو، في لحظة ما لما بنقطع عن كل شي بصير عندو صدمة، بس كمان خلال هدول اليومين صرت مشتاق لغرفة التحقيق، إنَّ بدي اطلع على غرفة التحقيق، من باب المعرفة بدي أشوف شو هيّ، وثاني اشي بدي

---

[259] B. Story, “Alone Inside: Solitary Confinement and the Ontology of The Individual in Modern Life,” *Copernicus Publication For The Geographische Gesellschaft Zurich &Association Suisse De Geographie* (2014) < https://www.academia.edu/9880453/Alone_inside_solitary_confinement_and_the_ontology_of_the_individual_in_modern_life> .

أعرف شو في عليّ بالزبط، وثالث إشي أنا زهكت القعدة بالزنزانة وزهقت الشخص يلي معاي (ضابط أو عصفور)، وصرت خلص حاب إني أدخل التحقيق وأشوف شو بدو يصير معي".

إنَّ العزل الّذي يسبق عملية التحقيق ومواجهة المحققين، يسبب توترًا وضغطًا كبيرًا على الأسرى، وذلك لعدة أسباب: الأولى: الإهمال والعتمة الّتي يعيش فيها الأسير، والّتي يفقد فيها الأسير قدرته على التواصل مع الآخرين مما يُبقيه أسيرًا لأسئلته حول مصيره وأحوال عائلته بعد اعتقال ابنهم/ابنتهم، والثانية: افقاد الأسير فاعليته وقدرته على ممارسة سلطته وحريته على جسده، وعلى تحديد العلاقة مع الآخر العدو، فالزنزانة بصرامتها تفرض السلطة الّتي من المفترض أنّ تحقق القمع والخضوع الداخلي للأسير عن طريق تحييده واقصائه، والثالثة: أنّ زنزانة العزل تهيئ الأسير للامتثال في التحقيق والاستجابة السريعة مع وسائل الاستجواب، لأنَّ الوقت القمعي الّذي يفرض من خلال زنزانة العزل لا يتساوى مع الزمن الحقيقي وذلك لعدم تفاعل حواس الأسير مع الزمن الحقيقي، وبالتالي إنَّ العودة للزمن خلال الاستجواب والتحقيق تدفع بالأسير إلى الاعتراف لإنهاء هذا العزل.

يقول الأسير والكاتب وليد الهودلي في العزل كاستراتيجية تعذيب؛

"يُريد المحقق أنّ يحصر الأسير ذهنيًا ونفسيًا في الدائرة الّتي هم يضعوك فيها، ووظيفتها إضعاف النفسية والتركيز للمعتقل، فيقتحمون عليك دائرتك وأنتَّ في أضعف حالاتك، فينزلق اللسان بأول كلمة وتكتمل الرواية لديهم[260]"، يضيف الأسير عبدالله "المحقق يُريد أنّ يترك دائما لديك أسئلة، يُريدك أنّ تبحث عن إجابة، لماذا أنا في الزنزانة معزول بدل غرفة التحقيق؟ لماذا يضعوا العصبة على أعيننا ونحن نمر من الزنزانة المعزولة إلى غرفة التحقيق؟ لماذا يطرح علينا سؤال ويُعيدنا إلى العزل؟ هذه الأسئلة الّتي يضعنا أمامها السجان تبقي دماغي مثل المطحنة، مطحنة من الأفكار، لا استطيع النوم حتى لو الوقت كافي".

[260] الهودلي، *ستائر العتمة*.

يعتبر تشارلز ديكنز أنَّ هذا العبث البطيئ اليومي الّذي تخلقه البيئة المصطنعة للزنزانة الانفرادية، مع أسرار الدماغ الداخلية، تكون أسوأ بكثير من أي تعذيب جسدي[261]، ويؤكد الهودلي على افتراض ديكنز، ويقول في تجربته الروائية "إنَّ الانتظار قبل التحقيق كما لو أنَّ هنالك شَبْحًا وتحقيقًا لوجدت ما يخفف عني هذا الكرب الّذي تركوني فيه وحيدًا، شكّلَوا مني وحدة تحقيق وزرعوها في صدري، وأصبحت المُحَقِق والمُحَقَق معه في آن .. لم يبقَ إلّا أنّ يسلموا لي وسائل التحقيق الّتي أعرفها جيدًا[262]".

يلاحظ أنَّ صوت الطبيعة (الداخلي) يصبح مكونًا رئيسيًا للعمل والفهم، فإنَّ الأسير الّذي يتعرض للعزل الانفرادي يجد نفسه فيه وحيدًا، يتحلل فعليًا في الواقع، لأنَّه إذا أردنا اعتبار الذات معزولة ومتفردة في ظل ظروف الحبس الانفرادي، فإنَّ عنف العزل والإهمال بالضرورة ينتقل إلى العوالم الاجتماعية والسياسية للأسير أيضًا، لأنَّ الحياة تُصبح تُقاس بالنسبة له بعبارات فردية وبهذه الطريقة تعمل على إخفاء العلاقات الاجتماعية وعدم المساواة في السلطة الكامنة فيها[263]. وبتفكيك هذه العوالم والعلاقات الّتي شكلت هذا الجسد من خلال العزل، يُفترض بالأسير الوصول كذات منفصلة عن الآخرين، وبالتالي تصرف الأسير بأنانية، بحيث لا يعود يرى الآخر أو يدرك مصير الآخرين، يصبح مصيره هو أولوياته.

هذا ما يُفسر انهزام العديد من الأسرى في الزنازين الانفرادية، في الوقت الّذي يبقى فيه صامدًا تحت التعذيب الشديد، يقول عصمت منصور في الزنزانة الانفرادية؛

---

[261] Story, “Alone Inside,”

[262]الهودلي، *ستائر العتمة*.

[263] Story, “Alone Inside,”

"إنَّها تمتلك قوة سحرية ناعمة لا تكاد تحس، قوة لا يمكن قياسها بحسابات ومقاييس مادية، ذلك أنَّها لا تقاوم، شيء يشبه قوة الأشياء الّتي لا ترغب في معاندتها ونساق خلفها كالمخدرين والمسحورين، وتجدنا ننصاع لها بتسليم لا يمكن تفسيره، تسليم لذيذ مسبق، يشير باعتراف مبطن بتفوقها، قوة لا تضطر لأن تبالغ في استعراض ذاتها، وتمارس وظيفتها دون صخب فارغ ومبالغات[264]".

إنَّ السحر القمعي الّذي تمارسه الزنزانة، يعتمد بشكل أساس على توظيف كل من قمعية وجمود الزمان والمكان، وفضول الإنسان نحو المعرفة، فزنزانة الانفرادي تنطبع في أذهاننا على أنّها يُعاقب الأسير من خلالها بفقدانه التواصل مع الآخرين من جهة، وعزله عن العالم الواقعي من جهة آخرى، ولكن بتفكيك هذين الشكلين من العقوبة، نرى بأنَّ الزمان لا يكون وقتًا إلا من خلال احتكاكه بالآخرين، فالزمان يتم التعبير عنه من خلال الفعل البشري، والتواصل مع الآخرين، لذلك فإن عزل الأسير داخل مكان مجرد تمامًا من التفاصيل الّتي من الممكن أنّ يبني الأسير معها علاقة تُساعده في بناء معارف جديدة، تُساهم في وضعه زمنه الخاص لترتيب أحداثه هو شكل منهجي من التدمير الذاتي للأسير.

يمكن أنّ نجد ديكارت يُفسر ما الّذي يحدث في العزل الانفرادي؛ من خلال تمييزه بين العقل المادي والجسم المادي (الثنائية الديكارتية)[265]؛ ينشئ الصراع بين العقل والجسد في رفض الجسد كل ما في عالم الخبرة، الّذي يعتمد في الأساس على وجوده من خلال الحواس الّتي تم تعطيلها من خلال العزل، فبعد أنّ تم تفكيك العالم وإحداث تفاوت في سيطرة الجسم المادي المعزول على العقل المادي، فإنَّ كل ما يبقى هو عالم الواقع الحالي "العزل" متفوق على العالم المشكوك فيه "العقل المادي"، إنَّ منطق الانفصال والعزلة هذا أساسي في فرض السلطة على عقل الأسرى، وبالتالي تأمين عدم قدرة مواجهة فرد معزول ومنفصل داخليًا عن القيم الثقافية والسياسية الّتي شكلته، في الصمود والمواجهة، حيث

---

264 عصمت منصور، *سجن السجن* (رام الله: وزارة الثقافة،2010): 11.

265 Meari, *Sumud, A Philosophy,* 10.

تسبب عملية المحو من خلال عملية العزل، إلى تسهيل إعادة إنشاء أفراد من جهة يشعرون بالاغتراب عن المجموعة، وذلك لعدم وجود حماية أو شعور الأسير بالتضامن وتشارك الألم مع الآخرين، ومن جهة آخرى إنَّ المعرفة الجديدة الّتي يتم نقشها في وعي الأسير هيَّ المعرفة الحقيقية في ذلك الوقت "معرفة قوة وتفوق الاستعمار" وبالتالي الخضوع والاستسلام والاعتراف.

موضوع العزلة هو كسر ذاتي، تم تطوير العزلة للسجناء في بداية القرن التاسع عشر باعتبارها العمارة المركزية لنظام السجون الناشئ كأداة تصحيحية مستنيرة وإنسانية لممارسة العقاب الموجودة مسبقًا، مثل الضرب العلني والعقوبة والوحشية والجسدية، ففكرة العزل والصمت التام والخفية المطلقة تقوم على مواجهة الفرد مع أعماق ذاته، وبالتالي سيكشف الفرد الندم المطلوب وإدراك الذات ليصبحوا أفضل، ولكن بدلًا من هذا دفعت العزلة إلى الجنون[266].

هذه الزنزانة على الرغم من عدم القدرة على مقاومتها بالأساليب المعروفة والمباشرة، إلّا أنَّ القيم الثقافية والوطنية النضالية تؤمن مخزون مقاومة في أجساد الفلسطينيين والأسرى الّذين يتعرضون للعزل، وذلك من خلال الكيفية الّتي يتعامل فيها الأسير أو يتكيف بشكل إيجابي مع قتامة الألوان وبرودة الجدران وعفونتها، والعزلة القاتلة، فلا يمكن مقاومة العزل بالضرب أو البصاق أو الشتائم، ولا يمكن رفع السلاح عليه، إنَّها بحاجة إلى قوة داخلية عميقة مليئة بالإيمان بالقضية الفلسطينية، وحق الإنسان في النضال أمام الظلم، ووجوب الصبر والتماسك والتحدي، والأهم تحويل هذه الزنزانة إلى معادلة قوة متعادلة على الأقل مع قوة الأسير، من خلال ترتيبها بشكل يفضي إلى استخدامها كثكنة لإعادة إحياء الإنسان الفلسطيني الفاعل والمقاوم، وذلك أنَّ كل أسير يختار استراتيجيته في إعادة البناء الّذي حطمته الزنزانة، فالهودلي قام بالتهجد والاستغفار، والصلاة، والتسبيح، الّذي أعانه على

[266] Story, “Alone Inside,”

استعادة أيديولوجيته من جهة، وإبهات/ إهمال/ تخفيف سلطة الزنزانة وعمقها في روحه من جهة آخرى.

الأسير عبدالله وخالد الّذان لم يحصلا على التعبئة الأيديولوجية اللازمة لمواجهة هذا القمع، وضعوا استراتيجية الانتصار علنًا، والانهزام سرًا، ويقول عبدالله "في هذه اللحظات لازم تكون مثل سعيد صالح أو عادل إمام، ممثل، تضحك بس يفتح المحقق الزنزانة عليك عشان تبين إنك مش مكسور، وبس يروح بتنكسر وبتزعل وبتنقهر وبتبكي"، ويشاركه خالد في هذه الاستراتيجية، وهذه الاستراتيجية الجسد يفتعلها بشكل عفوي، من خلال تساوي الصراع بين رغبته في الخلاص والمقاومة، في هذه اللحظات يرغب الأسير كثيرًا في الاعتراف والخلاص من هذه الالام الّتي لا يمكن تفسيرها ولا صياغتها في قالب، الأمر الوحيد الّذي يعيه الأسير أنَّه يتألم، يتألم بسبب العزلة.

تُشكل الشعارات الفلسطينية حول ضرورة الصمود، والكيفية الّتي يُوصم بها الخائن، مخزون قوة هائل لدى الأسرى في قدرتهم على الاحتمال والمواجهة؛ يقول الأسير أحمد وتشاركه بذلك الأسيرة رشا والأسير طارق؛ "لازم أفكر بالناس يلي برة، بثقتهم فيّ، سواء تنظيمي أو أهلي أو اصدقائي، أنا شفت الناس يلي بتعترف كيف بتنحرق برة، يعني الواحد يصمد ويتعذب، بدل ما يظل موصوم طول عمره بوصمة مش رح يقدر يخلص منها"، فالحاضنة السياسية والاجتماعية للأسير تتشرب بداخله لتعطيه مؤشرًا حول وجوب وإمكانية الصمود، وتصبح هذه المخاوف المسيطرة على الأسير مركز قوة وفاعلية في الصمود وعدم الإنكسار والاستسلام، وبالتالي فإنَّ ضرورة استدعاء ما شكَّل الذات قبل العزل والاعتقال مهمة، لأنَّها تُساهم في تماسك الأسير وقوته.

لا بُدَّ أنَّ سياسات الصمود داخل العزل الانفرادي تختلف من تجربة الأسرى النخبة "الضالعين في الأعمال الثورية/ والّذين يملكون أكثر من تجربة اعتقالية" في العمل النضالي والضالعة في العمل السياسي، عن الأسرى الآخرين، من ناحية أنَّ الأسير المؤدلج والنخبة لديه قدرة غير محدودة على

إعادة تشكيل المكان، حتى لو كانت زنزانة مُحاطة بالموت ومصممة للتصفية، من خلال عدم السماح للزنزانة بالسيطرة على الأسير من خلال محو ذاكرته النضالية وتفكيك بنية الأسير الوطنية، وذلك أنَّهم يدركون وظيفة هذه الزنزانة، خاصة أنَّهم بالعادة ما يكونون أصحاب تجربة اعتقالية سابقة، وهيَّ الّتي جعلت منهم نُخبة خبيرة بتفاصيل الاعتقال، وبالتالي فإنَّ وضع حدود للزنزانة في التأثير على أجسادهم والتعامل معها كأنَّها مرحلة للراحة والنوم والتفكير في المشروع الوطني الفلسطيني، حيث يعملون على إعادة إحتواء المصير والمشروع الصهيوني داخل بصيرتهم حتى الوصول لمرحلة الانخراط بالمشروع الفلسطيني مجددًا وهم داخل العزل، وبالتالي يشعرون بأنَّهم أحرار في أكثر المناطق عزلًا وتقييدً وتحييدًا لهم، وهذا ما يُفسر اختلاف تجربة الهودلي وسعدات والبرغوثي ودقة الّذين نشعر أثناء قراءة تجاربهم وكأنَّهم يتحدثون عن السجن وليس منه، الأمر الّذي يأخذ بعد تنظيري أو تأطيري أكثر، فتجربة الألم لديهم يُعبر عنها بقوالب ثقافية وطنية ونضالية وبالتالي فإنَّها تأخذ شكلًا من أشكال التثقيف حول الاعتقال، أكثر من كونّها تصويرًا ووصف لتجربة الألم.

تُدرك هذه النخبة أنَّ سياسة العزلة لهم هي بمثابة تنفيذ قرار بالقتل أو الاعدام الجماعي، وغالبا أن الأسرى الفلسطينيين السياسيين ما يكون قد تم اصدار قرار باغتيالهم، ووقوعهم بالأسر، يعني أن هنالك طرق ووسائل ممنهجة لتصفيته واغتياله، يشارك البرغوثي تجربته "لم أكن أحاول الهروب من واقعي من خلال الأحلام، وإنَّما حافظت على إنسانيتي بتنظيم وقتي، فالزنزانة من اعتادت علي وعلى نظامي، بعد أن تعاملت مع ثقوب الحائط ودخول الفئران الكبيرة من المرحاض، تنظيم النفس من خلال أوقات الاخبار والنشرات، والتعليم والتثقف"، فالسجن الإنفرادي إعادة ترميز للوجود من خلال العزلة (الموت المدني)؛ الّتي جعلت منه انسانًا قانونيًا، فالموت المدني هو اللغة القانونية الّتي تجد (تجسيدها) داخل السجن الحديث، هذه القدرة المدمرة بعنف مستمدة من القوة الفريدة للعزلة الاجتماعية والمكانية؛ لتدمير قدرة السجين على العمل كإنسان متعود، يفرض الحبس الانفرادي عنفًا أساسيًا

ووجوديًا على السجناء، إنَّ هذا العنف يسن ضد الهياكل التجريبية الّتي تجعل من الوجود العملي ممكنًا[267].

على المستوى الاجتماعي يستخدم التعذيب من خلال العزل لإدخال الخوف والترهيب على الجماعات الآخرى بهدف منع الناس من الانخراط في المقاومة، لأنَّ العزل يهدف إلى الحاق الضرر باحترام الشخص لنفسه وتدمير ثقة الشخص في الاخرين، حيث أنَّ معظم الأساليب النفسية وليس فقط العزل، مصممة في الغالب لتشمل الاستنفاذ والوهن[268]، فإنَّ العزل يعمل على تحييد الآخرين أيضًا عن الأسير، مما يُضاعف من آلام الأسير، يقول البرغوثي؛ "الألم في الانفرادي يتضاعف عن الألام الّتي من الممكن أن يعايشها الأسرى الآخرين، فهو الألم الّذي لا يستطيع أنّ يراه أي انسان ويشاهده ويشعر به ويضمده إلّا الأسير نفسه، لذلك غالبًا ما تثيره العواطف والحنين لعائلته".

يهدف العزل إلى إنهاك الأسير جسديًا وعقليًا ونفسيًا، وتحويله إلى شخص خائف، مرتبك، يواجه ذاته بتجرد عن مكوناتها الثقافية الّتي اكتسبها من خلال احتكاك جسده بالجسد العام، تفكيك مقومات الصمود، وإخماد انفعال وحماسة الأسير الأولى نحو مواجهة الآخر العدو وتجسيد البطولة، فيتوقع المحققون وصول الأسير إلى زنزانة التحقيق والبدء بكتابة الإفادة، وإقرار الحق التاريخي "لاسرائيل" بالأرض، مقابل العودة إلى الحياة، إنَّ هذا العبور الّذي يُفرض على الفلسطيني من الحياة في الخارج، إلى الموت في الظل، إلى محاولات لإعادة الإحياء من خلال لقاءات الاستجواب، سياسة مدروسة جيدًا ومدركة من قبل الأسرى، الّذين كان بمقدرتهم وصف هذه الأدوات بدقة وتحديد الهدف منها، كما ووصف اللقاء الأول بالمحقق، والعبارات الّتي تم استقبالهم بها، والكيفية الّتي استطاعوا من خلالها أنّ يتعاملوا مع ادعاءات المحققين، واختيار استراتيجياتهم الّتي تتلائم مع بُناهم النفسية والعقلية والجسدية.

[267] Story, “Alone Inside,”.

[268] Elisabeth Berliner, Bovbjerg and Malin Wiking, “Psychotherapy Treatment of Torture Survivors,”.

العزل داخل غرف العار

يُعد أسلوب "العصافير[269]" أو غرف العار/العملاء، من أخطر الأجهزة الّتي تعمل داخل التحقيق، من حيث ما يحصل بها من تعذيب وإرهاب وتخويف للأسرى، ولا يتم الاعتراف بالتعذيب الّذي حصل داخل هذه الزنازين أمام المحكمة، ولا تحتاج إلى استصدار إذن رسمي من المحكمة، حيث أنَّها جزء أساسي من عملية التحقيق، فداخل هذه الزنازين يتم الحصول على 90% من اعترافات الأسرى، الّذين لم تستطع غرف التحقيق وأساليب التعذيب الحصول عليها[270]، يعلق المحقق كوبي "الطريف في الأمر أنَّ وجود هؤلاء العصافير بات معروفًا جدًا، ومع ذلك ما زال هذا الجهاز يشتغل، فالأشخاص يخرجون من التحقيق بعدها إلى السجن النظامي، ويبوحون بأعمق أسرارهم، لا أعرف لِمَ لا يزال هذا الجهاز يشتغل، لكنه يشتغل[271]".

يتحدث الهودلي في روايته؛

"يعود عامر للتفكير بالطريقة الّتي استدلوا فيها عليهم، وفي ذات الوقت يُفتح باب الزنزانة ويُدفع بشاب مظاهر التعذيب بادية عليه، ويدخل عامر في صراع بين رغبة جسده في التفاعل مع هذا الأسير الضيف، إلّا أنَّ عقله يعطيه إشارات الحذر المكتسبة من التجربة الاعتقالية السابقة، فيفضل الصمت، ويطلب الشاب للتحقيق أكثر من مرة دون عامر ويعود، والعصفور يحاول أنّ يضع حوله هالة من الغموض والفضول لدى عامر؛ لاستدراجه بالكلام، ويبدأ هذا الأسير ببيان خوفه من العصافير، ويطلب هو الصمت من عامر ليكسب فضوله أكثر ورغبته بإعطاءه المعلومات، ليكسب

---

[269] مصطلح يطلق على الفلسطينيين الّذين يعملون كعملاء داخل السجون، والّذين يقومون بانتزاع المعلومات من الأسرى من خلال الاستفزاز والارهاب والحيل والخداع والعنف، حيث يستدرجون الأسير إلى الاعتراف من خلال إجباره على الحديث مع "اللجنة الأمنية" الّتي تُصمم بشكل يشبه التنظيم السياسي الخارجي، ويكون هدف الجلسة المعلن هو حماية أفراد الخلية الفدائية، ومعرفة ما الّذي تم الاعتراف به وكيف سيؤثر على الأسرى، ولكن الهدف المخفي هو الحصول على اعترافات ومعلومات لم يستطع التحقيق أنّ يحصل عليها، ولا يكون العصافير دائمًا في نفس الهيئة والتنظيم، فقد يأخذ دور المنصح الّذي يوجّه الأسير لحمايته من العصافير، أو الرجل الطاعن في السن الّذي يملك تجربة مريرة في السجن، ويحاول أنّ يقدم النصح حول ضرورة الصمود، وذلك حتى يحصل على شعور الأمان من الأسير اتجاه هذا العميل ويبوح له، وقد تكون أيضًا على شكل تنظيم سجني كامل بأقسامه وغرفه، لمزيد من التفاصيل أنظر: سعدات، *صدى القيد*،51-53.

[270] المرجع السابق، 51.

[271] بودن، "فن التعذيب الأسود،" 9.

ثقته"يُضيف الهودلي "إنَّ العصفور مهمته ليس فقط أخذ الاعترافات وإنَّما أيضًا أخذ معلومات اجتماعية وهامشية من الممكن أنّ تستخدم وسيلة للضغط والتحقيق".

قد يأتي العصافير على شكل ممثلي هيئة الصليب الأحمر، الّذين يشكلون حلقة وصل بين الأسير والعالم الخارجي، ويسألونه بعد الاطمئنان عليه إذا كان هنالك رسالة يريد إيصالها لأحد، أو كتابة رسالة لذويهم، وهذا ما حدث مع الأسيرة رشا والأسير خالد وذلك أنَّ هذا الأسلوب هدفه خداع الأسير والإيقاع به، وجعله يسلم المعلومات دون أي تعب وجهد من المحقق، وكسر شوكة الأسرى بأنَّهم اعترفوا خلال حاجتهم الإنسانية للتواصل، ولكنَّ الاسير خالد ورشا كانوا يعرفون أنَّ كتابة أي شيء خلال مرحلة التحقيق هو بمثابة اعتراف. ويقول الهودلي أنَّ هذا أسلوب شائع، ومستمر وقد يكون الممرض أو المحامي أو ممثل الصليب الأحمر مجرد مسرحية يقوم بها العملاء لتصفية قضية الأسير وجمع المعلومات عن الأسرى وسحب الاعترافات.

إنَّ الانسان فرد اجتماعيًا بالمعنى العلائقي؛ أي أنَّه لا يوجد بشر في غياب العلاقات مع الاخرين، فإنَّ الشخص ذاته يتكون في جزء كبير منه خلال تفاعلاته مع الاخرين، وأنَّه لا يوجد (موضوع للحماية) داخل مجال منفصل عن الآخرين، لأنه لا يوجد وجود ذاتي وحدوي مسبق بمعزل عن العلاقات الاجتماعية[272]، وافترض من هذا الطرح أنَّ ما يُفسر اعتراف الكثير من الاسرى داخل غرف العصافير، هو وجود الجسد المحتاج للحماية، لذلك يبدأ بتأسيس علاقات داخل زنازين العصافير، سواء كان يعي أنَّ هذه زنازين عصافير أم لا، إلّا أنَّ جسده يدفعه نحو انتاج علاقة مع الجسد الآخر المُشابه لجسده من ناحية ثقافته ولغته ولباسه.

داخل زنازين العصافير يحدث أيضًا التمويه في استخدام أساليبهم، فقد يكشفوا أنفسهم للأسير وذلك ليعتقد الأسير بأنَّ العصافير مجموعة أشخاص أغبياء يمكن تمييزهم بسهولة، وبذلك لا يتعاطى معهم،

[272] Story, “Alone Inside,”

وعند نقله إلى قسم عصافير آخر يتعاملون بجدية وصلابة يقع الأسير في الفخ، ويقول الأسير طارق في تجربته في زنازين العصافير؛

"نقلوني على عصافير عسقلان، وهم بسرعة كشفولي حالهم يعني كيف يصير في اسئلة مشبوهة، هم فهموا إنَّ أنا كثير بروح على القوة فصاروا يحكو ويتخوثوا بشكل مكشوف، وصاروا يحكو مع بعض إنَّ إنت أبو جهاد قديش معك لحزام المصارعة، قال والله أخر لعبة لعبتها في مصر أخذتها الثاني على الوطن العربي، هلا هو ناصح كرش مش ناصح رياضة، وكثير حكي بس كان واضح كثير إنهم في مسرح، هلا مسؤول التنظيم عندهم أجا قعد معي، بلش يحكي عن حاله إنَّه فجر دبابة في غزة، ونحن بنقدّر باقي أعضاء التنظيم في الضفة، وبعدين صار يتخوث ويبالغ في الحكي، وهذا مش أسلوب غبي ما تتخيل بأنَّ بهالطريقة ساذج، لا هو مصمم دوره بهيّ الطريقة عشان أنا اكشفه، وعلى أساس إنَّ بدهم يوصلوني لنتيجة إنَّ العصفور إنسان غبي، على أساس لما اروح على العصفور الذكي أشوف الفرق، بعدها صاروا يقولوا جهزوا الزاوية، وأنا قلت شو زاوية ومش زاوية وكنت لابس قميص فشمرت عن إيدي وقلت والله إذا حد بقرب علي لاقبروا هون، هيّ الزاوية بتنحطوا فيها إنتو يا جواسيس يا عملاء يا عرصات، وصرت أسب والله لفضح عرضكم، في نفس اللحظة فتح الباب وسحبوني برة ورجعوني ع زنزانتي".

فالعميل يلعب دور المُقيّم للأسير بالإضافة إلى عمله في كسر الأسير وانتزاع الاعترافات منه، وهذا التقييم يساهم في تنظيم استراتيجية سحب الاعتراف من الأسير، أو توجيه المحققين نحو وسيلة قد تعد ناجعة في سحب الاعتراف، ولكن لا يعود الأسير إلى التحقيق إلا بعد استنفاذ كافة وسائل العصافير في سحب التعريفات، وتتنوع هذه الوسائل وتختلف حسب الأسير والتنظيم الّذي يدعيه العملاء، وتاريخيًا تعرض الكثير من الأسرى للتعذيب الشديد والتصفية في غرف العار، ويمكن الإطلاع على العديد من شهادات الأسرى في تقرير "هكذا تكلم المعذبون"، والّذين تعرضوا للخنق والحرق، والتعذيب الجسدي بمختلف أشكاله. إضافة إلى أساليب العصافير في الخداع والكذب على الأسير بشتى الأشكال، لذلك فإنَّ ما حدث مع الأسير طارق، كان دورًا متقنًا حتى يدرك الأسير أنَّ العملاء أغبياء

بدرجة واضحة ويتعاملون بالعنف دائمًا، أي الصورة النمطية الّتي انطبعت في وعي الناس حول غرف العار، ويكمل الأسير طارق تجربته؛

"وأنا راجع ع الزنزانة (في دور مركب للعصافير) هذا العصفور عمرو 50 سنة ورايق من الخليل هو رجل أعمال، هو واحد من حماس وتهمتو إنَّ كان ينقل مصاري لحماس وهم شاديين عليه كثير بسبب هالشي، هلا هو ليش رمى هالكلمتين، بدو يحسسني إنَّ هو عندو ثقافة سجن، وبده يهيئني من خلال شخصيته الهادية الرايقة الراقية، فقلي رحت على العصافير قلتله اه، قال طب خلص منيح هدول العصافير بلعبوش مع الواحد مرتين، هلكيت بتروح يبني على السجن وبترتاح، سألني وين بدك تعيش قلتلو ولا عند حدا، سألني فش إلك تنظيم، قلتلو لا والله مفش عندي تنظيم، قال مهو بزبطش هيك، هلا ببلشوا يقولو هذا ابصر ماله، قلتله يقولوا يلي بدهم ياه مش فارق علي، والله فعلًا صار يعطي مواصفات بالسجن، ومواصفات غرف العصافير يلي أنا رحت عليها، في الجلمة رحت على الجلمة عند العصافير، في أول يومين ما حكوا معي وانا اتطمنت بصراحة، فقلت خلص خلصنا التحقيق، وخلص شكلي أنا عند شباب محترمين، لعبوا دور كثير حلو وذكي، بس صار يبلش عندي شعور وشك من بعض الحركات، ويوم من الأيام وأنا بالساحة وأنا مستغرب إنَّ محدش حكى معي، فجأة نادى علي شب، ورحت، سألني من وين انت ؟ وعرفني ع حاله، وعلى تهمته، وقلي أنا مش عارف ليش جايبيني عند العصافير يعني أنا معروف شو تهمتي وعلى اعترافات، قلي بدي أسألك عن هالناس في بلادكو، سألني عن أشخاص وشو بسووا في حياتهم عشان يتأكد مني وكان عبارة عن أسئلة كثير عامة لهيك تجاوبت معه، وهذا بالنسبة إلي تحول إني أقول أه بعرف،. ولما هو اتأكد إني أنا شخص وأسير نازل ع العصافير مثله، حذرني وقلي إنَّ إحنا عند العصافير، وصار يقلي هدول غلطوا غلطة كبيرة إنّهم جابوني عند العصافير، يخرب بيتهم متيسهم، وبالفعل أنا كنت عند العصافير، وغلطة صغيرة منهم حمتني".

إنَّ الثقة الّتي وصل إليها طارق بأنَّه موجود في حاضنة فلسطينية، تُفسر سبب اعتراف العديد من الأسرى في غرف العصافير، من جهة حاجة الأسير للتضامن والتعاطف وإخبار قصته مع الآخرين للانخراط بهم، ومن ناحية آخرى أنَّ الأسير بعد وصوله لزنازين التحقيق، كما قال الأسير عبدالله "بفكر الواحد كثير أنا مع مين بدي أروح أعيش، مين هم الأشخاص يلي بدي أبدا حياة جديدة معهم" فالاسير ينتظر بفارغ الصبر الحصول على مساحة من الاهتمام من الاخرين الفلسطينيين، ينتظر سماع

الأخبار من الاخرين حول ما يحدث في الخارج، يُريد إعادة ضبط حواسه وسلوكه الّذان تأثرا خلال العزل والتحقيق، لذلك فإن منظومة التحقيق كاملة على دراية بكل احتياجات الأسير الانسانية، ولذلك تضع "عصفور" مع الأسير في أول ليلة عزل له قبل التحقيق، لأنَّ الأسير بالتأكد بحاجة إلى حماية واحتضان ومشاركة مخاوفه، وكذلك يوضع الأسير بعد العزل لأشهر أثناء التحقيق مع العصافير الّذين يستقبلونه كمناضل يستعيد ثقته بنفسه، في الحالتين إنَّ وظيفة العصافير هيَّ استغلال الحاجة للرفقة والكلام والشعور بالتضامن للأسير، للحصول على اعترافات ومعلومات آخرى.

العصافير والعملاء داخل السجون لا يظهرون للأسرى فقط، فالأسيرات أيضًا لهن نصيب في تجربة هذه السياسة، ولكن كما تقول الأسيرة رشا بأنَّ من السهل كشف "العصفورة" وذلك لأنَّ عدد الأسيرات أقل بكثير من عدد الأسرى، وبالتالي يمكن حصر الظاهرة، وتقول الأسيرة رشا "رحت على العصافير، على أساس أسيرة، وكانت تظل تحكي بنفس موضوع قضيتي، وهون أدركت مباشرة إنَّها عصفورة، قعدت ثلاث أيام بعدين طلعت، بعد أكم يوم جابوا وحدة وقالت أنا من بلد من جنبكو قالت أنا اعتقلوني من القرية الفلانية وبدي تساعديني شو أحكي بالتحقيق".

يقوم الأسرى بمقاومة زنازين العملاء/العصافير من خلال عدم التحدث/الصمت، فالصمت هو الإمكانية الوحيدة للأسير للحفاظ على شخصيته، وعدم السماح بتدمير هوية الأسير، فإنَّ الشعور الّذي سُصيب الأسير في حالة المقاومة بالصمت تحميه من الشعور بالإذلال داخل هذه الزنازين الناتجة عن الاعتراف، والانكسار بالتالي أمام المحققين، فجسد الأسير المعزول الّذي يحتاج ويبحث عن الحماية داخل غرف العملاء يقاوم الإندماج بغرض الحصول على الحماية من قبل الآخرين، ويبني الأسير المقاوم لهذه السياسة عزلًا آخر حول جسده من خلال الصمت.

العزل داخل زنازين التحقيق

تجادل ميعاري بأنَّ محققي الشاباك يرسمون الوقت القمعي للاستجواب، وهو الوقت الأبدي والوحيد الّذي يمكن للفلسطينيين تصوره، وهو أيضًا ترسيم مساحة الفلسطينيين باعتبارها الفضاء الضيق الوحيد للأسير، من خلال توظيف المكان والزمان وإعادة ضبطه من خلال تقنيات الاستجواب، حيث تدفع الأسير إلى الاعتراف والاستسلام لهم كونه المخرج الوحيد من هذه الزمانية والمكانية المحددة[273]

في العزل أثناء جلسات الاستجواب في زنازين التحقيق، يكون الهدف الأساسي كسر شوكة الأسير ومعاملته بدونية وبصورة حيوانية، هدفها إغراق الأسير في همومه الحالية في زنازين التحقيق، وحجب اهتمامه بالأمور العامة والجوهرية المرتبطة بالهم العام الاعتقالي والقضية الوطنية، الّتي وجد في الأسر من أجلها، ويقول المحقق كوبي "إنَّ العزلة والخوف والحرمان تجبر الأسير على التراجع، وتجعل رؤيته عن ذاته ضبابية، ما يسهل جعل الأسير يبدل أولوياته، فالتحقيق يعمل وفق مكونات وعناصر أساسية؛ وهي: الإعداد، والتحقيق والمسرح؛ ففي الإعداد يسعى المحققون إلى تليين الأسير وعزيمته، وجعله أكثر قابلية للانكسار أمام المحققين[274]". وتشكل عملية الاستجواب من خلال مجموعة من المحققين مع أسير لوحده هذا الإعداد للتحقيق، الّذي يجبره على الاعتراف بالآخر، كآخر ليس عدو، والاعتراف بالذات كذات مذنبة، وذلك من خلال محاولة المحققين سحب التوازن والاستقرار من داخل الأسير، من خلال الاستفزاز في التعامل والصراخ، والسب والشتم، أو الحديث عن الحياة اليومية الطبيعية "للاسرائيليين والمحققين" وأنَّ الأسير الفلسطيني وحده يبقى داخل الزنازين معزولًا عن عائلته ومحيطه بسبب "ذنبه".

---

[273] Mear, Sumud, *A Philosophy,* 42.

[274] بودن، "فن التعذيب الأسود،" 2.

يتحدث الأسير خالد؛

"المحقق بقلي أنا واجبي أخذ منك معلومة وإنت واجبك تصمد، وهيك خلصنا"، ويضيف " هذا المحقق لكويس بفكر حاله صاحبي، بصير يلعب دور برومثيوس يلي سرق النار الإلهية، بصير يقلك دير بالك إنتّ رايح على مدرسة الارهاب وأنا رح أساعدك، كون بحالك وكون كويس، وتتأثرش بحد، هذا الدور الأبوي في السجن مكان خطير، بقلي تغلطش، كل إنسان بغلط بس ما تكرر غلطك، التعامل مع الموقوف في هذه الحالة، من خلال ضعف الأسير وارتباكه، وهان كمان بقدروا يعرضوا على الأسير يشتغل معهم، أو يقصوه" الأسير بعرف بهذه الاستراتيجية لذلك حتى نجاحها يعتمد على تعاطي الأسير وتطوعه في المعلومة، وليست الفاعلية لهذه الاستراتيجية بحد ذاتها".

يكمل الأسير خالد "في لحظة أنا اقتنعت وصدقت، بس بقدرش اعترف بهذا الشي إني صدقت، لهيك ظليت أعاند." إنَّ الأسير خالد من جهة كانت لديه مخاوف حول زنازين التحقيق ووسائل التعذيب، وبالتالي إنَّ أسلوب العزل داخل زنازين التحقيق كان له دور كبير في كسر الكثير من الصور المألوفة لديه حول "بشاعة/ قسوة/ وحشية التعذيب"، وظهر ذلك في تكراره في نقاشه عبارة "اسرائيل" دولة قانون، وأنَّه بالفعل لا يوجد تحقيق قاسي، والاعتراف هو قرار فردي، واستطاع المحققون من خلال هذا الأسلوب وضع تصورات مختلفة لدى الأسير حول الآخر المستعمِر، وبالتالي فإنَّ ما حدث مع الأسير خالد هو محاولة لإعادة صياغة صورة "الاسرائيلي/التحقيق/السجن" في تصوراته وأفكاره، ولكنَّ هذا المحو لم يصل إلى درجة التأثير في وعيه عن ذاته وحقه في المقاومة، فمن جهة يقول خالد إنَّ "اسرائيل" لا تستخدم التعذيب بحق الأسرى، ومن جهة آخرى يقول إنَّ من حقه كفلسطيني ومستعمَر المقاومة والنضال ضد الاستعمار.

يسعى المحقق إلى تجريد الأسير من الشعور بالانتماء لمجموعة قد تشعر بالتعاطف والتضامن معه، وتشعر بأنَّه ما زال جزءًا لا يتجزءِ من المنظومة التنظيمية الّتي ينتمي لها، ويشير البرغوثي في نصه إلى الاحباط أيضًا والسخرية من سحب الامتيازات الّتي حصلت مع البرغوثي بعد اعتقاله، فقد تم تعيين آخر مكانه في منصبه في التشريعي وفتح، وخسر التسهيلات والمغريات الّتي كان يحصل

عليها من هذا المنصب كالسفر والتنقل والسيارة، إنَّ المحققين أرادوا من خلال تحطيم الرموز والقيم الكفاحية والنضالية لدى الشعب الفلسطيني، أنّ يسود الإحباط واليأس والشعور بالعجز، ومن ثم الاستسلام"، "كان المحقق يحاول باستمرار بث شعور الخذلان في نفس البرغوثي بادعاء تخلي الرئيس عرفات والسلطة والتنظيم والشعب عنه، وأنَّ عملية اغتياله جاءت بعد مراسلات كثيرة مع التنظيم السياسي في محاولة لتسهيل عملية تصفية البرغوثي، وأنَّ الكثير من الفدائيين والمناضلين قد وقعوا على اعترافات داخل التحقيق بخصوص العمليات والتمويل والّتي تشير بشكل مباشر إلى البرغوثي.

هذا الشعور بالتخلي وفقدان التواصل مع المجموعة المناضلة والمجتمع الفلسطيني، ممارسة ممنهجة من قبل آلية التحقيق لتصفية الشعور الجمعي للأسير، وعزله حتى بعد التحقيق، وزرع نفس الفردية في روحه، وزعزعة ثقته بالكل الفلسطيني، وحتى بالقضية الّتي يناضل من أجلها، إنّها كسر للمعايير والإيمان الّذي يحمله الأسير، ليصل الأسير لمرحلة الاعتقاد والجزم بأنَّه لا حلَّ ومناص إلا بالتفاهم والاستسلام مع المحقق، وتقبل الوضع من احتلال وممارسات وقمع وعنف وتحقيق وتعذيب.

التحقيق الجماعي/الثنائي مع الأسير

في الحقيقة إنَّ الأسرى ذوي التجربة الاعتقالية السابقة وتحديدًا قبل الانتفاضة الشعبية الثانية، قادرون على فهم هذا الألم الجديد (الناتج عن العزل) والتعبير عنه أكثر من الاسرى ذوي التجربة الأولى، حيث يدرك الأسير ذو الخبرة الاعتقالية بأنَّ هذه الوسيلة (العزل) جاءت مكان الصعق بالكهرباء والشبح لأيام طويلة، والتعذيب بالدولاب والجلد واستخدام العصي والإذلال الجسدي، إلّا أنَّها تترك ذات الألم بداخل الأسير، ألم لا يوجد ما يُشير إليه ويظهره، مُبطن داخل الاسير، لا يستطيع أنّ يكشف عنه إلّا أسير آخر خاض ذات التجربة، لذلك وأثناء المقابلات الجماعية مع الأسرى والمكونة من الأسير (أحمد/خالد/ عبدالله) أصحاب تجربة أعتقالية أولى؛ وجدت نفسي للحظات خارج النقاش، لم استطع أنّ أفهم تحديدًا ما هيَّ الآثار الّتي تركها العزل عليهم، لم يكونوا يتكلمون لغة واضحة، كانت

لغة الجسد تتحدث أكثر، بحيث يمسك الأسير من أعلى قميصه ويحاول تمزيقه بحركة عفوية، أو أنَّ ينظروا في عيون بعضهم بشكل مُطوَّل دون الحديث المتواصل الّذي من الممكن أنّ يساهم في كتابة ماذا يحدث في زنزانة التحقيق أثناء التحقيق الجماعي، يكتفون بذكر شذرات "أصوات عالية، صراخ، محاولة احتواء، تصرف بطيبة، طرق على الطاولة، مشاكل بين المحققين"، يجلس الأسير لا يفهم ما الّذي يحدث، إلّا أنَّه داخل ساحة حرب لا يعرف إذا كانت تشمله أو لا، والأثر الّذي يبقى منها تلك الأصوات العالية، يرغب الأسرى في لحظات الحديث عن هذا العزل بإغلاق أذانهم من خلال ايديهم، وكأننا في زنزانة التحقيق، الجسد يتحدث أكثر.

ثنائية المحققين (وجود محققين اثنيين داخل زنازين التحقيق، كل منهما يؤدي دور؛ أحدهما المحقق الودود والصديق واللطيف الّذي ينبذ العنف، والآخر هو الصارم والشديد، والّذي يلجئ للصراخ والسب والشتم والبصق) داخل مرحلة الاستجواب، لعبت دورًا كبيرًا في احتواء العنف والمقاومة داخل الفلسطيني من جهة، ومن جهة آخرى وسيلة تطويع إرادية، يقول المحقق كوبي في تقنية (المحقق الطيب/الشرير)؛ أنَّ المحقق الحذق يعرّف متى يستخدم الضغط مع الأسير ومتى يستخدم معه الأسلوب الطيب واللين، وهذه استراتيجية مختلفة بين أسير وآخر[275]، ويكمل جورجيو "أنا أقوم دائمًا بدور الشرطي الطيب، ولا أحتاج إلى وجود الشرطي الشرير، لأنَّه وفي الحقيقة أي شخص يود أنّ يخبر قصته مهما كان ذلك مؤذيًا لهم، ومهما كان عليهم أنّ يتكتموا على الموضوع، إنَّهم "الأسرى" يريدون إخراج القصة من صدورهم، مع إشعار الأسير بالأمان عن طريق مساعدته إذا اعترف وأظهر ندمه[276].

---

[275] بودن، "فن التعذيب الأسود،" 7-8.

[276] المصدر السابق 10.

فالعزلة تنتج شعورًا بالوحدة الكاملة من خلال قطع الاتصال الاجتماعي الحقيقي، وجميع المفاهيم الطبيعية مثل الوعي بالوقت والتاريخ والموقع، وهذا يؤثر على تماسك الأسير، ورغبته في الكلام، ولكن عندما يُسمح له بالحديث يكون في حالة لا يستطيع فيها التحكم بكلامه وتفكيره، أي يفقد قدرته الذهنية، مما يسهل السيطرة للتحكم في أفكار ومشاعر الأسرى وسلوكهم[277].

إنَّ عينة الأسرى الّذين تمت مقابلتهم كانوا مدركين أنَّ ثنائية المحقق أو جلسات التحقيق الجماعية مسرحية لا أكثر، ويرجع ذلك لكثير من العوامل، سواء أكانت تعبوية وطنية أو الحس الأمني بالخوف، أو عدم التعاطي مع أي محقق كان، يقول الأسير عبدالله؛" شفت أسلوب المحقق البشع والمحقق لمنيح، أنا كنت فاهم إنَّها مسرحية، أنا كنت استفز وأصير بدي أطلع من الكلبشات واقتلهم، كان مرات يجيني مدير المسكوبية يسب حكي وسخ على الأم وعلى الأخت، والمحققين العاديين ما يسبوا وكان يحكو إنّهم ما بحبو المدير، كان في أمور لازم أرسم إلها حدود وأوقف لها لما بنسب على شرفي، عشان هيك كنت أرد أسب عليهم"،

يعقب أيضًا الأسير طارق؛

" كان في محققين يحققوا معي باستمرار، هلا مرات أكثر بس تابع معي محققين من البداية، فكان في محقق اسمو "يوسي" والثاني اسمو "أبو ربيع"، يوسي بمثل الجنرال يلي جاي من حدود غزة، الحدا يلي فش معو تفاهم الحد يلي بظل يمسك طاسة الكولا بعد ما تخلص ويضغطها عند ذاني بشكل كإنَّ بمزعها، يعني إنتَ رح يصير فيك هيك، واللي بظل يسب ويتف، وكان يظل يحط وجهو مقابل وجهي ويظل يتف، وأبو ربيع أنا بجيال ولادو وولاد ولادو مبحبش يشوفني بهذا المنظر لدرجة إنَّ مرات لما يوسي بشد كثير بالتحقيق هو بخجل وبطلع، بس هو مش قادر يسوي إشي، هذا الأسلوب بنجح عند كثير ناس لدرجة إنك بتصير تخلق لحالك مبررات عشان تعترف مع إنك بتعرف إنَّ لثنين نفس الشي، وما تحكي مع هذا يوسي يلي بتحدى فيك، أنا مرَّت عليّ كثير حالات بدهم يحكوا قدام المحقق الفلاني ع أساس يظل هذا الأسلوب مستمر".

[277] Vorbrüggen, and. Baer, “Humiliation: The Lasting Effect of Torture,”.

يقول الهودلي إنَّ هذا التحقيق الثنائي الّذي يستمر فيه المحقق الطيب بالنصح وإلقاء النكت ومحاضرات السلام، يهدف إلى إرهاق نفس المعتقل واتعابه ومنعه من السهو والنوم بغية الحصول على زلة لسان في مرحلة اليقظة بين النوم والصحوة، والتأكيد بكل الوقت على توافق تطلعات وتوجهات المعتقل الفلسطيني مع المحقق من ناحية السلام وعدم قتل الابرياء وضمان عدالة شاملة، وبالتالي كسر حاجز العداوة الّذي يمنع الأسير من الاعتراف، مما يُعطي معنى آخر ايضًا للاعتراف كشخص يتحدث بخطاب على هامش المنظومة الفلسطينية، وليس فلسطيني مسحوق بداخلها، وبهذا يحقق العزل هدفه بفصل الأسير عن المنظومة الّتي شكلته.

إنَّ هذا ما تصبو إليه السلطة، السيطرة على الإرادة الداخلية التّي يمكن الإشارة إليها بمفهوم الروح، من خلال إنهاك الجسد، وتتعدد أشكال إنهاك الجسد بين سلطة وآخرى، وهذا يساعد بدوره في تشكيل الذوات، وبناء هوية خاصة، مختلفة عن سابقتها، ومرتبطة كل الإرتباط بعلاقات السلطة الجديدة التي يتعامل معها الجسد، ولا تتشكل هذه العلاقات على جسد المحكوم أو المذنب فقط، كما ذكرت سابقًا، بل على أجساد الآخرين ونظرتهم إتجاه هذه التجربة، لذلك يرى نيتشه الجسد في صورته القوية من خلال ملكة النسيان التي تساعده على الإستمرار بالحياة، وانتظار أو خلق فرصة التحدي والمواجهة المحتملة مع السلطة، فيما يرى فوكو بأن هذه السلطة ليس المهم ضرها أو نفعها، المهم هو أن ننظر لها بمفاهيم إيجابية حول حدود وخيارات أجسادنا في التعرف على السلطة وتشكيل ذواتنا.

الفصل الخامس: الوعي الجسدي للأسرى في زنازين التحقيق

مقدمة

يهدف هذا الفصل إلى توضيح آثار وسائل التحقيق/التعذيب وخطابات الاستجواب على الأسرى الفلسطينيين، والكيفية الّتي يعبر فيها الأسرى عن تجربتهم في المقاومة والانهزام/الضعف خلال هذه المرحلة، حيث أنَّ الوعي الجسدي للأسرى خلال التحقيق يعكس العديد من العوامل الثقافية/الواعية؛ مثل تصورات الأسير عن ذاته، وعن صلابة ارتباطه بقضيته، وعن أثر الأحزاب الفلسطينية في تعزيز وعيه وقوته، وتأثير الثقافة الفلسطينية بتحولاتها المستمرة على صموده أو ضعفه.

هذه العوامل الواعية الّتي بلورها الفلسطينيون من خلال تجاربهم في مقاومة الاستعمار، يستخدمها الأسير للنضال ضد محاولات المنظومة الاستعمارية الاستيطانية "الاسرائيلية" في كي/محو وعي الأسرى الوطني والثقافي والنضالي، من خلال ترسيخ أفكار تؤكد على عدم جدوى المقاومة الفلسطينية أمام التفوق الأمني والعسكري، والمعرفي "القانوني/الأخلاقي" للاستعمار، وذلك من خلال استخدام عنف المكان "السجن" وعنف الزمان "التحكم في الوقت"، بالإضافة إلى العنف الجسدي والنفسي "التعذيب/خطابات الاستجواب".

إنَّ مبدأ المحو يقوم على هدم عمق الشيء، سواء عمق المكان بتاريخيته ودلالته، أو محو الإنسان من خلال تفكيك عمق أصلانية الفلسطيني، ودلالاته التاريخية وارتباطه في الأرض، ومحو قدرة الفلسطيني على المقاومة، وفي المقابل إعادة إنشاء لبنية مستعمَرة خاضعة ومنهزمة أمام المستعمِر، للحيلولة دون تشكّل مقاومة فلسطينية منظمة تسعى للتحرر من الاستعمار.

في المقابل، يُقابل كل عملية محو وإنشاء استعمارية "اسرائيلية" محاولات جدّية لمحو وإعادة إنشاء فلسطينية وطنية، بمعنى أنَّ الاستعمار يمحو ليعيد بناء وعيّ وجسد ذو نمط خاص من الضبط، قريب

إلى بنية المحو الفيزيائي، ولكنّ بوجود الفلسطيني، تشبه تمامًا فكرة "الحاضر الغائب" الفلسطيني غير المُعرَّف، دون هوية تعرّف به، والفلسطيني في المقابل فاعل وضالع في هذا المجال، فالتاريخ الفلسطيني مليئ بنماذج المقاومة الفلسطينية والصمود والمواجهة في انتزاع هويته الوطنية والتأكيد عليها، من خلال المواجهات باستخدام القوة العنيفة والقوى السلمية، ومن خلال نماذج الصمود الّتي تم تأطيرها برمزية تجاه كل سياسة يُحاول المستعمِر أنَّ يغرق الفلسطينيين بها خلال حياتهم اليومية، مثل سياسة الاعتقال الّتي تدفع بمشهد الاقصاء والاعتقال بأنّ يكون مشهدًا عاديًا إلّا أنَّ الأسير في اللحظة الّتي يتم اعتقاله فيها، يأخذ قدسيته بالخطابات الفلسطينية الّتي تؤكد بالصميم على فعل المقاومة وعلى الوعي الفلسطيني اتجاه سياسة الاعتقال، فعنف مشهد الاعتقال والمداهمة والعزل، أصبح وعيًا وجزءًا من ترميز الفلسطينيين في سياق المقاومة والفخر، وبدل أنّ يتم قمع الفلسطينيين أكثر، تحول الأسير إلى وسيلة لإعادة إحياء القضية الفلسطينية، فهذا الأسير أصبح بوصلة يوجه البصر نحو كل تفصيلة في حياتنا اليومية، بمعنى آخر هذا الجسد المقاوم هو الّذي يُحرّك القضية الفلسطينية، وكذلك يُحرك عناصر الهوية الفلسطينية ويُعيد بناء ما يتم محوه، سواء ما يتم محوه من خلال سياسات الاستعمار، أو من خلال ثقافة "السلطة الفلسطينية تحت الاستعمار".

حاولت الدراسة فهم معاني الجسد الفلسطيني في غرف التحقيق، كجسد يحمل كل التصورات والتشظيات الممكنة داخل هويته، والناتجة بالأساس عن تدهور الوضع السياسي العام على الكل الفلسطيني، وأزمة الهوية الّتي خُلقت بفعل الاستعمار، فإنَّ كل التناقضات الّتي يحملها الجسد الفلسطيني تُصبح نقاط قوة وضعف مُكثفة وظاهرة على السطح أثناء العزل في مراحل التحقيق، ويكون الوعي الآلية الّتي تحكم وتنظم عمل الجسد وسلوكه، فالأسير الفلسطيني أمام عدة خيارات وهيَّ فعليًا ما تظهر من خلال تجاربهم؛ الأول: أنَّ يقوم الأسير الفلسطيني بتطويع كل هذه التناقضات والتشظيات في هويته وتحويلها إلى مصدر من مصادر القوة الّتي تدفع بالأسير إلى المواجهة

والمقاومة كخطوة تلحق الصمود، الثاني: أنَّ يشعر الأسير بأنَّ كل ما يُقال وما يحدث داخل زنازين التحقيق هو الحقيقة الوحيدة في هذا العالم، وهذا ناتج بالأساس من ظروف الاعتقال الّتي تعتمد على العزل والإخفاء، وعلى تشكيل ظروف مصطنعة تساهم في الحيلولة دون استقرار الجسد وتكيفه مع ظروف القمع، بمعنى فهمها ومحاولة تفكيكها لمقاومتها.

تنبع أهمية الدور التوعوي ووجود أيديولوجية تعمل على توعية الأفراد الفلسطينيين من جميع الأعمار في أنَّها تبني أجسادًا قوية ثقافيًا ورمزيًا، الأمر الّذي يُصعّب من عملية محوها، فلذلك تلعب التنشئة الاجتماعية دورًا كبيرًا في تربية الأفراد على أنَّ يكونوا ذوي مسؤولية، بمعنى أنَّ يكون الفرد واعيًا ومتمسكًا بالتزاماته الأخلاقية والوطنية، وذلك بتحدي أهداف المنظومة الاستعمارية الاستيطانية "الاسرائيلية" بمحو وجودهم.

كما وتلعب معرفة الذات والآخر، دورًا إضافيًا مهمًا بالنسبة للأسرى، في مواجهة عمليات المحو الّتي تستخدم خطابات الاستجواب وسيلة لها، حيث أنَّ الوعي الفلسطيني عن الآخر المستعمِر، هو وعي مُضاد لأي محاولة إخضاع وكسر للأسير، عدا عن أهمية وعي الأسير بذاته وبقضيته وبشعبه، الأمر الّذي يعني أنَّ الفلسطيني يدخل معركة التحقيق مُسلحًا بالمعرفة اللازمة والضرورية لحفظ هويته من التشظيات، الّتي يحاول المُحقق أنَّ يستخدمها (التشظيات) كأداة لتفكيك هوية الأسير وتسهيل عملية محوه.

يُضاف إلى العوامل السابقة عوامل داخلية يكتسبها الجسد بنفسه من خلال تجاربه وممارساته اليومية، حول فكرة المقاومة والرفض والمواجهة من خلال الجسد ضد أي عملية استحواذ عليه، والّتي يعبّر عنها الأسرى بالمواجهة اللاواعية؛ ويتفق الأسرى جميعًا على أنَّه خلال التحقيق وجدوا جسدهم يقاوم لا إراديًا في كثير من المواقف، مثل إغلاق القدمين لمنع أي ضرب على أعضائهم التناسلية، وأنّ يأخذ الجسد وضعية معينة أثناء الضرب بشكل يمنع الوصول لنقاط ضعف الأسير والّتي تسبب له ألمًا لا

يُطاق، والتحكم بالوجه أثناء التعذيب بالبصق أو الصراخ أو شد الشعر خصيصًا حينما يكون الأسير في وضعية الشبح أو التكبيل، وهذه المواجهة الّتي يتعلمها الفرد في التعامل مع كل ما لا يطيقه ويتحمله في حياته اليومية، جعلت من جسده يتصرف بندية أمام أي محاولة امتهان وإذلال للأسير، وكانت هذه المقاومة تساهم قدر الإمكان في الحفاظ على صمود الأسرى، وتعزيز وعيهم بالمقاومة والصمود.

هذه المقومات تؤهلهم لمواجهة مرحلة التحقيق، لأنَّ الاعتقال بتصور الأسرى هو امتحان إجباري وإلزامي للفلسطينيين كافة، طقس عبور للفلسطيني إما أنّ يعبر كمقاوم وفاعل ويخرج في المقابل مقاوم ذو خبرة وتنظيم وحنكة، وإما أنّ يدخل مقاومًا ويخرج وهو منضبط وخائف، أو أن يدخل كشخص فلسطيني خائف ويخرج منه مقاومًا وفاعلًا.

على الرغم من أنَّ هدف الدراسة لا يُعنى بالمقارنة بين الوعي الجسدي للأسرى سابقًا قبل عام 1999 وبعده، إلّا أنَّه ومن خلال الاستناد على الكثير من الأدبيات الّتي أرَّخت تجربة الاعتقال والتحقيق والتعذيب للأسرى، ومن خلال العديد من الشهادات الفردية والجماعية الّتي تم توثيقها في العديد من الدراسات، فإنَّ الانهزام خلال التحقيق قبل عام 1999 كان يأخذ بُعدًا عنيفًا على الجسد ويؤثر على ردود فعل هذا الجسد على الآخرين، ويُعزى ذلك إلى طبيعة الثقافة النضالية والثورية والوطنية في ذلك الوقت الّتي كانت تنبذ وترفض وتلاحق المتعاونين، وتوصمهم بوصمة لا يمكن الفرار منها، عدا عن أنَّ وسائل التعذيب وعلنيتها كانت تضع جسد الأسير أمام خيار أسطورة الجسد المقاوم كتجربة الأسير نادر العفوري[278]، بدلًا من أنّ يكون جسدًا منبوذًا ملاحقًا وموصومًا بالضعف والتعاون مع العدو.

---

[278] تعكس تجربة اعتقال وتعذيب الأسير نادر العفوي، سواء في اعتقاله الأول عام 1969 حين تم رميه من طائرة هيلكوبتر بحبل، والطائرة تحلق فوق قرى نابلس الشرقية، أو خلال اعتقاله الثاني عام 1973 الّذي تم فيه اقتطاع حلمة صدره باستخدام الكماشة، وحرق وجهه بالسجائر، وضرب رأسه بالحيط بالإضافة للضرب المبرح، الّذي أدى إلى فقدانه وعيه، وظن الجميع بعدها أنَّه فقد جزءِ من ذاكرته، ولا يُعرف إلى الآن هل فقد جزءِ من ذاكرته أم هي استراتيجيته في الصمود، الّتي أجبرته أنّ يجلس في مصح للأمراض الذهنية في القدس، وتحمل سوء المعاملة الّذي يصل إلى إبقائه بلا استخدام للمرحاض لمدة أسبوع، ومن ثم يتم إطعامه برازه الّذي لم ينظف خلال هذا الأسبوع، ويضطر لأكله

الجسد في غرف التحقيق كان جماعيًا ومكشوفًا في السابق أكثر من الجسد الحالي المخفي بتقنيات تكنولوجية وبهندسة معمارية دقيقة، مُعززة بالسيطرة من خلال المراقبة والمعرفة، هذا الإخفاء المفروض في الوقت الحالي على الجسد أثناء التحقيق يحقق عزلة مُضاعفة قد تُساهم بكسر الأسير/ة وهزيمته/ا كما مساهمتها في إعطاء الأسير قوة وصمود.

زنازين التحقيق في الوقت الحالي مُحاصرة بنمط ثقافي فلسطيني إنهزامي تارة بفعل الانهزامات والتراجعات السياسية الّتي كانت السبب المباشر فيها ثقافة أوسلو حول الكيفية الّتي تتم بها مقاومة الاستعمار، من خلال العمل المنهجي الّذي قامت فيه أوسلو لكسر المقاومة المسلحة، وتحويل المقاومة إلى مجموعة من الصور والأشكال السلمية غير المتناسبة مع الفعل الاستعماري العنيف.

ونمط ثقافي قوي وفاعل تارة آخرى بفعل المقاومة المتجددة سواء من خلال مقاومة الاحزاب العسكرية في غزة، أو من خلال المقاومين الاستشهاديين في الضفة الغربية والقدس، ومقاومة الأسرى قبل اعتقالهم، وتنفيذهم لأعمال ثورية مختلفة، أو من خلال الاحتجاجات والمظاهرات في الداخل الفلسطيني المحتل من جهة آخرى.

كما والتحول الّذي طرأ على الكيفية الّتي يتعامل بها "الاسرائيلي" مع الفلسطيني قديمًا وحديثًا، فقبل عام 1999 لطالما تم التعامل مع جسد الأسير كجسد جماعي يُعاقب ويُعذَّب ويتم الضغط عليه بشدة أكثر لأنَّه ينتمي لفصيل معين، أو لأنَّ وجوده في المعتقل صادف وقوع عملية ما، على عكس التحقيق في مرحلة ما بعد الانتفاضة الشعبية الثانية، الّتي أصبحت فيها المفاهيم فردية أكثر لكسر

حتى لا يعطِ أي ردود فعل تثير الشك نحوه، أو من خلال عملية الاستحمام الّتي كانت عن طقس عبور نحو الموت، حيث يتم ضخ المياه في أنبوب ذو ضخ عالي، وتسليطه على اعضاءه التناسلية، وتبقى المياه تتلاطم بداخله إلى أنّ يفقد وعيه، والكثير الكثير من الانتهاكات الّتي كان يتعرض لها من زوار المصح، ومن الشرطة والضباط الّذين وضعوا غرفته مقابلة لمكتب الضابط، وزرعت بكاميرات المراقبة، الّتي كانت تكبله أكثر من التجربة المريرة الّتي مرَّ بها. تم الحصول على المعلومات من خلال ندوة ثقافية أعدها ملتقى نبض الشبابي" مع الأسير نادر العفوري حول تجربته الاعتقالية، بتاريخ (2019/10/10) ويمكن الوصول إليها من خلال الرابط <https://www.facebook.com/MoltaqaNabd/videos/487434405317142/>.

الأسرى، بدلًا من كسر الانتفاضة أو الشعب كاملًا، تم اعتماد استراتيجية كسر الفرد الأسير الواحد وعائلته واصدقاءه، وذلك بسبب تراجع دور الأحزاب في تأثيرها على الأجساد المقاومة من جهة، والتوجه نحو العمل الفردي من جهة آخرى، وهذا له دلالاته عند قراءة هذا الجسد ثقافيًا، بفردانيته الّتي تمثلت بوجود وترسيخ طابع العمليات والنشاط الفردي، أو التشكيك المستمر في الآخرين، أو جدوى بعض الممارسات المقاومة للاستعمار، فهذه الأفكار الّتي حاولت استراتيجية التحقيق بعد الانتفاضة الثانية زرعها في سلوك وإرادة الأسرى، لم تنجح في قمع فعل المقاومة، وإنَّما صقل السلوك الفلسطيني في المقاومة بشكل أكثر حذرًا.

في سياق هذه التحولات العامة، كيف يمكن قراءة التحولات الّتي كان من الممكن أن تطرأ و/أو طرأت على الوعي الجسدي للأسرى الفلسطينيين، أثناء اعتقالهم وخلال مراحل التحقيق المُختلفة، وسيتم الإجابة عن هذا التساؤل في ثلاثة محاور، الأول: يجيب على تساؤل الكيفية الّتي يتشكل بها الوعي الجسدي للأسرى من خلال تجربة الألم الجسدي/النفسي الّذي يقوم عليه مبدأ الاعتقال والتحقيق، ومحاولة محو الجسد الفلسطيني فيزيائيًا/رمزيًا، وبالمقابل مقاومة الأسرى لهذا الألم أو انهزامهم أمامه.. االمحور الثاني: يناقش الكيفية الّتي يعمل فيها العزل على محو وعي أجساد الأسرى الفلسطينيين أثناء الاعتقال وخلال التحقيق، مع الأخذ بعين الاعتبار الكيفية الّتي يتكيف/يقاوم أو ينهزم الأسير أمام العزلة، وكيف ينعكس هذا على وعيه.

المحور الثالث: يناقش فكرة المعرفة والسلطة، كمعركة متنازع عليها بين الأسير والمحققين منذ اللحظة الأولى للاعتقال، وأهمية هذه المعرفة في تعزيز صمود ومقاومة الأسرى، ومعنى عزل هذه المعرفة عن الأسير بشكل كامل، كما ويناقش هذا المحور فكرة المعارف كونها نقيض وسلاح يستخدمه الأسير كاستراتيجية صمود ووعي مضاد أمام المعارف والتقنيات والتكنولوجيا وأدوات القمع الّتي يمتلكها

المُحققون، وأخيرًا سيتم الحديث حول دور الصمت والمعرفة لدى الأسير من جهة والمحقق من جهة آخرى خلال جولات التحقيق، في تقييم الأسير لوضعه وقدرته على الصمود.

المحور الأول: الألم الجسدي وعلاقته بالوعي

يقول نيتشه حول الألم والذاكرة: "إنَّ دور الألم صنع الذاكرة، وتعليق النسيان كملكة مضادة للألم"[279] ويمكن أنَّ نفهم من خلال هذا الطرح أن الألم الّذي تُمارسه وسائل المحو الاستعمارية "الاسرائيلية" على أجساد الأسرى الفلسطينيين، والناتجة عن التعذيب الجسدي الّذي يستهدف الجسد بقتله أو تشويهه أو إعطابه، أو إرهاقه وحتى إقصائه، هو ألم يقوم على صناعة ذاكرة للأسرى وللمجتمع الفلسطيني عامة، هذه الذاكرة وظيفتها تنويم الجهاز العصبي والذهني[280] للفلسطينيين من خلال الأفكار الثابتة (حول التبعية/والتفوق العسكري الاسرائيلي، وعدم جدوى المقاومة) الّتي يتم نقشها داخل وعي الأسرى، وتأخذ هذه الأفكار درجة ثباتها من شدة الألم، وشدة معنى الألم أيضًا، وذلك للحيلولة دون مقاومة الاستعمار والظلم، وبلورة فكر مقاوم وواعٍ.

يحاول المُحقق منع الأسير من النسيان؛ لأنَّه مَلَكَة رادعة للألم، ومضادة لتشكيل ذاكرة منقوشة بالقمع والهيمنة، لهذا يقوم المُحقق بإرهاق الأسير منذ لحظة الاعتقال الأولى بالتعذيب الجسدي والنفسي، بحيث لا يترك مجالًا للنسيان، ولا إلى هضم التجربة والاستفادة منها، وإنَّما إدخال هذا القمع والخوف دُفعة واحدة إلى إرادة الأسير لتنضب، وبهذا الإرهاق فإنَّ المحقق لا يُؤَمِّن الاعتراف فقط، بل يُؤَمِّن بجانبه جسد يحاول محوه وإعادة بنائه، بما يُحقق رغبة أي سلطة استعمارية بإنتاج الجسد الخاضع/الساكن.

---

[279] نيتشه، *في جنيالوجيا الأخلاق*، 86،87،90.

[280] المرجع السابق، 87.

إنَّ الفكرة الأساسية الّتي ناقشها المحقق كوبي حول أهمية القمع والإرباك، في قراءة جسد الأسير وعواطفه وانفعالاته، وفي تحديدها للاستراتيجية والكيفية الّتي سيتم فيها تطويع الأسير ومن ثم التجهيز لعملية المحو الثقافي ما أمكن، من خلال إرباك الأسير، أو بتعبير الأسير عبدالله من خلال "ضبع الأسير"؛ أي إدخال الخوف في أعماق الأسير، وأنَّ يصبح الخوف من يتحكم بجسد ووعي الأسير، فالجسد في هذه اللحظة يقف بشكل موازٍ للثقافة والأيديولوجية الوطنية والثقافية السياسية الّتي يحملها الأسير، لأنَّه بدأ فصله عن هذه الثقافة ظاهريًا، فيصبح هذا الخط الموازي، يحمل نقطتين الأولى تسحبه باتجاه "الأنا" الفردية وحمايتها، وذلك أنَّ الأسير يُجبر في الظروف القسرية خلال مراحل الاعتقال على التفكير في الخلاص الفردي من شدة الألم، والنقطة الثانية تتمثل في وعي الأسير بذاته ووعيه بمواجهته مع الآخر المستعمِر/المحقق؛ فهيَّ ذخائر القيم والثوابت والثقافة الّتي تعمل كمحفزات للقوة والقدرة على الصمود والمواجهة في المراحل القادمة بما فيها من تعذيب جسدي ونفسي، وعادة ما يتأرجح الأسرى بين هاتين النقطتين في محاولة للوصول إلى الاستقرار والتوازن للخروج من زنازين التحقيق بالحد الأدنى من الألم والامتهان للذات والكرامة الشخصية.

في لحظات الاعتقال الأولى، تترتب أمام الأسرى العلاقة الكولونيالية بأوضح صورها، سواء من خلال مداهمة المنازل في أوقات حميمية وخصوصية جدًا للبشر عامة، أو من خلال استخدام القوة، واستخدام وسائل الإرباك الّتي تعتمد على المفاجأة من خلال فكرة تطويق المنزل ومحاصرة أفراد الأسرة، والعبث في المنزل خرابًا، وتهديد العائلة والضغط على أفرادها، وكذلك انتزاع أحد أفراد هذه الأسرة للاعتقال، والاقتياد نحو المجهول وسط ظروف مُهينة، من خلال النقل في "البوسطة" والمعاملة المهينة الّتي تعتمد على السب والشتم والبصق والإهانات طوال الطريق إلى مراكز التوقيف و/أو الاستجواب، وكذلك الألم الجسدي والتعذيب من خلال الركل والصفع، ووضع الأسير في وضعية غير ملائمة لجسده على أرضية البوسطة، وإطفاء السجائر على جسده، وكذلك وضع أغاني باللغة العبرية

بصوت مرتفع، والصراخ، هذه الظروف هدفها قمع انفعالية جسد الأسير وردود فعله، وتجهيزه كجسد منضبط في زنازين التحقيق.

إنَّ الألم الجسدي المتشكل خلال هذه المراحل الأولى يبقى أثره داخل ذاكرة الأسير، ويبقى عاملًا مُربكًا ومخيفًا في تقييم الأسرى لتجربتهم الاعتقالية، ذلك أنَّ محدودية قدرة الجسد على المقاومة في هذه اللحظات، الناتجة عن الصدمة بتعبيرهم، تجعل الجسد في مواجهة مباشرة ومستمرة مع ألمه، وينشط هذا الألم في حديث الأسرى حول هذه الذاكرة/ الحادثة.

لكنَّ الألم الّذي يتعرض له الأسرى، لم يُشكل رادعًا بالنسبة لعينة الأسرى المبحوثة، حيث أنَّ الاستراتيجية المُطورة هيَّ مقاومة الاعتقال ذاته، بمعنى العمل المحترف والمتقن والسري الّذي يحول دون كشف هذه الأجساد واعتقالها، وكان نيتشه قد عبّرَ عن هذا بقوله " يُعلق النسيان في الحالات الّتي يجب فيها أنّ نوعد الوعود، فليس ذلك أبدًا مجرد ضرب منفعل في عدم إمكانية التخلص من انطباع النقش، ولا مجرد سوء هضم لكلمة سيبقى منّا عنصرًا رهنًا لها، بل هو ضرب نشط من عدم إرادة التخلص، إرادة دائمة لما أريد، ضرب حقيقي من المعرفة[281]"، حيث أنَّ ذاكرة الألم الّتي يسعى المحقق والمنظومة الاستعمارية كاملة أنَّ تجعلها تسيطر على الفلسطيني وتحكمه، إنَّما تُعلق بنفس الطريقة الّتي تم تعليق وعي الأسير الحقيقي أثناء التحقيق/التعذيب، وبالتالي فإنَّها تخزن هذه التجربة المؤلمة في مواقع ومخازن داخل الجسد، تتحول بفعل وتأثير الجماعة الفلسطينية إلى مصدر قوة.

تُضيف لورد؛ إنَّ لنوعية المعارف الّتي نقوم بها باستقصاء حياتنا تأثير مباشر على النتيجة الّتي نحياها، وعلى التغييرات الّتي نأمل أنّ نحدثها خلال حياتنا، إنَّما تتشكل ضمن تلك المعرفة، فمن خلال المقاومة والصمود نعطي أسماء للآلام الّتي لا اسم ولا شكل لها، إلى أنّ تُصبح مُعرَّفة بمُمارسة

[281] المرجع السابق، 82.

بالصمود، إنَّها تلخيص للخبرة الّتي منها انجبت القوة الخفية والقدرة على الصمود والمواجهة[282]، فقد كان يتوقع من الأسرى أنّ يركعوا للمحققين، ولكن الأسرى نجوا كمقاومين أختبروا الآلام الجديدة والقديمة، وتم إعادة صياغتها في معاني قوة داخل المكان ذاته الّذي تُخفى فيه مصادر القوة[283].

تتقول عائشة عودة؛

"قال عزرائيل: اخلعي ملابسك .. انكمشت وتقاطع ساعداي فوق صدري احتمي بهما، لم يمهلني وطلب من الآخرين تعريتي عنوة، قاومت ولم تفد مقاومتي .. أصبحت بلا ملابس كما ولدتني أمي، قاومت كل خلية، كل مفردة في كينونتي، كانت تقاوم، كل عناصر الحياة للمقاومة استحضرتها، كل المظلومين في الكون، وعبر التاريخ، استحضرتهم وتحولوا إلى إرادة تجري كنهر يصب في مقاومتي، وكبرق انبثق في وعيي، بأنَّ إرادتي في تلك اللحظة هيَّ إرادة المقاومة المطلقة لكل المظلومين من البشر عبر كل الأزمان والأماكن، كانت لحظات تعادل زمنًا ممتدًا منذ فجر التاريخ وعبر كل العصور، موحدة كل عذابات البشر من البشر، ثم تتفجر في قلبي رفضًا، يفيض فيغمر الكرة الأرضية ويصبغ البشرية بلونه الأحمر الناصع[284]".

يمكننا أنَّ نفهم هذا التحول العكسي الّذي يحققه الألم الجسدي المُباشر، بأنَّ الألم يتم تضمينه بشكلٍ واعٍ وغير واعٍ داخل معانيه الثقافية، بمعنى أنَّ مسبب هذا الألام لا يجب أنَّ تُخدم نتائجه، أي أنَّ الألم العنيف يحول أبدًا دون الحصول على اعتراف، إلّا كما ذكرت في الفصل السابق، عندما يصبح الألم نقطة مضادة للثقافة، بمعنى أنَّ الألم يفوق قدرة الأسير على الاحتمال، في هذه الحالة ثقافة الأسير ووعيه يُسكَّنان تمامًا، ولكن هذا لا يعني إنهزام بكل الأحوال، إنَّها لحظات ضعف الجسد وعدم قدرته على تعزيز اتصاله بأكوانه وعوالمه الداخلية داخل العزل، ومهما ترتب على الألم في هذه اللحظات،

---

[282] لورد، *الشعر ليس رفاهية* 37.

[283] المرجع السابق، 40.

[284] عودة، 152-153.

وبحسب عينة الدراسة، سواء ترتب عليه اعتراف أو صمود، فإنَّه لا يُشكل محو أو إنكار للذات، بل يتم التعبير عنها كجزء من حالة وقدرة الأسير على الاحتمال.

لذلك إنَّ اختلاف تجربة التحقيق/التعذيب والألم من أسير لآخر تُظهر كيفية إدارة الجسد للألم الّذي يتعرض له، وإلى قدرة ووعي جسد الأسير في تحقيق استقرار وتوازن داخلي، يحول دون الهزيمة أمام هلوسة مدروسة خطواتها، وكذلك يُشير اختلاف تجربة من أسير لآخر إلى التحولات الثقافية والسياسية الفلسطينية، الّتي تُساهم بشكل كبير في ترسيخ مقومات الصمود وكذلك المساهمة في عملية التكيف مع الهزيمة.

أمام كل عملية محو استعمارية يواجهها وعي من نوع خاص، بمعنى أنَّ الوعي يتشكل في أجساد الفلسطينيين بشكل مختلف، يعتمد على طبيعة تجربة الجسد واحتكاكه بالتنظيم الاجتماعي والسياسي الفكري، كما ويعتمد على عدة متغيرات داخلية للفرد مثل العزيمة والإرادة، والقوة النفسية والعاطفية والذهنية، بالإضافة إلى الكيفية الّتي استوعب جسده هذا الألم في تجربته وعمل على تشكيله، واستخدامه كوعي مضاد، ويتم استحضار هذا الوعي بما يناسب كل أداة، فالسرد التاريخي يقابله رواية جماعية مقموعة وأثار مادية تُشير إلى الظلم، والسرد الثقافي للاختلالات الثقافية داخل المجتمع الفلسطيني يقابله ذات الاختلالات داخل منظومة القمع والاستعمار؛

يقول الأسير معاذ؛

"لما كان يحكيلي المحقق عن إنَّ إحنا بنستخدم المرأة للمقاومة مع إنَّ إحنا بنقمعها بنفس الوقت، وعلى الرغم إنّي كنت بعرف إنَّ في قمع اتجاه المرأة بس كنت قادر أجادل إنّ دور المرأة تاريخيًا في النضال تحت أي استعمار هو مرتبط بكونَّها بالأساس امرأة تحت الاستعمار ونضالها أمر حتمي، وموضوع قمعها داخل المجتمع الفلسطيني أو تحررها هي مسألة لا يجب مناقشتها مع العدو، وإذا كان بدو المُحقق يستخدم هالموضوع في التحقيق فبكل بساطة كمان نموذج المرأة يلي بتم طرحه خلال التحقيق "المرأة الّتي تهتم بجمالها وعائلتها وتهتم فقط بالإنجاب" هيَّ مادة جيدة للنقاش فيها

حول المرأة "الاسرائيلية" المستعمِرة الّتي تقوم بالقتل والقمع والتعذيب، في الوقت الّذي يجب أنّ تهتم فيه بأسرتها وجمالها بدلًا من استخدامها كأداة من أدوات القتل، لكيان بعتبر نفسه أخلاقي وبنفس الوقت بستخدم كل أفراده في ماكينة القمع".

يكمل الأسير معاذ؛

"أنا عاملوني بشكل مختلف لأنّي مسيحي، وفكروا إنَّ هذا مدخل وثغرة بقدر يدخل فيها إلي، بإنَّ يأكد على أنَّ المسيحي ما إله إشي بهذا الصراع، وإنَّ أنا بضيع بعمري لما بشارك بالنضال مع مجتمع وأفراد أنا أعتبر أقلية بينهم، وما إلى حقوق بنفس الحقوق السياسية لهم، في هذا الوقت بالذات ما كنت بفكر بهذا الموضوع وبهذا الشكل، كنت بفكر بإني مسيحي أو مسلم أو دون أي دين، أنا تحت الاستعمار، وبتتمارس علي نفس الأساليب من القمع والانتهاكات، والدليل إنَّ أنا هيني في السجن، ومليان أشخاص مسيحيين داخل المُعتقلات، غير الشهداء المسيحيين يلي كان إلهم دور كبير في النضال، والأهم إنَّ أنا كنت واعي لشو بالزبط بدهم يسعوا من خلال هذا الفصل بيني وبين مجتمعي".

إنَّ الأيديولوجية اليسارية الّتي تنشأ عليها الأسير معاذ، وبلورتها للصراع بشكل واضح بين مستعمِر يقمع ومستعمَر يسعى بكل الطرق نحو التحرر، بالإضافة إلى معرفته وقراءاته المختلفة والمكثفة حول "المجتمع الاسرائيلي" ساهمت في عملية التحليل الواعية النشطة اتجاه خطابات الاستجواب الّتي تسعى إلى عزله عن منظومته الاجتماعية، وتحييده بشكل كامل عن العلاقات الإنسانية الّتي اكتسب من خلالها وعيه وتجاربه، فالأيديولوجيا والمعرفة لعبت دورًا كبيرًا في تحدي الاختلالات الثقافية والقيمية الّتي يحاول المُستعمِر/ المحقق الدخول من خلالها إلى وعي الأسير وتحطيمه/محوه.

الوعي لا يقتصر بالرد الأيديولوجي والثقافي لدى الأسرى، فالسب وشتم الشرف يقابله السب والشتم، والضرب يقابله ردة فعل بالضرب أو ابتسامة نصر، والإهانات المتكررة يقابلها صمود وصمت، والشبح يقابله شحذ للإرادة والعزيمة، وذلك أنَّ جسد الأسير في زنازين التحقيق وفي أقسى مراحل الضبط والقمع، لديه أدوات واستراتيجيات المقاومة الّتي تُلائم بُنيته العاطفية والفكرية والنفسية.

فمرحلة التحقيق في وعي الاسرى تعتمد بحد تعبير الأسرى على آمرين: الأول هو الخيال الّذي يرسمه الأسير حول مراحل التحقيق وأدوات التعذيب وتُعد هذه وسيلة إما تُعطي قوة ورغبة في التمرد كما

حدث في حالة الأسير خالد، فقد كان يتصارع بين الصمود والانهزام، فرغبته بالصمود جاءت أنَّ حدود خياله حول ما يمكن أن يتعرض له من تعذيب يفوق ما تعرض له جسده فعليًا، وهذا كان حافزًا للصمود، ومن جهة آخرى فإنَّ هذه المخاوف جعلت من جسده حاضرًا ومتأهبًا لأي ألم أو عنف من الممكن أنّ يتعرض له، أما اللحظات الّتي كان يفكر فيها بالانهزام والاعتراف دون تحقيق فكانت بسبب تخيله المضاعف لجسده تحت التعذيب، وتُعلق لورد على هذا السياق بشكل عام؛ "إنَّ أفكارنا ومخاوفنا وأحلامنا عند استكشافها تصبح منزلًا آمنًا، وعلينا وأنّ ندرب أنفسنا على احترام مشاعرنا/مخاوفنا بتحويلها إلى لغة بحيث يمكن التشارك فيها[285]" وفعليًا فإنَّ خيال الأسير خالد كان سببًا في وضعه في لحظات ضعف من خلال تفكيره في الاعتراف وتسكير ملف قضيته، فقط من خلال تخيله أكثر الأمور إيلامًا له؛ "كنت ميت خوف إنَّ المحقق يحط اشي تحت اظافري ويحاول يقبعهن من مكانهن، كان هذا خوفي الأساسي، والحمد لله إنَّ ما صار"، وفعليًا لو كان جسد الأسير تحت التحقيق العسكري، قد لا تكون هذه المخاوف لتطفو على السطح، ولكن لسمة التخيل القدرة الهائلة إما على تعزيز صمود الأسير أو إعداده للهزيمة، ولكن في كلا الحالتين فإنَّ الجسد اختبر هذا الألم وانطبع في وعيه، سواء تم ممارسة هذا التعذيب عليه أو لا، إلّا أنَّه اكتسب الوعي الخاص به.

الثاني هو أنَّ التحقيق معركة مُصغرة ومكثفة، قد يتقدم الأسير وقد يتقدم المحقق في أي معركة، ولكن الحرب محسومة للأسير، لأننا كفلسطينيين ما زلنا موجودين، وسياسة الاعتقال تزداد يومًا بعد يوم، وهذا يعني أنَّ اعتقال "اسرائيل" للفلسطينيين، وتعذيبهم واقصائهم في محاولة لمحوهم هو أمر غير ممكن، وإذا حدث محو، فيمكن السيطرة عليه بإعادة الإنشاء، ولكننا بحاجة لاستنهاض فكرة التحرر وثقافة المقاومة، كما أنَّ الاعتقال لا يُحقق هدف اعتقال فكرة المقاومة، إنَّما استبعاد هذه الأفكار والأجساد بشكل مؤقت عن ميدان المقاومة.

[285] المرجع السابق،39.

فالصمود ممكن ومجدي بتعبير عائشة عودة، "إنَّه يرسي الأساسات لمستقبل من التغييرات في حياة الأسرى، وإنَّ القدرة/ الإمكانية على الصمود ليست ثابتة ولا فورية، ومن غير السهل الحفاظ على الإيمان في فعاليته، وفي المقابل يمكن أنّ يصمد الأسير لفترة طويلة ويجد موطئ قدم لمقاومة هذا الظلم الّذي يعيشه[286]"

هذا الوعي الّذي يتشكل من خلال تفكيك نظام السلطة القمعي، يُساهم في كيفية استدخال الألم والعنف والشعور بالإهانة والذل إلى عمق الأسير، وهذه الكيفية تُحفز وجود الأسير كإنسان قوي قادر على التحكم في السلطة، بدلًا من أنّ يكون متلقيًا لها فقط؛ فيقول الأسير خالد: "لما ما كان عندي أي نوع معرفة أو وعي ليش أنا ماسك لسلاح وبقاوم، كنت بس بعرف إني صاحب حق وبقاوم، وبالمقابل هم كان عندهم كثير أدلة ونقاش قوي عن وعيهم ومعرفتهم وأحقيتهم، في هذا الوقت بالذات كان لازم اتمسك بموقفي لضعيف، هو إني صاحب حق بغض النظر شو نوع الحق هذا".

فالأسير المقاوم والقوي/الصامد أثناء التعذيب الّذي يسبب ألمًا شديدًا لا يمكن احتماله، هو "الفرد الرئيس"، الّذي لا يشبه إلّا نفسه، والّذي تخلص من أخلاق العادات والتقاليد، الفرد المستقل/فوق الأخلاقي باختصار هو الإنسان ذو الإرادة الخالصة غير التابعة لشيء، الطويلة الأمد الّذي بإمكانه أنّ يُعِد – وفيه وعي فخور ونابض في عضلاته، بكل ما أحرزه هنالك في آخر الأمر وما صار فيه لحمًا ودما بالقدرة وبالحرية، شعور باكتمال الانسان، عندما يصبح حرًا، الحر الّذي بإمكانه أنَّ يعد الوعود لأنَّه صاحب الإرادة الحرة، ومما يعني أنَّ له سيادة على نفسه، وعلى التحكم في السلطة والظروف[287].

---

[286] المرجع السابق، 39.

[287] نيتشه *في جنيالوجيا الأخلاق*، 84-85.

يتبلور هذا الجسد المستقل في اللحظة الّتي يتم تدمير كافة الرموز الكفاحية والوطنية والنضالية، وعزل ارتباط الأسير بأي شكل من الأشكال عن المجموعة الفلسطينية، سواء من خلال تكثيف العزل الانفرادي، أو العزل داخل التحقيق، أو من خلال تحطيم قيم التضامن والترابط العضوي مع الأسرى الآخرين، كأن يتم مثلًا احضار أسير للاعتراف على أسير آخر في وجهه، أو أنَّ يأتي المحقق بورقة اعترافات أحد أفراد الخلية على بقية عناصرها، فهذا الجسد تلقائيًا وبشكل عفوي يخرج من داخل جسد الأسير ليستقل بذاته، ويدافع عن كونَّه فردًا قائمًا بذاته، وهذا لا يعني انفصاله عن المشروع التحرري الأكبر، بل إنَّها في صلبه وعمقه، ومنها يستمد الأسير استقلاليته، ولكنَّه يتعالى على الجسد الجمعي بشكل يحقق له الاندماج بالقيم والأفكار الّتي شكلت جسده والجسد الجمعي.

من جهة آخرى، قد لا يظهر هذا الجسد المستقل الرئيس، وبدلًا منه تحدث الانعكاسات الّتي يُريد التحقيق توظيفها في جسد الأسير، كتخوين رفاق العمل الوطني، والشعور بالذاتية الأنانية الّتي تسعى للخلاص الفردي، وهذا يعني فقدان الإيمان، بالقيم والأيديولوجيات الّتي تدفع نحو ممارسة الفعل الثوري والصمود أو تعليقه، وتحدث هذه الانعكاسات نتيجة لقدرة المحققين على محو وتفكيك مشاعر الارتباط بالجماعة الّتي تُشكل كينونة الأسير في لحظات التحقيق، وتفكيك مقومات ومصادر القوة داخله.

هذه هيَّ آلية عمل العقل اللاواعي للأسرى، مخزون متراكم من القمع والمقاومة، من التقدم والتراجع، لذلك فإنَّ محاولات الإرهاق الجسدي والنفسي والعاطفي للأسير، لإيصاله لحالة الهلوسة للحصول على اعتراف أو معلومة، مرتبطة بالأساس بالقيم الجمعية الّتي يؤمن بها الفرد الفلسطيني، فتصده عن الإنهزام إما مقاومة ومواجهة، وإما خوفًا من الخروج عن هذه الحاضنة الثقافية، لذلك فعمليات المحو تستهدف محو المكونات الّتي خزنها الأسير بداخله بشكل واعٍ وغير واعٍ في محاولة لـ "غسل الأدمغة" و"صهر وعي الأسرى وكيه"، ولا يمكن الإجابة عن تساؤل هل نجحت أدوات المحو في ذلك أم لا؟،

ولكن يمكن القول بأنَّ الأسرى أعادوا إحياء الفعل المقاوم والمناضل، وكرّروا تجربة الاعتقال على الأقل مرتين، وهذا قد يكون مؤشرًا قويًا للإجابة بأنَّ عملية المحو الاستعمارية تقابلها عملية محو تلقائية وعفوية داخل جسد الأسير وذاكرته للأفكار الّتي يتم استدخالها أثناء ممارسة السيطرة على الجسد وهو معزول، وإعادة بناء وإحياء للثقافة الوطنية والتحررية والمقاومة.

هذا الجسد مُجبّر على استقبال الألم، لكنَّه يقوم بتوزيع الألم والانفعالات والأحساسيس بشكل متوازن داخله، بحيث لا يفقد توازنه واستقراره ويصل إلى مرحلة الهلوسة الّتي ينتظرها المحققون، لهذا يستمر الأسرى بقول "عقلي بشتغل زي مطحنة الأفكار" كل ممارسة تخضع للتحليل وللنقد وللتقييم، وفعليًا إنَّ مُعززات الوعي لدى الأسرى في زنازين التحقيق هو تقييم الأحداث باعتبارها جولات لمعركة، معركة مع الذات ومعركة مع المحققين، يحدد فيها لحظات انهزامه وصورته أمام نفسه، ويقيم مشاعره وانفعالاته، لتعزيزها أو ضبطها في المواجهات القادمة.

إنَّ عملية تفكيك الأسرى لنظام القمع/المحو للزنزانة ولعملية التحقيق، وفهم الأهداف الّذي يسعى التحقيق إلى تحقيقه، يُساهم في تعبئة الأسير نحو الصبر والتحمل، بالإضافة إلى شحذه لخوض معركة التحقيق بصمود، لأنَّه يدرك أنَّ هذه المرحلة الّتي يواجهها الآن هيَّ مسألة وقتية ولا بد أنّ تنتهي، على عكس التصور الّذي تحاول منظومة المحو الاعتقالية ونظام السجن إدخاله بداخل الأسير بأنَّ هذه هي حياة الأسير بعد الآن، ولا مجال للخروج من التحقيق، أو العودة للخارج إلّا باعتراف؛ ويقول الأسيرين طارق وخالد "لازم تفهم إنَّ المحقق هو مجرد موظف، لما بتفهم إنَّ هيّ وظيفة بتعطيك مساحة لتفهم إنَّ كل شيء بصير إله وقت مُحدد وهذا بعطيك طاقة على الصمود".

يدرك الأسرى كما هيَّ وظيفة المحقق الحصول على استجواب، فإنَّ وظيفتهم المحاربة لآخر نفس بعدم إعطاء هذا الاستجواب، ويمكن ذلك بالنسبة للفلسطينيين، فإنَّ جلدهم أصبح سميكًا لا يُخترق ولا يُهزم بسهولة، جلد مكسو بدرجات من الوعي والقهر والظلم والمقاومة، فالأسير سامر العربيد وأحمد سعدات

وابراهيم الراعي ومروان البرغوثي، وناصر أبو حميد، وأحمد المغربي، ونادر العفوري، وعائشة عودة، ولطفية الحواري، والعديد العديد من الأساطير الفلسطينية الّتي واجهت الموت مقابل معلومة، وكان الصمود هو الوظيفة والمسؤولية الّتي يتفانى في تحقيقها هؤلاء الأسرى.

إنَّ هدف المحقق في النهاية هو كسر الأسير، وكذلك يقول الأسرى أنَّ هدفهم هو كسر المحقق، تحديدًا في لقاء التحقيق خلال الاعتقال الأول، لإنَّ التحقيق في الاعتقال الثاني أو الثالث بالنسبة لهم يأخذ فيه الأسير وضعية المتحكم والمسيطر والمدرك لكل تفصيلة، وبالنسبة لهم المحقق قد هُزم فعليًا في اللحظة الّتي تم فيها اعتقال أسير سابق مرة آخرى ويتم التحقيق معه، فالهدف لم يتم، ومحاولة صهر الوعي وإنتاج أفراد ينشغلون بالهم الفردي "لا يذهبون إلى مدراس الإرهاب بتعبير المحققين" أصبحوا خبراء في العمل المقاوم من جهة، وفي التعامل مع التحقيق من جهة آخرى، فزنازين التحقيق هيَّ هاجس واقعي ولكنّ تم أسطرته في مخيلة الفلسطينيين، بالفعل هنالك وسائل تعذيب تصل حد الموت، وهنالك الإهمال والعتمة الّتي تستدعي التلاشي وضمور الذات، وهنالك العزلة الّتي تُعلن الوفاة للجسد والذات، إلّا أنَّ الأسرى يؤكدون على أنَّ مخاوفهم هذه يمكن كسرها بكسر حاجز الخوف، فالمحقق والمخابرات "الاسرائيلية" لا يعرفون إلّا العنوان، أما المتن فهي مادة الأسير المتطورة باستمرار.

يرى نيتشه بأنَّ فهم السلطة يُعطي الجسد مزيدًا من القوة والإرادة للإلتزام بالعهود الّتي يقتطعها الفرد على ذاته. هذا الوعي يتحقق من خلال القدرة على إعمال الجسد بأعماله المنوطة به تحت القمع، فلكل جزء بالجسد وظيفة تساعده على تحمّل الألم وتجاوزه[288] . أيضًا للألم قدرة على جذب الناس

[288] المرجع السابق.

بعضهم ببعض [289]، وهذا الجذب يترتب عليه تبعيات متعلقة بالتخفيف من وطأة هذا الألم؛ لأنَّ هذه الحالة الجماعية تتقاسم ألم الجسد معنويًا، وتزيل عنه حالة الفردية.

في هذا نرى لماذا يركز فوكو على الجسد الواعي كونه المُحافظ على ذاته، بمعرفته سياقات السلطة، وشروط التحرر من الجمود القمعي الّذي يُعاني منه، فالقدرة على تفكيك بنية السلطة أساسية في التحرر منها والوصول إلى الحرية[290]. فإنَّ عملية تفكيك هذا النظام المعرفي تُعدّل من موازين القوى وتغيّرها؛ بهدف المساهمة في طرح فضاءات مناهضة لمشروع الاستحواذ على الإنسان من خلال بعثرة وإلغاء حياته؛ وتُساعد على إحداث صمود يومي، وإنتاج إنسان في زمان ومكان محددين[291] .

<u>المحور الثاني: الوعي الجسدي خلال العزل والمقاومة بالإيمان بالحق والعقيدة</u>

إنَّ جسد الأسير الفلسطيني أداة مقاومة بحد ذاتها، لما يمتلكه من تمثلات ثقافية واجتماعية وسياسية، فالذاكرة الجماعية الفلسطينية المقموعة منقوشة بداخل الكل الفلسطيني سواء من خلال عمليات ادراكية واعية أو غير واعية، فتفاصيل القمع والضبط والمحو والإزاحة تتمثل وتتصور في تفاصيل حياتنا اليومية، فهذا الجسد الأسير المعزول اكتسب تجربة حول مفهوم العزل وتأثيراته ومعرفته حول التحقيق وما يحدث داخل هذه الزنازين من خلال تجربة مقربة وحميمة له، كأن يكون أخ أو أبن لأسير، أو لشهيد، أو صاحب منزل تم هدمه، أو أنَّ يكون قد وقف على الحاجز لساعات طويلة، عدا عن تعرضه لهذا التاريخ المقموع من خلال الجدران الّتي تتكلم حول التاريخ وتؤرخ للشهداء والأسرى، ومن خلال الإعلام الأغاني الشعبية والوطنية، ومن خلال الأحاديث السياسية الّتي يلتقطها من خلال الراديو أثناء تنقله من مكان لمكان.

---

[289] Meari, *Sumud; A Philosophy,*

[290] فوكو، *تاريخ الجنسانية*.

[291] نادرة شلهوب – كفوركيان، "القدس وفلسطين والسياسات الكولونيالية اليومية،" *مجلة الدراسات الفلسطينية*22، ع85 (2011): 56-54.

عمل العزل دائمًا وأبدًا كموقع للإقصاء والنفي، تقليديًا استخدم ليجعل من الجسد المذنب في مواجهة مع أعماق ذاته، لعله يصل إلى الندم المطلوب، وإعادة تقييم لذاته، وبالتالي إعادة إنتاج ضمير صحي للإنسان المُذنب (ضمير صحي؛ ضمن ما تقرره المنظومة القيمية والسياسية لتلك السلطة الّتي تحكم هذه الأجساد وتعزلها)، لكن في الحالات الاستعمارية، وهنا الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية، فإنَّ العزل عملية عقاب وتجهيز للمحو، من خلال عزل الجسد عن بُناه الثقافية، وتجاهله وإهماله، وترك الجسد مع الكثير من الحسابات، حول المجهول والمستقبل والماضي أيضًا، لذلك يُعد العزل الإنفرادي من المواضيع المهمة في دراسة السجون، لما له من تأثيرات كبيرة على الصحة الذهنية والنفسية والجسدية للأسير، وهذا بالتحديد ما تحاول سياسات التحقيق والمحو تحقيقه، جسد منهك وهزيل ينتظر أي إشارة للخروج من العزل المفروض عليه.

على الرغم من وعي الأسرى المبحوثين لخطورة أهداف العزل الانفرادي، من المعرفة الّتي حصلوا عليها من أسرى سابقين، ومن خلال القراءة والتثقيف الامني، فإنَّ الأسرى وجدوا استراتيجيتهم الخاصة في التعامل مع هذا الإقصاء، بعضهم كما أشرت في الفصل السابق اعتمد على التمثيل وإظهار القوة، وآخرين استغلوا عزلتهم في التفكير في مقومات صمودهم، والكيفية الّتي سيواجهون فيها التحقيق، وبعضهم اعتمد على الإيمان الديني في محاولة منهم للخروج من هذه العزلة، فهذه الاستراتيجيات اعتمدت على الوعي الجسدي للأسرى قبل الاعتقال، تلك التجارب الّتي اكتسبوها إما من خلال تجربة جسدهم أو من تجارب أجساد الآخرين.

بالنسبة للأسرى ثمة مكان مظلم في الداخل، حيث تنبعث الروح الحقيقية والخفية والنامية، وفيها قدرات الأسير، ولكنها مظلمة لأنَّها قديمة ومخفية، لقد نجت وغدت قوية من خلال ذلك الظلام، وداخل هذه

الأماكن المظلمة مخزون لا يُصدق من القوة والإبداع ومن العواطف غير المختبرة ولا المسجلة[292]، إنَّ هذه الأماكن المظلمة هيَّ التجارب السابقة الّتي اكتسبوها بوعي أو دون وعي وإدراك، وهيَّ كذلك تُمارس بشكل واعٍ أو غير واعي، ولكنَّها تُمارس وتُفعّل في الحالة الّتي يكون فيها الجسد بحاجة لإعادة اتصاله بالماضي، لتُعطيه القدرة على التقييم والتنبؤ بالمستقبل ومواجهته.

يصف الهودلي تجربته مع العزل خلال التحقيق؛

"هذه الزنزانة ضالتي منذ زمن بعيد .. كم كنت أتوق للجلوس مع نفسي .. يا لكم من أغبياء .. إنَّها خلوة أخلو بها مع ربي .. أتنقّل من فكرة إلى آخرى .. وأقلّب دفاتري القديمة والحديثة .. صدقًا؛ الزنزانة كانت قديمًا خانقة للنفس والروح .. يأتون بك من بعيد، حيث فضاء الحرية الواسع .. ويحشرونك بين جدران ضاغطة وخانقة .. هذا قديمًا، أما اليوم فهيَّ متعة لروحي أنفع بها قلبي .. وأدخل بها ميدان فكري . وها هم يفصلونها حسبما أريد .. فحتى يتسنى لي تركيز الفكرة، وتجميع مشاعر القلب، لا بد من غلق النوافذ فلا يشرد البصر بعيدًا، ولا يتشتت الذهن، أربعة جدران دون وجود نافذة[293]".

عندما نصبح على اتصال أكثر مع وعينا القديم، في العيش كحالة نجبر على اختبار ذواتنا والتفاعل معها، فإننا نتعلم أكثر وأكثر أنّ نعتز بمشاعرنا وأنّ نحترم تلك المصادر المخفية لقوتنا من حيث تأتي المعرفة الحقيقية وبالتالي الممارسة، فالمقاومة والصمود تشكل نوعية المشروع/الثقافة الّذي نبني ضمنه آمالنا وأحلامنا اتجاه البقاء والتغيير بتحويله أولًا إلى لغة ومن ثم إلى فكرة، ومن ثم إلى ممارسة في فعل ملموس، فالمقاومة والتحديات هيَّ الطريقة الّتي تساعد الأسرى في إعطاء ممارسة للحقائق الموجودة بداخلهم[294].

---

[292] لورد: 37-38.

[293] الهودلي، 13.

[294] لورد، 38.

ساهمت المعرفة والمعلومات الموجودة في التجارب الاعتقالية المكتوبة على بلورة وعي مقاوم وصامد للأسرى، بالإضافة إلى إكساب الأسرى معلومات ضرورية حول مراحل التحقيق مما حقق للأسرى نوعًا من التوازن النفسي، الّذي ساهم في كسر حالة الإرباك والمجهول الّذي يحاول المحقق أنّ يضع الأسير داخلها؛ فالكتابات الاعتقالية لعبت دورًا كبيرًا في إغناء الأسرى بالمعرفة الكافية حول آلية التحقيق كاملة، وكيفية التعامل معها، وكان هنالك إجماع من عينة الأسرى المبحوثين (من خلال أداة المقابلة) أنَّ كتب الأسير وليد الهودلي كان لها دور كبير في كسر حواجز العزلة المفروضة عليهم خلال التحقيق، من خلال محاولة مماهاة التجربة النظرية للأسير الهودلي مع تجاربهم، وهذا كان يُساهم في تخفيف حدة الألم لديهم، لأنَّهم كانوا يشعرون بأنّ كل أسير منهم رقيب خاص على جسده، واستطاعوا أنّ يستغلوا فكرة الإيمان وقدرتها على إخراج الأسير من العزلة، في التفكير بعقائدهم الخاصة.

على الرغم من الأهمية الكبرى لاستخدام الإيمان الديني في غرف التحقيق، واستخدامها من قبل الجميع بشكل واعٍ وغير واعٍ، إلّا أنَّ الأسرى ومن ضمنهم الأسرى ذوي الخلفيات السياسية والفكرية الدينية، استخدموا الأفكار الّتي تُعيد ارتباطهم بالأجساد المادية المماثلة لأجسادهم، فالأسيرة وِشا وطارق وخالد تذكروا ابراهيم الراعي في التحقيق أكثر من لجؤهم لممارسة التنسك الديني، وكانت هذه العبارات مُحفزة لهم أكثر، لأنَّها تُعيد دمج جسدهم المُشابه لحالة جسد الأسرى الآخرين المقاومين، والّذين يعانون نفس المعاناة، ويحمل ذات التصورات بوجوب الصمود والمقاومة.

تقول الأسيرة رشا؛

"أنا كنت بعرف اشي واحد هو إنَّ الاعتراف خيانة، صحيح أنا تنظيم اسلامي وعندي مادة منيحة أقاوم من خلالها، بس كانت هيّ العبارة ثقيلة عليَّ وساعدتني"، كذلك الأسير طارق أيضًا يقول "أنا حسيت بشعور غريب لما قلي إنتَ قاعد على نفس الكرسي يلي قعد عليه البرغوثي وسعدات، والقيادات ما صمدت عنا إنت بدك تصمد، فهذا بعيطك شعور مبطن بالتحدي والصمود".

فالمعرفة الّتي تعاملت معها الأسيرة رشا تحت هيمنة العزل، هيَّ نتاج لمشاعر وأحاسيس غير مُختبرة، وخُزنت بشكل غير واعٍ، إلّا أنَّها في اللحظة الّتي وقع فيها جسدها تحت الألم، ووقع عليها خيار التحدي، فكانت هذه المشاعر قوة تندفع من داخلها وتطفو على السطح، لتحول دون انكسارها، فثقل العبارة عليها تُختبر لأول مرة في ظروف مُكثفة من القمع، ولكنَّها تتحول من مشاعر ولغة إلى ممارسة.

كما أنَّ الجسد في العزل، يستدعي الأجساد الآخرى، المقهورة والحرة، تتفعل لديه المشاعر الّتي لطالما بقيت مدفونة في أعماقه لا تُمارس، لأنَّها لم تكن تجد الفضاء الّذي يجبرها على الخروج، فالإنسان لا يشعر بجسده خلال لقاءاته وحركاته اليومية، يكون الجسد ثانوي وهامشي على الرغم من حضوره، لهذا يكتسب المعارف بشكل غير واعٍ، ولكن عندما ينفصل هذا الجسد عن الحياة اليومية، يُصبح هذا الجسد حقلًا للاستكشاف، حول الذات والإرادة والمعرفة، ومعاني الهزيمة والتراجع.

فالجسد يشعر بالأمان وأنَّه محمي داخل التنظيم الاجتماعي؛ وذلك أنَّ جسده يلعب أدوارًا منظمة داخل هذا التنظيم، مما يُعطي الشعور بالأمن لهذا الجسد سواء كان متشابهًا أو مختلفًا، فالربط مع الأجساد المقاومة الآخرى، ومحاولة الاسرى في العزل لتمثل القوة وتصورها على الجسد، يؤدي إلى الشعور بأنَّه سيكون جسدًا طبيعيًا من المستحيل أنّ ينفصل عنه، ويشعر بهذا الجسد وأهميته عند تقلص حركته وحريته وأدواره[295].

المحور الثالث: المعرفة والوعي

السلطة المعرفية بين المحقق والأسير، وتأثيرها على الوعي الجسدي للأسرى

[295] براهيمي، "سوسيولوجية الجسد،":57-58.

يتصارع الأسير مع ذاته ومع السجان منذ اللحظة الأولى الّتي يتم فيها اعتقاله؛ صراعًا حول المعرفة، فالسجّان يُريد أنّ يقصي الأسير عن أي معرفة كانت، سواء بالموقع أو الوقت، أو "التهم"الموجهة للأسير، وهذا جزء أساسي من التحقيق، حيث أنَّها تحقق الغموض المطلوب الّذي يربك الأسير ويخوّفه، ويجعل فكرة المصير والخلاص آلية بيد المحقق للضغط على الأسير، مما يترك الأسير في حالة من الحيرة والتخبط والأسئلة المجهولة، مما يجعله ينتظر أي معلومة جديدة ليلتهمها، وتأخذ فعالية السلطة المعرفية للمحقق، إذا كان الأسير لا يعرف المعلومات الأساسية والكافية حول التحقيق، يُشارك الاسير عبدالله تجربته؛

"كل اشي كان بصير جوة كان يترك دايمًا عندي سؤال، شو صار؟ وليش صار هيك، وين أنا رايح، وليش عصبولي عيني وأنا جوة السجن، مكنتش بفهم شو بحكوا .. كان دايمًا المحقق والسجن والزنزانة يتركوا عندي سؤال، أظل أفكر، وما لقيت إجابة وحدة، لأنَّ المحقق كان بدو مني أفكر بهي الطريقة.".

إنَّ عدم امتلاك المعرفة المسبقة والتثقيف الأمني للأسير قد يضعه في أسر تجربة ذاتية له عدا عن تجربة الأسر نفسها، حيث يدخل الأسير في دوامة من المجهول، ويدخل في تفاصيل قد تساعده على تجاهل موضوع التحقيق، هذا التجاهل يُعزز خاصية النسيان الّذي يُعد بتعابير نيتشه ضروري في التعامل مع تجربة الألم، كونَّه لا يُرسخ هذا الألم في ذاكرة الأسير، فالنسيان يُعد موقع مقاومة داخل جسد الإنسان[296]، إذ أنَّ هذا الجسد يهرب عفويًا من الإنضباط المطلوب منه داخل هذه الزنازين.

أما إذا كان الأسير قد حصل على المعرفة اللازمة حول الاجراءات والآليات الّتي يتم فيها التحقيق وتقوم عليها وسائل الاستجواب، بالإضافة إلى معرفته الجسدية في جغرافيا المكان، فيستخدم جسده كبوصلة، فعلى الرغم من أنَّ الأسير معصوب العينين ومُكبل، يُرى ولا يَرى، إلّا أنّه يستطيع تحديد

[296] نيتشه، *في جينيولوجيا الأخلاق*.

الوجهة الّتي يتم اقتياده إليها فإنَّ ذلك يعني أنَّ جسد الأسير قوي وقادر على ضبط مصيره حتى في أكثر لحظات الهيمنة على جسده، يقول الأسير أحمد؛

"وأنا في البوسطة قدرت أميز من الطريق يلي مشينا فيها والتعرجات إنَّ رايحين على الجنوب، والمسافة مكانتش كثير بعيدة، وكنت بعرف إنَّ هناك أقرب اشي علي معسكر عصيون، وكنت بعرف من خلال قرائتي واسئلتي للأسرى المحررين إنّ عصيون هو مركز توقيف مش تعذيب." هذه المعرفة الجسدية تُساعد الأسرى في ضبط سلوكياتهم وفرض سلوك متوازن على مخاوفهم، وبالتالي التفكير بشكل منطقي حول مراحل التحقيق وكيفية التعامل معها، فالوعي بالجسد هو الشعور الّذي يتكون داخلنا من خلال احتكاك اجسادنا بالعالم الخارجي، وبالتالي إمكانية الشعور بالعالم أثناء تعطيل الحواس أو فقدانها".

تُؤَمِّن المعرفة النظرية وتشارك التجربة العملية للأسرى، قدرة عالية للأسرى الجدد بتقدير الوضع الّذي سيقع فيه، والهدف من كل أداة وأسلوب قمع، وبالتالي فإنَّ هذا التكيف العفوي للسلطة المعرفية والّتي قد تُساهم تحقيق توازن واستقرار لجسد الأسير، فلا يقع الأسير رهن أسئلة مكثفة ومحاصرة حول المجهول والوضع القمعي الّذي يتواجد فيه، ففي زنازين التحقيق يُرافق الأسير ذكرياته مع أسرته، ودموع والدته الّتي تبعث فيه القوة تارة والضعف الداخلي تارة آخرى، ويُرافقه أصدقاؤه وتضامنهم معه، ويُرافقه شعور بالانتماء للشعب الّذي يحمل هم مشترك وواحد، وأنَّ هذا الهم هو مرحلة من مراحل كثيرة سابقة ولاحقة.

إنَّ السؤال عن الكيفية الّتي استطاع فيها الفلسطينيون الصمود والاستمرارية بالرغم من ظروف الهيمنة، تتمثل إجابتها في الأساس في قدرة الجسد على التفكير والخروج ذهنيًا من حصار الجسد المعزول والمقصي، ومقاومة الجسد أيضًا لصيغة الأمر، واستغلال هذا الظرف المعزول لاستحضار أسرار قوة أكوانه/عوالمه الثقافية والسياسية كأداة مقاومة وثبات وتحدي.

المعرفة الجسدية للأسير والّتي اكتسبها بفعل تجاربه في خارج المُعتقلات، سواء في الميادين العامة الاجتماعية أو الثقافية والسياسية، هيَّ معرفة يتم تخزينها داخل الجسد كتجربة مُدركة ومُجرَّبة، وهذا

يعني معرفة الأحاسيس والانفعالات وردود فعل الفرد، هنا الأسير، في مُختلف المواقف، وتختبر هذه المواقف قدرة الشخص/ الأسير على ضبط انفعالاته والتحكم بها، والقدرة على مواجهتها وتخزينها كمعرفة واعية دون أنّ تكون السلطة المسببة لهذه المعرفة قامعة أو متحكمة في هذه المعرفة، وتفرض هيمنتها على هذه المعرفة الجسدية.

شارك الأسير عبدالله تجربته بفخر في معرفته للوقت؛ المعرفة المُقصى عنها، وبذلك بدل أنّ يكون الوقت أداة قمع آخرى تُعزز جمود الزمن، فإنَّ الأسير كان بحاجة لمعرفة مرور الوقت وتغير الزمن، وهو معزول داخل زنزانة الثلاجة، حيث كثيرًا ما سأل الحراس عن الوقت، ولكن كانوا بالعادة يكذبون عليه، إلّا أنَّه من خلال ساعة جسده البيولوجية استطاع تحديد ساعات نومه ويقظته، وكذلك تحديد الوقت في الخارج من خلال معرفة من هو الحارس الّذي يقف على الباب، هذه المعرفة الّتي يكتسبها الأسير من خلال جسده أثناء مراحل التحقيق تُعطيه شعورًا بكسره لحاجز العزل المفروض عليه، وقدرته على إعادة تخيل الحياة في الخارج من خلال ذاكرته، وكثيرًا ما يُساعد هذا في تثبيت الأسير ومقاومته، حيث يُعد الخيال من مواطن القوة الفاعلة داخل ذاكرة وجسد الأسير الّتي تُساعده على تخطي الزمن والمكان والصرامة القمعية.

إنَّ الجلد يثمن الزمن (بدرجة أقل من الأذن) والمكان (بدرجة أقل من العين) لكنَّه الوحيد القادر على جمع الأبعاد الزمانية والمكانية معًا، فالجلد أدق في تقدير المسافات فوق سطحه من الأذن في تحديدها للمسافات بين الأصوات المتباعدة[297]، كما أنَّ الجسد مكان للذاكرة، والإنسان يعرف جيدًا قدرته على الدمج والتذكر، لأنَّ الجلد يسجل الانطباع والمعلومات الّتي يتذكرها من خلال اللمس، وتتموضع في

---

[297] غاي -يونغ لي، (ترجمة: قاسم المقداد) "الجسد والمعرفة،" *مجلة الأداب العالمية*، ع144 (2010):276-277.

الجسد، وتحافظ بذلك على الأحاسيس بوصفها علامات يستطيع الدماغ تذكرها، فالجلد يحتفظ بتاريخ الجسد الفردي بوصفه مكان لتراكم الأحاسيس[298].

لذلك إنَّ الحصول على المعرفة بحاجة للجسد، لاحتكاكه بالتنظيم الاجتماعي، لممارسة القمع عليه وممارسة القمع على الآخرين، وفي بناء العلاقات المختلفة، فلا يوجد البتة مكان للحديث عن معرفة غير جسدية في مجتمع غارق بأشكال العنف المختلفة، ويرى نيتشه الجسد "العقل الكبير" ذلك الأداة العظمى للتفكير، فلا يمكن البتة الحديث عن الفكر خارج الجسد؛ ولا يمكن الحديث عن معرفة خارج تصور الجسد كمفهوم فيزيائي مادي، وكمفهوم معرفي؛ في ذلك يُعزز نيتشه مفهوم إرادة القوة الذي تدور حوله مجمل الميتافيزيقا النتشوية، والّذي يستمد جذوره الأولى من مفهوم الحياة الجسدية، ومعنى العقل الكبير هنا هو تلك الإمكانيات الهائلة التي تنطوي عليها الكينونة المتجسّدة بشكل كامن، والتي تحكم مسارات كل أطوار الثقافة في التاريخ[299].

فالمعرفة الّتي يمتلكها الجسد بشكل واع من خلال انخراط جسده في حيز المقاومة يمكن تصنيفها كمعرفة واعية، ومدركة، سواء كانت مُحملة بأيديولوجية سياسية وفكرية أم لا، فالجسد اكتسب هذه التجربة من خلال جسده الّذي تكلم من خلال فعل المقاومة، والأجساد غير الفاعلة والمقاومة بالشكل التقليدي للمقاومة من خلال المواجهة الجسدية، فإنَّها اكتسبت هذا الإرث المعرفي من خلال السمع والرؤية والمواجهة من الدرجة الثانية أو الثالثة، وبالتأكيد فإنَّ بصمتها تنطبع في جزء معين من عظم وجلد ومفاصل الجسد الّذي سيفعلها ويكتشفها في الوقت الّذي يتم فيه السيطرة على الجسد ومحاولة محوه.

---

298 المصدر السابق، 277.

299 إسماعيل مهنانة.، "ميتافيزيقا الحداثة: تاريخ نسيان الجسد" *المركز العلمي العربي للأبحاث والدراسات الإنسانية*. (2013)، < http://arab-csr.org/2013/02/11>.

المعرفة سلطة، وتتكثف سلطة هذه المعرفة داخل مراحل الاعتقال والتحقيق، حيث أنَّها القوة الّتي يمكن من خلالها تخطي التحقيق دون ترك الأثر الّذي يسعى التحقيق إلى زراعته بداخل نفس الأسير، فلقاء الاستجواب هو لقاء سلطة معرفية، يُريد فيها المحقق أنّ يثبت للأسير أن المخابرات " الاسرائيلية" تعرف كل شيء يتعلق بالأسير حتى أحلامه، وهذه المعرفة تسبب ضيقًا للأسير، ويشعر بأنَّه مكشوف تمامًا أمام المحققين، وهذا ما يُريده المحققون، أنّ يصل الأسير لمعرفة أنَّ اعترافه هو مسألة وقت، وليس لإضافة معلومة جديدة، وإنَّما إغلاق الملف، وتطابق الأدلة بتعبير الأسير خالد.

يضيف الأسير خالد كان لقاء الاستجواب عبارة عن نقاش الاعتقاد والإيمان في الحق؛

"تعامل معي المحقق بإنَّه صار يقنع فيّ بشكل تاريخي عن أحقيته هو في البلد، مع إني قاصر، صار يسويلي غسيل دماغ، قلي أنا ما بدي ياك تشتغل معي، أنا معي شغيلة كثير، بس أنا لمصلحتك بحكي، الأرض لليهود مين قلك إنَّ هيَّ الأرض إلك، اليهود قبل المسلمين، وصار يعطيني سرد التاريخي، وانا كنت بعرف بس إني أنا صاحب حق بس، بس شو مدى علمي بهذا الحق أنا كنت جاهل، كيف يعني جاري في المخيم عمل طوشة مع حد من برة المخيم بروح بوقف معه مباشرة بلا ما أعرف شو سبب الطوشة أو الحق على مين، بس للأسف ما كان في وعي وما كان في حد يوعيني، وهذا عار بلحق التنظيمات".

هذه المعركة الّتي يشنها المحققون ضد وعي الأسرى، تكاد تكون جزءًا أساسيًا من جلسات الاستجواب، وهدفها إبراز ضعف الأسير وضعف منطقه، وتسخيف القضية وتجريد الأسير في داخله من الثوابت وزعزعتها، لتسهيل عملية التحطيم المعنوية والسيطرة على الأسير.

إنَّ الشاباك يعتمد على المعرفة الثقافية الّتي يجمعها حول عمر وجنس وانتماء ودرجة تدين الفلسطينيين، وبناء عليها يتم استخدام تقنيات الانضباط الفعالة مع الأسرى، والّتي تهدف إلى الحصول على المعلومات وانتزاع الاعترافات وتجنيد المتعاونين[300]، فيستخدم المحققون مجموعة من الحيل

[300] Mear, *Sumud, A Philosophy,* 31.

وأساليب الخداع لإضعاف الأسير، مثلًا استخدام الملف السري الّذي يدّعي فيه المحقق أنَّ هذا الملف يحتوي على كافة الاعترافات اللازمة حول أسير ما في قضيته، والّتي غالبًا ما يكون هذا الملف يحوي أوراقًا لا علاقة لها بالأسير، والهدف منها هو ترويع الأسير وإحباطه وكسر عزيمته، ومحاصرة أفكاره وإرادته في الصمود، وعادة ما يتجاهل الأسرى هذه الأوراق، أو يُقاوموا سطوتها بأكلها والتخلص منها.

يُعد الملف السري عاملًا مهمًا من عوامل إعداد المحققين لمواجهة الأسير[301]، لأنَّه يعني امتلاك سلطة المعرفة على الأسير، وهذا يعني أنَّ على الأسير محاربة الكثير من الادعاءات الحقيقية وغير الحقيقية مما يعطي فرصة للمحقق بالبحث عن مدخل يستطيع به الدخول إلى ذات الأسير وكسره، من خلال معلومة صغيرة قد لا يحتاجها المحققون لكنها مفيدة بقدر كسرها لوطنية الأسير، كما أنّها تعمل على فرض سلطة على الجسد والوعي، يقول الاسير خالد "كيف الاستعمار بشتغل على سياسة فرق تسد، هيك بسوي المحقق جواك، بسوي تفرقة وهدم لكل اشي جواك، لدرجة إنّك بتقتنع شو بحكي، أنا أسير واقتنعت من جواي بحكيه، بس ما قدرت أظهرله واضطريت اتمسك بموقفي لضعيف".

فالأسير خالد تغيرت لديه الكثير من القناعات أثناء فترة الاعتقال، ولكن القناعات الجديدة المكتسبة بالنسبة له تتعلق بثقافة العرب وثقافة السلطة الفلسطينية، ودورهما القمعي اتجاه الشعوب العربية واتجاه الشعب الفلسطيني، كما وترسيخ فكرة أنَّ "اسرائيل" هيَّ "دولة" قانون، تلتزم بالمعايير القانونية الدولية والإنسانية في التعامل مع الأسرى، وعلى الرغم من أنَّ خلال سرد خالد لتجربة التحقيق الخاصة به، كان قد تعرض للعديد من أشكال العنف الجسدي والنفسي إلّا أنَّه وبمقارنة خالد لهذا العنف، مع العنف الّذي شهده في سجون السلطة، يبقى عنف المُستعمِر الصهيوني أقل وطأة وشدة من الألم الّذي يتعرض له من أبناء شعبه، وذلك أنَّ الألم الّذي يتعرض له في المعتقلات الصهيونية يمكن احتواءه داخل معانٍ ثقافية تُساهم في احتواء الألم، أما الألم داخل السجون الفلسطينية بغض النظر عن شكله،

[301] بودن، *فن التعذيب الأسود*، 3.

هو نقطة موازية للثقافة، لأنَّه مُوجَّه من أشخاص يحملون ذات الثقافة الّتي من المُفترض أن يحتمي الأسرى بها، وهذا ساهم في ترسيخ محو الدفاع الأعمى عن الثقافة الفلسطينية وعن السلطة، ولكنَّه لم يعمل على مستوى محو الوعي الوطني، بل ازداد التمسك بالحقوق الوطنية سواء أكانت معبئة بأيديولوجية أم لا، فالفكرة الوحيدة الّتي لم تُمحى لدى خالد، يمكن اختصارها في عبارة عائشة عودة "إنَّ الاحتلال هو الشرور الأكبر".

إنَّ المعلومة العفوية الّتي قد يحصل عليها المحقق أثناء التحقيق، قد لا تكون مرتبطة بقضية الأسير، ولكنها قد تكون معلومة حساسة "نقطة ضعف" حول أسير ما، فيتم استخدامها للضغط على الأسرى أثناء التحقيق، ويقول الأسير خالد "بكفي إذا عرفوا إنَّ شب خاطب جديد أو متزوج، أو إجاه صبي، هيَّ تفاصيل مخيفة للضغط على الأسير"، هذه المعلومة العفوية الّتي قد يحصل عليها المحقق خلال عملية كسر الحواجز مع بين المحقق والاسير، تُعد معلومة مُحملَّة بالسلطة على الأجساد الفلسطينية، فهذه المعلومات الّتي تخص جانب عاطفي أو إنساني للأسير، هيَّ مادة زخمة للمساومة والضغط وتعذيب الأسير من خلالها للحصول على المعلومة.

أجمعت العينة المبحوثة على أن المعلومة العفوية مرحلة خطيرة في التحقيق، خطورتها تأتي من أنَّ المحقق حصل على هذه المعلومة أثناء تكسير الحواجز الاستعمارية خلال لقاء الاستجواب، ومحاولة بناء "صداقة مزيفة" لخداع الأسير، ولكنَّ هذه المعلومة أشبه باعتراف على الآخرين، أو المساعدة في تطوير استراتيجية تحقيق واستجواب لأسير ما، لذلك تقول الأسيرة رشا "ممنوع منعًا باتًا تمسك قلم خلال التحقيق، لإنَّه لا إراديًا رح تبلش تكتب في اعترافك" وكذلك يجمع الأسرى على أنَّ اللحظة الّتي تشعر بها بالرغبة بالحديث، في هذه اللحظة تحديدًا اصمت.

الصمت استراتيجية لمواجهة السلطة المعرفية

الجسد داخل زنازين التحقيق يصنع معرفة جديدة، لهذا فالسلطة والمعرفة مفهومان متلازمان وأساسيان في عملية المحو من جهة المحقق، وإعادة الإنشاء من قبل الأسير، وهذه العملية تحدث بتركيز كل من الطرفين في الحصول على أكبر كمية من المُعطيات الّتي تُساعده في إدارة جلسات التحقيق، واستخدام المعرفة/الوعي الجسدي، كما أنَّ هذه المعرفة تُساهم في كسر حاجز العزلة والإقصاء المفروضة على الأسير، وتعيد التحامه مع ذاته ومع أكوانه الثقافية.

فالمعرفة المتنازع عليها بين الأسير الفلسطيني والمحقق "الاسرائيلي" تمنحهم القوة لاستمرار التحقيق أو استمرار الصمود، وإنَّ أي معلومة ولو كانت صغيرة هيَّ بالنسبة للأسير تُشكل مرحلة جديدة يخطوها إما للأمام وإما أمام الهزيمة أمام المحققين، ولذلك مرة آخرى نرى بأنَّ النخبة من الأسرى "الاسرى الّذين تم اعتقالهم أكثر من مرة/ والضالعين والمتنفذين في العمل الوطني والمقاومة" يعتمدون على الصمت أثناء مراحل التحقيق، فهذه المرحلة يعتبرونها مرحلة تقيمية للفعل الثوري وللأخطاء الناتجة عنه، وهيَّ فُرصة للأسير لإعادة توثيق علاقته مع ذاته وبنائها من جديد بمعزل عن الصراعات السياسية الداخلية فلسطينيًا، وهيَّ أيضًا استراتيجية سهلة ويمكن القيام بها تحت أشد وسائل التحقيق وأكثرها إرهاقًا للأسرى، وتقول الأسيرة رشا "الصمت والاضراب عن الطعام متشابهان تمامًا، لا يشعر الأسير بعبئهما إلّا أول يومين، ومن ثم يتكيف جسده مع هذه الوضعية، ويصبح هذا الجسد ممارسًا للمقاومة من خلال الصمت".

فإنَّ الصمت يتيح للأسير فهم غاية السلطة الممارسة بحقه، وتدعوه للإنغلاق على ذاته، وهذا الانغلاق يمنع أي محاولة لاختراق لعوالم الأسير، وبالتالي الحفاظ بالحد الأدنى على الوعي عما يدور في زنازين التحقيق، وكما يقول فوكو فإنَّ فهم رعاية الذات من خلال تفكيك السلطة الواقعة على الجسد، تُساهم في خلق فضاءات إنّ لم تكن لمقاومة هذا الاستحواذ، فإنَّها على الأقل تحد من هذا الاستحواذ

وتضع له حدودًا واضحة، فتحليل السلطة وتفكيكها كما يُشير نيتشه تُعطي مزيدًا من القوة والإرادة لتنفيذ العهود المقطوعة على الأسير داخليًا بعدم الاعتراف والتعاون

هذه الأساليب في الوعي خلال المواجهة، يُساهم في تطوير استراتيجيات تثقيفية وأمنية تدعم الأسرى خلال تجربتهم الاعتقالية، فيقول الأسير عبدالله "أنا كل ما اجي بدي اعترف، واحس اني زهقت خلص بطلت قادر أتحمل، أقول للمحققين بدي اعترف، ولما اشوفهم مبسوطين أقلهم مش الليلة بكرة باجي وبعترف" يقول عبدالله أنَّ هذه استراتيجية تعلمها من محيطه وأصدقائه في تنظيم فتح، وهذه الاستراتيجية "إذا قررت تعترف أجلها لثاني يوم"، وكانت هذه سلاح يأخذها عبدالله ليحصل على طعامه وشرابه وراحته دون الاعتراف.

يُنبه الأسير طارق إلى أنَّ التحقيق هو عبارة عن معركة معلومة، ويجب أنّ يكون الأسير على وعي بأنَّ أي كلمة يتحدث بها هيَّ بداية لمرحلة تحقيق آخرى، لهذا يؤكد وليد الهودلي على أهمية الصمت كاستراتيجية مقاومة، فالصمت يمنح الأسير معرفة كبيرة بقراءة التفاصيل الّتي قد يسهى المحققين عن إخفائها، مثل "التهم" الموجهة للأسير، ومدى معرفة المحقق حول القضية، والأهم هو الوقت، حيث يُعد الوقت من أكثر أنواع المعرفة الّتي يحاول الأسير انتزاعها، ويحصل على هذه المعرفة في العادة من خلال تبديل "الشفتات" أدوار المحققين بين بعضهم البعض، ومن خلال مواعيد الأكل والشرب والنزول إلى الزنازين.

إنَّ المعرفة الّتي يطورها الاستعمار على الفلسطينيين تساهم في انشاء منظومة مراقبة للسيطرة، وفي المقابل أتاحت تجربة القوة هذه للفلسطينيين فهم آليات شبكة السيطرة الاسرائيلية، وإنتاج معرفة مضادة لممارسات الاحتلال والسيطرة، وهكذا تمكنوا من اختراق شبكات المراقبة والسيطرة، ويبدو ذلك واضحًا

في الأشكال المتعددة للمقاومة الّتي نجدها في ممارسات التكيف الاجتماعي الفلسطيني الهادف إلى المحافظة على البقاء[302].

سلطة/قوة المعرفة الثقافية والسياسية والاجتماعية

إنَّ أكثر ما يُسبب الضيق للأسرى خلال جلسات الاستجواب، هو اطلاع المحققين على ثقافة العرب والفلسطينيين، وبالتالي إيجاد معبر للدخول إلى المواضيع الحساسة الّتي تُشكل ذواتهم، وإحساسهم بالعجز عن الرد من جهة، ومن جهة آخرى الإحساس بتفوق العدو، فنرى حتى البرغوثي والهودلي كنخبة من الأسرى تم اختراق جبهتهم الداخلية للصمود من خلال البناء المعرفي الّذي يملكه المحقق عن الأسير وبنيته التنظيمية والسياسية.

كأن يتم استغلال المعرفة حول المرأة وجسدها في المجتمع الفلسطيني، للضغط على الأسيرة بتجريدها من مفاهيم النضال وإجبارها على التراجع كما حدث مع الأسيرة عائشة عودة والأسيرة رشا اللّواتي شعرن بسلطة العدو عليهن أثناء محاولة فرض التصور الاستشراقي عن دور المرأة في المجتمع "الإسلامي/العربي/الشرقي الفلسطيني، ونظرة الرجل لهن، واعتبرن هذه المعرفة اختراق لجبهتهن الداخلية في الصمود الّذي يتشكل من المعنى الثقافي والمجتمعي، يضيف الأسير طارق في ذات السياق؛

"كان يحاول المحقق مناقشة الأسير من خلال مجتمعه الشرقي، مثلًا بدنا نتعرض لخواتك، وبصير يقلك إلك أخت بتدرس بالجامعة، إنت بتعرف هلا أختك شو بتسوي، أو مثلًا إمك كمان شو بتسوي وأبوك أي ساعة بروح على الدار، طيب إمك شو بتسوي خلال هذا الوقت، يعني ما بسيء بشكل مباشر بس بوحي بالاساءة، هو بالنسبة اله عندو مادة قوية بقدر يستخرجها من المجتمع الفلسطيني وثقافته، إنَّ يقدر يحارب فيها المقاوم داخل الزنزانة، فبصير الواحد في الزنزانة يصل لمرحلة إن منهجية الخيانة اتجاه كل اشي، "يفضح عرض الشيطان .. بتحسو بشتغل شريك مع المحقق،

---

[302] نورهان أبو جدي، "حالات الاستثناء في الفضاءات الفلسطينية، وديناميات الصمود للتدمير الممنهج للمكان: نابلس كحالة دراسية،" في *حالات الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي*، مرجع سابق:254.

هيّ الوسوسة يلي بتقتل، يعني لو إحنا والشيطان صحبة على أقل في غرف الزنازين، أَن المحقق برمي الكلمة وإنت بتصير تفكر، هي مسألة كثير بركزوا عليها، إنَّ يحطموا الإنسان، وبصير الأسير يشوف إنَّ الخروج من الزنزانة بمنحه معرفة معينة عن العالم الخارجي، وهيّ نقطة بتم استغلالها، إن عشان إنت تطلع من الزنزانة وتقدر تتواصل مع لأهلك لازم إنت تحكي".

كما وتشكل المعرفة السياسية والتاريخية، الّتي تهدف إلى محو الذاكرة والوعي الفلسطيني، حلقة مهمة من حلقات الاستجواب، وهيَّ عملية منظمة من جمع المعلومات الأساسية حول الأسير، مثل معرفة من هو الأسير وانتمائه، وما هو مستواه الأكاديمي، وتنظيمه السياسي، ومكان السكن أيضًا، لمعرفة الكيفية الّتي سيتم من خلالها الدخول إلى منافذ وعي الأسرى.

هذا النوع من خطابات الاستجواب الّتي تسعى إلى هدم/تحطيم داخل الأسير من خلال نقاشه ثقافيًا، لم تلقَ نجاحًا مع الأسرى ذوي الخلفيات السياسية اليسارية، وذوي التجربة المقاومة الفاعلة في الميدان الاجتماعي والسياسي، فالأسير معاذ كان يتثقف كثيرًا حول الصهيونية و"المجتمع الاسرائيلي"، ويعرف كثيرًا عن أصول اليهود، بالإضافة إلى انتمائه لأيديولوجية يسارية ولديه ثوابت (أفكار ثابتة داخل الوعي تحول دون نسيانها أو محوها) تستند إلى قراءات ودراسات، وارتباط بالأرض ناتج من تجربته الفردية والتجارب الجمعية الفلسطينية في مقاومة الاحتلال، فكان يحوّل هذه الجلسات من متلقي إلى مُلقي، وأصبح يستمتع بها أكثر من أنّ تشكل له ضيقًا.

فالأسرى الّذين يحملون أفكارًا ثابتة داخلهم حول حقهم في المقاومة والصمود، وكذلك معرفتهم المتجذرة في الآخر العدو، سواء كانت معرفة مستمدة من الدين كما ظهر مع الأسير الهودلي والأسير خالد، الّذان كانت مقاومتهم بالأساس مبنية على فكرة العداء التاريخي بين اليهود والمسلمين، وضرورة الصمود وعدم الإنهزام بأي شكل كان أمام من هم بحد تعبيرهم "قتلة الأنبياء" ولذلك لعب الصمود

بالاعتماد على المرجعية الدينية دورًا كبيرًا في تحميل الألم معاني ثقافية، وفي استخدام العزلة كسلاح لشحذ الهمة، وفي استخدام الإيمان والصمت والمعرفة الدينية كجزء من استراتيجيات الصمود.

الأسرى الآخرين أيضًا أمثال عبدالله وأحمد وكذلك البرغوثي وعودة، كانت فكرة حق مقاومة الاستعمار باعتباره حق متجذر في الإنسان المستعمَر قوة معرفية مساندة لهم في الصمود، والخجل من الانهزام، لأنَّهم يتحدثون من خلال أصوات شعوب كثيرة مستعمَرة وتناضل من أجل استعادة حريتها، فأصوات المقموعين الآخرين من كافة الأجناس تعتبر بالنسبة للأسرى سلطة معرفية حول اختراق بنية العدو القمعية ومواجهتها، والالتزام بالموقف النضالي حتى في التفاصيل الصغيرة.

كذلك خاض الأسرى أمثال سعدات وطارق ومعاذ ورشا حربًا معلوماتية داخل زنازين التحقيق، وكانت هذه الحرب عبارة عن خليط متكامل من العلاقة التاريخية الّتي شكلت الصراع مع العدو، فكانوا يعرفون أصل اليهود المُستوطنين في "اسرائيل" من أي بلاد جاءوا، والعذاب والقهر الّذي تعرضوا له، والقمع الّذي يتعرض له اليهود ذوي القوميات العربية أو الشرقية، وكانت هذه الثغرات فعالة بالنسبة للأسرى في زنازين التحقيق، في كونَّها قادرة على تسخيف/تسطيح السلطة الّتي يمتلكها المُحقق/السجان على الأسير.

بالتأكيد هنالك معطيات تُجبرنا على التوقف والتأمل في بعض الخطابات الخجلة الّتي نسمعها أثناء النقاشات والمقابلات مع الأسرى، بأنَّ "اسرائيل دولة قانون" وأنَّ "المقاومة الحالية لا تجدي نفعًا" وأنَّ "الاسرائيليين يملكون أحقية في الأرض" ويأتي هذا النقاش في إطار الحديث عن الأسلاف الأولى الّتي سكنت أرض فلسطين، ودراسة التتبع الديني الّذي مرَّ على أرض فلسطين، وهذه الخطابات هيَّ نتاج لجلسات الاستجواب الّتي تستهدف الأسرى الّذين لم يتم تعبئتهم قبل الأسر، وعند السؤال عن هذا الأمر تحديدًا تكون الإجابة بأنَّ "مجتمع السجن" عَمِلَ على توعيتهم، وتثقيفهم، وأنَّهم اكتسبوا الكثير مما لم يستطيعوا الحصول عليه خارج المُعتقلات، وهذا يعني أنَّ هنالك عملية متوازية من إنشاء الوعي

بداخل الأسر، فمن جهة الخطابات العامة الّتي نسمعها كفلسطينيين عن قوة "الاسرائيليين" معرفيًا وعسكريًا، والبحث في الرواية التاريخية الّتي تعرضت للمحو أيضًا، والخطابات الفلسطينية الّتي تنقسم إلى خطابات تدعو للمقاومة والمواجهة والتحدي مع المستعمِر، بحيث لا يبقى للأسبقية التاريخية في التواجد على أرض فلسطين أهمية أمام الحق الإنساني في المقاومة أمام ممارسات القمع والسيطرة والمحو الّتي تتم على الهوية والمكان الفلسطيني، وخطابات آخرى جائت بفعل ثقافة أوسلو تدعو إلى تطبيع الإنسياق مع القمع، وعلّمت جزء كبير من الفلسطينيين إدارة حياتهم تحت الاستعمار بأدوات مواجهة بسيطة جدًا، بالكاد تضمن له الحق في الحياة

كما وتتشكل قوة السلطة المعرفية للمحقق، من خلال فهمه لبناء العلاقات الحميمة الأسرية، وطبيعة التنشئة الّتي تقوم على الشدة والحزم كأسلوب للتربية، لذلك يتم استغلال هذه الشدة في التحقيق بأنّ يأخذ المحقق دور "الطبيب" أو دور "الأب الجيد/ الّذي يعطي النصائح"، وهذه المعرفة عملت فعليًا على اضعاف/وإرباك الأسير خالد، وشعوره داخليًا بأنَّ حاجز العداوة مع المُحقق قد كُسر، حتى لو لم يظهر الأسير خالد للمحقق ذلك، لكنه يتحدث عن المحقق الطيب الأبوي بشكل مختلف وفيه ألفة أكثر من حديثه عن المحققين الآخرين، ولكن من جهة آخرى الأسير طارق والّذي جاء من خلفية أسرية مُشابهة للأسير خالد، إلّا أنَّ هذا الدور الأبوي والطيب هو أكثر ما استفز تمرده، حيث غلب على الأسير شعور باستغلال عواطفه، فوعي الجسد وإدراكه لهذه السياسة هيَّ الّتي تحدد كيفية فهم الأسير وتعامله مع هذه السلطة المعرفية كما في الحالتين السابقتين.

قد يأخذ التحقيق بعد التأكيد على دونية المستعمَر، وعلى انتقاده بشكل يجعله ينظر إلى أعماق ذاته، ولكن كما قلت سابقًا فإنَّ هذا الألم الناتج عن الخطاب والمعرفة، يُقاوم بعملية تقييمه من خلال معرفة واعية مدركة وغير مدركة بداخل الأسير، فيقول الأسير طارق؛

" التربية المجتمعية والثقافة العربية السياسية الموجودة عنا إن الاسرائيلين عندهم تفوق وقوة ومعرفة .. فلما توقف في التحقيق قدام محقق ويقلك أنا بحقق مع واحد زيك .. بمعنى إنت واحد مقرف .. فأنا بشعر إني بصير اتطلع في حالي .. ولأن أصلًا الأسير كمان بكون بهيئة ملابس وسخه وفي إله ريحة .. لأنهم بمنعوه عن الحمام .. وبتصير تدخل هي الافكار عليه .. وأنا صدقت إن اه أنا حد مقرف .. بس كيف صدقت إن هدول يهود عندهم تكبر بالاعتقاد بالذات الاساسية الموجودة عندهم".

هذه الكيفية الّتي يتم فيها استدخال ألم معرفة وخطاب العدو اتجاه الأسير، تُساهم في فهم الألم وموضعته في إطاره، أي أنَّه لولا التحقيق ووجود المحقق ووجود الاستعمار بشكل عام لما كان الأسير يجلس بهذه الهيئة "المقرفة" بحد تعبيرهم في هذا المكان، فالمسبب الأساسي لهذه الحالة (الاستعمار) هو من يعطي الإجابة على تساؤلهم حول "أنا بحقق مع واحد زيك" هذا الخطاب الّذي يفترض المستعمِر أنَّه خطاب يجب أنّ يُشعِر الأسير بدونية، إلّا أنَّه وبتعبير فانون، يشحذ النفس والروح بالهمة الكافية لمواجهة ممارسات الاستعمار، وإذا كان هذا خطاب الاستعمار، فالمستعمَر الفلسطيني، وهنا الأسير واعٍ إلى الحد الّذي يسمح له بتعبير ميعاري بإدخال هذه المفاهيم داخل مخرطة دماغية تعمل على تحليل هذا الخطاب وتقييمه، ومحو أثر هذا الخطاب وإنشاء مكانه معاني الصمود المُستمدة من الدور المسؤول على حد تعبير نيتشه للفرد الّذي يلتزم بعهده ومسؤوليته، اتجاه نفسه والآخرين من خلال الصمود.

إنَّ عملية تحطيم ذات الأسير، من خلال هدم مكوناته المعرفية والثقافية الّتي تشكلت بداخله، يعني إزالة للأثر المادي الّذي تستند عليه الذاكرة في بناء الصمود، فالذاكرة وباعتمادها على المتخيل الّذي يُحقق الآمال والآمنيات الّتي يرغب الأسير في تحقيقها، إلّا أنَّه بحاجة للأفكار والأجساد المادية الفاعلة بفكرها وممارستها، وإنَّ أي عملية تحطيم لهذه القيم بالتأكيد سيرافقه إعادة بناء، ولكن ليس لقيم

بديلة وإنَّما لمجموعة من المشاعر الّتي تُرهق الأسير، مثل الشعور بالإحباط واليأس والوسوسة اتجاه كل تفصيلة في حياتهم.

تُعد هذه الوسيلة منهجية لتشويه الحاضنة الثقافية للأسير، وكسر صورة التنظيم وقيادته، وتشجيع فكرة الخلاص الفردي على حساب المجموعة والآخرين، يُعبر الأسير طارق؛

"وبمراحل التحقيق الأخيرة أطلعوني على المكتب وصاروا يسألوني إنتَ بدكش تحكي، طيب هيّ قيادتك صايعة بالضفة وغزة وبرة، وصاروا يشتغلوا أكثر على الوعي، بالاول كانوا يشتغلوا على المعلومة هلا على الوعي، بعد ما خسروا معركة المعلومة صاروا يدخلوا على معركة الوعي، صاروا يقولوا إحنا لما بنقتحم دور القيادات عندكم، بنلاقي عندهم سيديهات إيباحية وإنتو هون مرمين، هلا لو أنا يساري مش رح يحكي معي بهيّ اللغة، لو أنا يساري كان قلي لقينا رصيد في البنك عند القائد تبعكو، بس أنا ع أساس تيار ديني، دخلي من مدخل ديني وأخلاقي، ما كنت بصدق هيّ المعلومات لأنَّ أول ما انتميت لهيّ التنظيمات، بكون عندي انتماء جارف، الانتماء يعني الله ومستحيل هذا كذاب، هلا أنا فترتها ما بعرف إنها معركة وعي، أقصى تفسير وقتها إن بدو يشوه التنظيم، وإنَّ بدو يخليني أكرههم، وكمان يفتحوا موضوع السلام، يعني فش مادة للحكي معي وأنا مكانش عندي هيّ المعلومات لكثير عامة، وكان أحسن إنَّ ما عندي هيّ المعلومات".

من الضروري أنّ نأخذ بعين الاعتبار، أنَّ السلطة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية تحاول محو ما قد قامت عليه سابقًا من محو على الأرض والسكان، محو هذا التاريخ الّذي يدفع بالفلسطيني المستعمَر إلى المقاومة، وتؤكد على أصلانيته، فحدث النكبة مؤسس لمفهوم الأصلاني الفلسطيني والمستعمِر المستوطن الصهيوني، وهذا أساسي في فهمنا لمحاولة جلسات الاستجواب محو العلاقة التاريخية الّتي تربط الفلسطينيين بالأرض، ومحاولة المحققين الدائمة لإجراء جلسات تتحدث حول الدين اليهودي والأسبقية الدينية والتاريخية على الأرض، فعملية المحو من خلال الجلسات الثقافية ليست تأكيدًا على أحقية الأرض بقدر ما هيَّ عملية محو للذاكرة الّتي ترسخت بفعل أحداث النكبة، وبالتالي محو فكرة المقاومة وضرورتها،

إنَّ خطابات المحو يأخذها الاسرى على محمل الجد، ويتم تقييمها بتمعن، ومحاولة البناء عليها، لتعزيز معرفتهم، ولتأكيد أحقيتهم وأحقية قضيتهم، فلا يتم هدم فعل أو فكر المقاومة، وإنَّما يتم بلورتها والتفكير فيها، فمثلًا يقول الأسير خالد؛

" مقومات الصمود موجودة .. الارادة .. لازم يكون في ثقافة احنا بنفتقدها .. احنا الشباب متحمسين ومندفعين ومتهورين ولما بنزل انا على جيش في حالة استنفاز وانا بكل هالحماس عشان اضربهم حجر قديش هذا نضال وجهاد بس هو كمان تهور .. بس انا ليش انزل وانطخ بلا م اسوي اشي .. انجز.. الحجر هو نوع في التعبير عن رفض الاحتلال.. بس كمان التحرر والمقاومة الها حسابات .. احنا مش لازم نظل نتعامل بالعقلية الاندفاعية".

فالسؤال حول جدوى المقاومة، وآثر الفعل الوطني يصبح سؤالًا أساسيًا للأسرى بعد تجربتهم الاعتقالية، بعد أنّ كان هذا السؤال إجابته مفهومة ضمنيًا، وغير محتاجة إلى تقييمات، وهذا الوعي الجسدي الجديد والمتشكل بفعل الهيمنة على الجسد والوعي والذات الفلسطينية للأسير ممكن أنّ تكون صحية، وخصيصًا حين يتحدثون حول استراتيجياتهم الجديدة وطرق تفكيرهم اتجاه العمل المنظم والسري، والحاجة إلى الأيديولوجيا بجانب السلاح، ف(المحو) الوعي الجديد هذا يتم إدارته، وإعادة استدخاله داخل الوعي الجسدي القديم، ليصبح نقطة قوة ومخزون معرفة اضافي داخل الاسير.

يكمل الأسير خالد؛

"أنا قرأت لعلي شريعتي العودة إلى الذات الاستعمار عادة ما بحاول يلغي الهوية نهائيا.. لان من ناحية علم اجتماع .. اذا انت التغت الهوية الفلسطينية الك . فإنت بتصير تبحث عن ذاتك وهويتك وتاريخك .. والبحث عن التاريخ بشكل خطر على الاستعمار .. بس الاستعمار بقلك الك تاريخ والك هوية بس هو يلي بحددلك ياها .. يعني برسمولك التاريخ يلي بدك اياه.. يعني بقلك قدوتك صلاح الدين. فإنت اه مزبوط وبتظل تفكر بصلاح الدين ما تصير زي صلاح الدين.. ظلك غني تتزهك بصلاح الدين .. وعن ابو جهاد وحكيم الثورة جورج حبش.. ضلك غنيلهم بس ما تصير زيهم.. صحيح كانو موجودين .. بس ما تفكر تصير زيهم.. هيك الاستعمار، وللاسف احنا هي الشغلات مش فاهمينها .. الاحداث يلي صارت تاعت السكاكين هي رفض للاحتلال مزبوط، بس ان هذا الشي خطأ من ناحية انا ما

بروح بجرح واحد بالمقابل اموت وانقتل .. انا كفلسطيني اموت .. انا مش رخيص . انا روحي اغلى من مية الف يهودي انا هيك بقيم نفسي .. بس للاسف تنظيماتنا بتطلع بتتغنى بموجات وثورات الشباب وما بتوعيهم.. ما في توجيه للنضال".

فالتحقيق يؤمن المواجهة بين جسدين مؤدلجين، يحاول الاثنان معرفة تصور كل منهما عن الآخر، هذا التصور يُساهم في بلورة استراتيجيات المقاومة والضبط، وتطوير كل منهما، وبلورة وعي مضاد أمام البنى الأساسية الّتي يقوم عليها المحو التاريخي والقيمي والسياسي، لأنّ معرفة البنى الأساسية يُساهم في تفكيك هذا النظام الاستعماري كاملًا، مما يُعطي معرفة وسلطة وقوة للأسير في مواجهة المحو.

خاتمة

بحثت هذه الدراسة في الكيفية الّتي يعمل بها الوعي الجسدي للأسرى خلال التحقيق، وكيف يتم استخراجه كمصدر للقوة والمواجهة والصمود، ومن جهة آخرى كيف يتم تعليق هذا الوعي بفعل الظروف المفروضة عليه ليهزم الأسير أمام هذا الألم والعزل والهيمنة الّتي تُصبح عالمه المادي داخل زنازين التحقيق.

إنَّ العالم المادي للسجن والظروف المهينة فيه، دفعت بالكثير من الأسرى إلى تحويل هذه الظروف إلى معرفة ووعي يستبطنونها داخل أجسادهم كنوع من القمع والسيطرة، ويجب التمرد عليها ومقاومتها، إلّا أنَّ هنالك بالتأكيد أجساد تُحاصر وتواجه زنازين العزل والتحقيق كنقطة منفصلة عن ذواتهم الداخلية، لا يستطيعون فيها التواصل مع أعماقهم، مما يُسهل من عملية السيطرة عليهم ومحو العديد من مفاهيمهم الثابتة، واستبدالها بمعايير ثقافية آخرى، وإعادة الإنشاء هذه تُخزن داخل جسد الأسير، ويتم التعبير عنها في لغة يتم تصديقها وتبنيها في لحظات معينة، كما أشرت سابقًا "مثلًا أخلاقيات التحقيق/ اسرائيل دولة قانون".

لكن إنَّ هذا المحو وإنّ وضع تأثيره على مفاهيم أساسية يتربى عليها الفلسطينيون، كرفض الاستعمار وكل ممارساته وكل تصوراته، وعدم قبول أي سياسة بنية حسنة، أو التعامل بـ "لطافة" المحققين كبنية عامة لفهم السياسات الصهيونية، وللحكم على الاستعمار واخلاقياته، إلّا أنَّه من المهم القول أنَّ هذا المحو لم يطل الفعل الجسدي المقاوم، ربما لأنَّ الجسد بشكلٍ غير واعٍ أخذ تشكيلته كجسد مقاوم وجسد مُضاد للاستعمار، كما أنَّ الممارسات الاستعمارية الّتي يواجهها الأسير بعد التحرر والّتي تحكم كل تفاصيل حياته، تقوم بإعادة محو لما تم إكسابه للأسير في ظروف قسرية، وإعادة إنشاء لوعي آخر يتناسب مع المكان والزمان والحدود والممارسات الّتي يواجهها الفلسطيني.

مرحلة التحقيق هيَّ مرحلة متواصلة من المحو للأسرى، محو وإنشاء استعماري يستهدف قتل النفس والإرادة، ومحو وإنشاء وطني من جانب آخر يعيد إحياء هذه النفس وإعطائها معانيها، وكما قُلت سابقًا إنَّ المفاهيم الّتي تغيرت حول فعل الاعتراف والصمود في الثقافة الفلسطينية الحالية، والّتي أصبحت مرتبطة بقدرة الأسير على الاحتمال، هيَّ مُساهم رئيسي في احتواء تجربة الألم والانكسار وإعادة جمع الذات الثقافية وتشكيلها كفعل مقاوم.

فالألم الجسدي والعزل، والسلطة المعرفية والمراقبة، وما ينتج عنهما من ندوب جسدية ونفسية، وتعطيل للحواس وتعليق للذاكرة، ومصادرة حق الاتصال والتواصل والحصول على المعلومات، والشعور بأنَّ الجسد مُراقب حتى من الداخل، هيّ مصادر معرفة جديدة يلتقطها الاسرى بشكل مكثف داخل مراحل التحقيق، والكيفية الّتي يتم التعامل فيها مع هذه الهيمنة، تُحدد أمرين: الأول: هو قدرة المحقق على الوصول إلى عمق ذات الأسير، وبالتالي إضعافه وكسره، والحصول على الاعتراف من جهة، وعلى أسير منكسر من جهة آخرى. الثاني: هو قدرة الأسير على بناء حواجز وموانع الوصول إلى الذات، ويتم التعامل مع مكوناته الثقافية بعزلها عن التحقيق، ليتمكن الأسير من استيعاب هذه الألام ووضعها داخل هذه الأكوان الثقافية، ليُعطيها معاني التحمل والصبر والمواجهة.

لذلك فالأسرى جميعًا يُشددون على أهمية الوعي المتجسد والنظري المكتسب من التجارب السابقة للأجساد الفلسطينية الّتي تعرضت للأسر والتعذيب، وكيفية التعامل معها، لأنَّ هذه الأجساد تتماهى ببعضها، وهذا الجذب يقلل من الشعور بالألم، ويعطي للأسير شعور بالألفة والتضامن، ووجود أجساد آخرى كثيرة حاضرة معه في العزل والتحقيق، هذه الأجساد غير المرئية بالنسبة للمحقق إلّا أنَّها مُحفزات الوعي لدى الأسير.

التحقيق يخلق معرفة مُضافة للوعي الجسدي للأسير، هذه المعرفة إذا تم اكتسابها بسرعة وتوزيعها داخل حواس الأسير، وتحضيرها كممارسة تكون كافية لمنع عملية محو الوعي الجسدي للأسرى، وإذا

تم اكتساب هذه المعرفة خلال التحقيق دون تفكيك سلطتها، ووضعها داخل معانيها الثقافية والسياسية، فإنَّها تنعكس داخل تقييمات الأسرى لتجربتهم النضالية، وتجربة الآخرين كذلك. وبذلك خلصت الدراسة إلى أنَّ جسد الأسير هو من يُحدد فاعلية أدوات التحقيق/التعذيب وخطابات الاستجواب وسياسية العزل على الجسد، سواء في المقاومة أو الانكسار.

قائمة المراجع والمصادر

- أبو جدي، نورهان. "حالات الاستثناء في الفضاءات الفلسطينية، وديناميات الصمود للتدمير الممنهج للمكان: نابلس كحالة دراسية،" *في حالات الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي*. بيروت: المركز العربي لدراسات الوحدة العربية،2010:229 – 267.
- أبو عطوان، منقذ محمد. *مأسسة الحياة الاعتقالية للأسرى الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية 1967-2005* رام الله: جامعة بيرزيت، 2007(رسالة ماجستير).
- أبو عفصة، فالنتينا. *أنا حرة*. حيفا: دار الشريف للدعاية، 2015.
- أبو مطر، طارق. *الأبعاد النفسية والاجتماعية للمواجهة في زنازين التحقيق*. رام الله: جامعة بيرزيت،2017.(رسالة ماجستير)
- أبو هلال، فراس. محرر. *أولست إنسانًا؟.. معاناة الأسير الفلسطيني في سجون الاحتلال الاسرائيلي*. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009.
- اسحق، جاد، وجولييت بنورة. *السياسات الاسرائيلية تجاه الأراضي في الأغوار*. القدس: معهد الأبحاث التطبيقية "أريج"، 2011
- بدارنة، بانة شغري. "التعذيب في اسرائيل على ضوء سياسة الإفلات من المسائلة القانونية." *في عن التعذيب*، اسرائيل: عدالة – المركز القانونية لحقوق الأقلية العربية في اسرائيل وأطباء لحقوق الإنسان، غزة: مركز الميزان لحقوق الإنسان ، 2012: 51- 58.
- براهيمي، سامية. "سوسيولوجيا الجسد." *المدرسة العليا للاساتذة بوزريعة*، ع5 (2011): 52-65
- البرغوثي، مروان. *ألف يوم في العزل الانفرادي*. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2011.
- بريستلي، كارا. "إعادة تعريف الإبادة: الاستعمار الاستيطاني، الموت المجتمعي، التدمير البيئي – للكاتب داميات شورت." *مجلة الدراسات الفلسطينية* 114 (ربيع 2018): 223-225
- بشير، نبيه. *حول تهويد المكان*. حيفا: مدى الكرمل، 2004.
- بكيس، وسيلة. "تجليات الجسد المُعذب في الشعر الجزائري: الشعر السجني نموذجا بين 1954-1962." *مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية* 4، عدد 4 (ديسمبر 2014): 53-65.
- بناجي، جارية كشير. *السجون الاستعمارية بالجزائر: مع دراسة نموذجية لسجن سركاجي (بربروس) اعتمادًا على سجلات الإيداع (1954- 1962)* الجزائر: جامعة الجزائر، 2003(رسالة ماجستير).
- البوريكي، عزيزة ورشيد توهو. "الذاكرة المروية وعدالة الانتقال: بين مقاربات الحركة الاجتماعية والتاريخ الجديد." *اضافات*، ع 26-27 (ربيع – صيف 2014): 60-75
- بوسليم، صالح. "جوانب السياسة الاستعمارية الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1956-1962." *دورية كان التاريخية* 10، عدد 35 (مارس 2017):82-97.
- ترويو، ميشيل."القوة في الحكاية." (ترجمة: ثائر ديب) *أسطور*، ع 9 (2019): ص 175-176.
- تسيمل، ليئا. "ملاحظات حول التعذيب في اسرائيل." *في عن التعذيب*، اسرائيل: عدالة – المركز القانونية لحقوق الأقلية العربية في اسرائيل وأطباء لحقوق الإنسان، غزة: مركز الميزان لحقوق الإنسان ، 2012: 7-13.

- جمعة، جمال. "الجدار وتهويد القدس." *مجلة الدراسات الفلسطينية*، 85 (شتاء 2011): 80-84.
- حباس، وليد. "مفهوم الإستعمار الإستيطاني – نحو إطار نظري جديد." *قضايا اسرائيلية*، ع.66(2013) :114-127
- حبوش، اسلام سليمان. *المقاومة الشعبية خلال الانتفاضة الأولى في قطاع غزة بين عامي (1987-1994)*. غزة: الجامعة الاسلامية، 2015 (رسالة ماجستير)
- حجّار، ليزا. محرر. "قراءة في كتاب "التهديد": المعتقلون السياسيون الفلسطينيون في اسرائيل." *في عن التعذيب*، اسرائيل: عدالة – المركز القانونية لحقوق الأقلية العربية في اسرائيل وأطباء لحقوق الإنسان، غزة: مركز الميزان لحقوق الإنسان ، 2012: 103-106.
- الحسن، إحسان محمد. "استخدام منهج تحليل المضمون في البحوث الاجتماعية." *بغداد: مجلة الأداب*، ع65، 2004، 94-116
- دقة، وليد. *صهر الوعي .. أو في إعادة تعريف التعذيب*. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون،2010.
- ريكور، بول. *الذاكرة والتاريخ والنسيان*. ترجمة: جورج زيناتي. بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة،2000.
- سعدات، أحمد. *صدى القيد*. بيروت: دار الفارابي، 2017.
- شقير، رزق. *هكذا تكلم المعذبون الفلسطينيون : 13 رواية عن التعذيب أثناء التحقيق في المعتقلات الإسرائيلية كماوردت على ألسنة ضحاياه*. رام الله: مؤسسة الحق من أجل الإنسان، 1992.
- الشيخ ،عبد الرحيم. "تحولات البطولة في الخطاب الثقافي الفلسطيني." *مجلة الدراسات الفلسطينية*، العدد 96 (2014):73-95.
- الشيخ، عبد الرحيم. "الهندسة اللغوية وعبرنة اسرائيل للمشهد الفلسطيني : دراسة في الخطاب الفلسطيني المقاوم 1997-2010." *مجلة الجامعة الأمريكية للأبحاث*، ع58-59. (2012): 78-109.
- الشيخ، عبد الرحيم. "متلازمة كولومبوس وتنقيب فلسطين: جينيالوجيا سياسات التسمية الاسرائيلية للمشهد الفلسطيني." *مجلة الدراسات الفلسطينية*، العدد83 (2010): 33-78.
- الصفدي، مطاع "مأسسة الإنسان الإنضباطي." *مجلة الفكر العربي المعاصر – مركز الإنماء القومي*، ع. 76،77 (يوليو،1990): 3-14.
- صلاح الدين جابر، فراس. *السجن "الاسرائيلي" كمفهوم زماني ومكاني دراسة في المفهوم والأثر*. رام الله: جامعة بيرزيت، 2010. (رسالة ماجستير).
- طبر، ليندا، وعلاء العزة. "المقاومة الشعبية بعد الانتفاضة الثانية." *مؤسسة الدراسات الفلسطينية*، ع.97، (شتاء/2014) 119-138
- ظاهر الناشف، سهاد. "الإعتقال الإداري للجثامين الفلسطينية: تعليق الموت وتجميده." *مجلة الدراسات الفلسطينية*، ع 107 (صيف2016): 19-36.
- ظاهر الناشف، سهاد. "إما قاتلًا أو مقتولًا الانتفاضة الفلسطينية الأولى كنقطة تحول في إعادة صياغة وكالة جسد وروح الفلسطيني/ة." *إضافات* 46 (ربيع 2019): 75-94.
- عراف، شكري. *المواقع الجغرافية الفلسطينية بيت الأسماء العربية والتسميات العبرية* فلسطين: *مؤسسة الدراسات الفلسطينية*، 2004.

- العرباوي، ليلى. "الذاكرة الجماعية : الأصل والتفرعات." *أماراباك* 5، ع3، (2014): 145-154.
- العربي، نصر الدين بشير. "المنفيون الليبيون إلى سجون الجزر الايطالية: سجن تراميتي نموذجًا." *رابطة الأدب الحديث* 78،عدد 78 (2013 أغسطس):521-547.
- عودة، عائشة *أحلام بالحرية .. الجزء الأول من اعتقال فتاة فلسطينية*. رام الله: مؤسسة مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية،2004.
- العيد، يمنى. *تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي*. بيروت: دار الفارابي، 1990.
- غانم، هنيدة. "المحو والإنشاء في المشروع الإستعماري الصهيوني." *مجلة الدراسات الفلسطينية*، عدد 96(خريف/2013): 118-139.
- غزالي، محمد. "البنيات الثقافية والعصبية داخل الفضاءات المغلقة: رؤية سوسيولوجية للوضع داخل السجون" *مجلة العلوم الانسانية* 10 ، عدد 10 (ديسمبر 2018): 253-264.
- فانون، فرانز. *معذبو الأرض*. ترجمة:سامي الجروبي. بيروت: دار الفرابي، 2004
- فخر الدين، منير. "الهوية والاستعمار في الجولان المحتل .. ملاحظات في جدلية الوعي والهيمنة." *مركز حرمون للدراسات المعاصرة* (11 تشرين الثاني/2017):1-17.
- فوكو، ميشيل. مترجم. *المعاقبة والمراقبة .. في ولادة السجن*. بيروت: مركز الإنماء القومي، 1990.
- قاسم، أنيس فوزي. "قانون "الدولة القومية للشعب اليهودي": المعنى والمغزى." *مؤسسة الدراسات الفلسطينية*، ع117 (شتاء/2019)25--55
- كرمون، جرسيئيالا. "انتزاع اعترافات كاذبة: حالة الأطفال الفلسطينيين – وجهة نظر طبيبة نفسية مبدئية." *في عن التعذيب*، اسرائيل: عدالة – المركز القانونية لحقوق الأقلية العربية في اسرائيل وأطباء لحقوق الإنسان، غزة: مركز الميزان لحقوق الإنسان، 2012: 85-90.
- الكوثراني، وجيه "الذاكرة والتاريخ في مشوار شفيق الحوت من يافا إلى بيروت،" *مجلة الدراسات الفلسطينية* ع.95، (2013) : 35-43
- لورد، أورد. *الشعر ليس رفاهية*. نيويورك: مطبعة نساء ملونات، 1977.
- مارتون، روحاما. "من الشخصي إلى السياسي: تورط الأطباء الاسرائيلين في تعذيب السجناء ومعاملتهم القاسية." *في عن التعذيب*، اسرائيل: عدالة – المركز القانونية لحقوق الأقلية العربية في اسرائيل وأطباء لحقوق الإنسان، غزة: مركز الميزان لحقوق الإنسان ، 2012: 13-22.
- مارك بودن، "فن التعذيب الأسود،" *مجلة الدراسات الفلسطينية* 57:(2004) :46-54.
- محمد كريز، أحمد. "كيف يكون السجن مؤسسة إصلاح." *جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية*18، عدد 203 (يوليو 1999): 64-67.
- المدني، بشير. "شهادات وقراءات حول السجون والمعتقلات خلال فترة الاحتلال." *مجلة الحكمة للدراسات التاريخية*، عدد11 (2017): 158-278.
- يونغ لي، غاي، مترجم، "الجسد والمعرفة،" *مجلة الأداب العالمية*، ع144 (2010):285- 175.
- منصور، عصمت. *سجن السجن*. رام الله: وزارة الثقافة،2010.

- مي الجيوسي، "تشكيل الذات وحالة الاستثناء، الجسد كموقع للمقاومة." *في حالات الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي*. بيروت: المركز العربي لدراسات الوحدة العربية،2010: 83-107.

- نوفاك، مانفريد "الكلمة الافتتاحية: التعذيب في القرن الواحد والعشرين استنتاجات من عملي مقررًا خاصًا للتعذيب في الأمم المتحدة." *في عن التعذيب*، اسرائيل: عدالة – المركز القانونية لحقوق الأقلية العربية في اسرائيل وأطباء لحقوق الإنسان، غزة: مركز الميزان لحقوق الإنسان، 2012: 23-34.
- نيتشه، فريدريتش. مترجم. *في جنيالوجيا الاخلاق*. الرباط: مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2017.

- الهودلي، وليد. *ستائر العتمة*. رام الله: المؤسسة الفلسطينية للارشاد القومي، 2004.

- هورتون، جيراد. "المعاملة القاسية الّتي يتعرض لها الأحداث، عن التعذيب." *في عن التعذيب*،اسرائيل: عدالة – المركز القانونية لحقوق الأقلية العربية في اسرائيل وأطباء لحقوق الإنسان، غزة: مركز الميزان لحقوق الإنسان ، 2012: 59- 64.
- هيرش، سايمور. "المنطقة الرمادية كيف انتقل برنامج سري للبنتاغون إلى أبو غريب." *مركز دراسات الوحدة العربية*27، عدد 305 (يوليو 2004): 38-50.
- اليحياوي، ياسين. "الذاكرة الجمعية موضوعا للبحث التاريخي: دراسة في نماذج مختارة من مؤرخي الجيل الثالث لمدرسة الحوليات." *أسطور*، ع7(2018) : 110-124.
- يونغ لي، غاي. (ترجمة: قاسم المقداد) "الجسد والمعرفة،" *اتحاد الكتاب العرب*، ع144 (2016)275-285.

مواقع الكترونية

- "الاستراتيجية الاسرائيلية تجاه انتفاضة الأقصى 2000-2006،" *موقع عدنان أبو عامر* (2018) (تاريخ الزيارة: 2019/10/1) >
http://adnanabuamer.com/post/132/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D8%AA%D9%8A%D8%AC%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D9%87-%D8%A7%D9%86%D8%AA%D9%81%D8%A7%D8%B6%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%82%D8%B5%D9%89-2000-2006<.
- "الأسيرة إسراء جعابيص داخل المحكمة،" مقابلة على اليوتيوب، بتاريخ 2018/1/11 > .
https://www.youtube.com/watch?v=6o0ZCz4RCu8

- "الاعتقال الإداري .. وسيلة "اسرائيل" لتغييب الشخصيات الفلسطينية،" *المركز الفلسطيني للإعلام* (2019) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/2).
- https://www.palinfo.com/news/2019/7/20/%d8%a7%d9%84%d8%a7%d8%b9%d8%aa%d9%82%d8%a7%d9%84-

%d8%a7%d9%84%d8%a7%d8%af%d8%a7%d8%b1%d9%8a-
%d9%88%d8%b3%d9%8a%d9%84%d8%a9-
%d8%a7%d8%b3%d8%b1%d8%a7%d8%a6%d9%8a%d9%84-
%d9%84%d8%aa%d8%ba%d9%8a%d9%8a%d8%a8-
%d8%a7%d9%84%d8%b4%d8%ae%d8%b5%d9%8a%d8%a7%d8%aa-
%d8%a7%d9%84%d9%81%d9%84%d8%b3%d8%b7%d9%8a%d9%86%d9%8a
%d8%a9 >

- "التعذيب والتنكيل أثناء التحقيق." *بتسيلم* (2018) (استخدم بتاريخ: 2019/10/29) <https://www.btselem.org/arabic/torture>.
- "السجناء السياسيون، المقاومة والقانون في إيرلندا الشمالية: ورقة بحثية عن النشطاء الفلسطينيين." *مشروع (محامون، صراع، انتقال)*. (في مارس 2015) (تاريخ الدخول للموقع 2018/11/22)، < https://lawyersconflictandtransition.org/themainevent/wp-content/uploads/2015/04/POLITICAL-PRISONERS-RESISTANCE-AND-THE-LAW-ARABIC-APRIL-2015.pdf> :
- "الهدم في بيت جالا هو جزء من عملية اسرائيلية متواصلة لضم المزيد من أرض فلسطين المحتلة بشكل غير قانوني،" *مركز عبدالله حوراني للدراسات والتوثيق/ منظمة التحرير الفلسطينية* (2019) تاريخ الزيارة (2019/9/30) <
http://www.plo.ps/article/51247/%D8%A7%D9%84%D9%87%D8%AF%D9%85-
%D9%81%D9%8A-%D8%A8%D9%8A%D8%AA-
%D8%AC%D8%A7%D9%84%D8%A7-%D9%87%D9%88-
%D8%AC%D8%B2%D8%A1-%D9%85%D9%86-
%D8%B9%D9%85%D9%84%D9%8A%D8%A9 >
- "بتسيلم تتابع: عنف شديد وتعذيب أثناء التحقيق مع عشرات القاصرين في محطة شرطة غوش عتصيون." *بتسيلم* (2013) (استخدم 2019/10/1) < https://www.btselem.org/arabic/torture/201308_etzion >.
- "تقرير جديد يكشف نظام تحقيقات جهاز الأمن العام (الشاباك) في سجن "شيكما": روتين التنكيل بالمعتقلين هو سياسة رسمية." *بتسيلم* (2016) (تاريخ الاستخدام 2019/10/1) < https://www.btselem.org/arabic/press_releases/201602_backed_by_the_system >.
- "تقرير: عدد الأسرى الفلسطينيين بلغ800 ألف منذ عام 1948." *الإنقاذ الأحمر العربي* (2010/9/22) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/20) <
https://alinkad.wordpress.com/2010/09/22/%D8%AA%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%B1-%D8%B9%D8%AF%D8%AF-
%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B3%D8%B1%D9%89-

%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9
%8A%D9%8A%D9%86-%D8%A8%D9%84%D8%BA-800-
%D8%A3%D9%84%D9%81/>.

- "حصاد النشاطات الاستيطانية ومصادرة الأراضي في العام 2016،" *مركز عبدالله حوراني للدراسات والتوثيق/ منظمة التحرير الفلسطينية* (2017) (تاريخ الاستخدام (2019/9/30) <
http://www.plo.ps/article/45311/-
%D8%AA%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%B1-
%D8%AD%D8%B5%D8%A7%D8%AF-
%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B4%D8%A7%D8%B7%D8%A7%D8%AA-
%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D9%8A%D8%B7%D8%A7%D9
%86%D9%8A%D8%A9>
- "حول تجربة الأسير المناضل نادر العفوري." *ملتقى نبض الشبابي* (بتاريخ 2019/10/10) ويمكن الوصول إليها من خلال الرابط <
https://www.facebook.com/MoltaqaNabd/videos/487434405317142/>.
- "ستة أشهر مضت وما زالت مسيرة العودة الكبرى للعودة تتعاظم،" *منظمة العفو الدولية* (2018) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/2)
<https://www.amnesty.org/ar/latest/campaigns/2018/10/gaza-great-march-of-return/>
- "سلب الأراضي: سياسة الاستيطان الاسرائيلي في الضفة الغربية،" *بتسيلم* (أيار/2002) (تاريخ الاستخدام: 2019/9/30) <
https://www.btselem.org/arabic/publications/summaries/200205_land_grab
- "عبد الله الحوراني: 8 شهداء ومخطط لفصل أحياء فلسطينية عن القدس خلال تشرين أول الماضي،" *مركز عبدالله حوراني للدراسات والتوثيق/ منظمة التحرير الفلسطينية* (2017) (تاريخ الاستخدام (2019/9/30) <
http://www.plo.ps/article/47253/%D8%B9%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-
%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%88%D8%B1%D8%A7%D9%86%D9%8A-8-
%D8%B4%D9%87%D8%AF%D8%A7%D8%A1-
%D9%88%D9%85%D8%AE%D8%B7%D8%B7>
- "ما خفي في السجون أعظم." *السودان اليوم* (2018) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/20) <
https://alsudanalyoum.com/?p=189271> .
- "منعًا باتًا: تعذيب المعتقلين الفلسطينيين والتنكيل بهم من قِبل سلطات الأمن الاسرائيلية." *بتسيلم وهموكيد* (2007)(استخدم: 2019/10/1)<

https://www.btselem.org/arabic/publications/summaries/200705_utterly_forbidden
>.

- "وسائل ظلامية: التعامل مع المعتقلين الفلسطينيين في منشأة التحقيق التابعة لجهاز الأمن العام في بيتح تكفا." *بتسيلم وهموكيد* (2010) (استخدم: 2019/10/1) >
https://www.btselem.org/arabic/publications/summaries/201010_kept_in_the_dark
>.

- "وسائل ظلامية: التعامل مع المعتقلين الفلسطينيين في منشأة التحقيق التابعة لجهاز الأمن العام في بيتح تكفا،" *بتسيلم وهموكيد* (2010) (استخدم: 2019/10/1) <
https://www.btselem.org/arabic/publications/summaries/201010_kept_in_the_dark

- أبو أحمد، خلود "التعذيب في "اسرائيل" قانون فضفاض ومساءلة متواطئة،" *العساس* (2019) (استخدم بتاريخ 2019/11/2) < (
http://alassas.net/4375/?fbclid=IwAR0aHJBvMjA1ynxSBAJJWT2tBseLUVVIMkcUa
OqnroIYYHhdn0oKDx8tjYA >.

- أبو أحمد، خلود. "التعذيب في "اسرائيل" قانون فضفاض ومساءلة متواطئة." *العساس* (2019) (استخدم بتاريخ 2019/11/2) <
http://alassas.net/4375/?fbclid=IwAR0aHJBvMjA1ynxSBAJJWT2tBseLUVVIMkcUa
OqnroIYYHhdn0oKDx8tjYA >.

- أبو عامر، عدنان. "السياسة الاسرائيلية في قطاع غزة 1948- 2009،" (2018) (تاريخ الاستخدام: 2019/9/30) <
http://adnanabuamer.com/post/103/%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%B3%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D9%87-%D9%82%D8%B7%D8%A7%D8%B9-%D8%BA%D8%B2%D8%A9-1948-2009>

- الأشرف، حسن، أدب السجون في المغرب .. للحقيقة وجهان، العربي الجديد (2015) (تاريخ الزيارة: 2019/2/25)< https://www.alaraby.co.uk/diffah/books/2016/9/8 >

- حباس، وليد "الانتفاضة الأولى وحق تقرير المصير،" جامعة بيررزيت: مؤتمر *مؤسسة الدراسات الفلسطينية* (2017/12/15) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/2) <
https://www.youtube.com/watch?v=cl3Tt0C7amU >

- حمدونة، رأفت ، أدب السجون (الخصائص والمميزات)، *الانطولوجيا* (2018)، (تاريخ الزيارة: 2019/3/13) >

http://alasra.ps/ar/uploads/documents/c707df83f435cfed7d81da4891e76eac.pdf
>.

- رزق الله، باسل. "التصاريح .. أداة "اسرائيل" للعقاب والثواب،" *متراس* (2019) (تاريخ الزيارة:2019/10/1)
>
https://metras.co/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AD-%D8%A3%D8%AF%D8%A7%D8%A9-%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84-%D9%84%D9%84%D8%B9%D9%82%D8%A7%D8%A8-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%88%D8%A7%D8%A8/<

- الزاوي، مولاي عبد الحكيم. جدل التاريخ والذاكرة في الأسطوغرافيا المغربية: حفريات في الذات المغربية المقهورة بلون السياسة، (شبكة الضياء للمؤتمرات والدراسات، د.ت) (تاريخ الاستخدام: 2019/2/20) > https://diae.net/33157/<.

- العاروري، أحمد. "عن الحصار الأشد فتكًا في الضفة الغربية،" *باب الواد* (2018) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/2) >
https://www.babelwad.com/ar/%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86/%D8%B9%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B5%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B4%D8%AF-%D9%81%D8%AA%D9%83%D8%A7%D9%8B-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%B6%D9%81%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AD%D8%AA%D9%84%D8%A9<

- عبد الرحمن، أسعد. "الانتفاضة 1987،" *الموسوعة الفلسطينية* (4 أيلول/ 2019) (تاريخ الزيارة: 2019/6/13) >
https://www.palestinapedia.net/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%86%D8%AA%D9%81%D8%A7%D8%B6%D8%A9-1987/<

- كنفاني، غسان. "ثورة 36-39 في فلسطين .. خلفيات وتفاصيل وتحليل،" (تاريخ الزيارة: 2019/6/1). >
https://foulabook.com/ar/read/%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A9-36-pdf<

- مهنانة، إسماعيل "ميتافيزيقيا الحداثة: تاريخ نسيان الجسد" *المركز العلمي العربي للأبحاث والدراسات الإنسانية*(2013) >http://arab-csr.org/2013/02/11<

- وتد، نضال محمد. "الاحتلال يستهدف راشقي الحجارة ويسبّب إعاقات دائمة،" *العربي الجديد* (2016) (تاريخ الاستخدام: 2019/10/2)
https://www.alaraby.co.uk/politics/2016/8/26/%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AD%D8%AA%D9%84%D8%A7%D9%84-

%D9%8A%D8%B3%D8%AA%D9%87%D8%AF%D9%81-
%D8%B1%D8%A7%D8%B4%D9%82%D9%8A-
%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AC%D8%A7%D8%B1%D8%A9-
%D9%88%D9%8A%D8%B3%D8%A8%D8%A8-
%D8%A5%D8%B9%D8%A7%D9%82%D8%A7%D8%AA-
%D8%AF%D8%A7%D8%A6%D9%85%D8%A9-%D9%84%D9%87%D9%85

- يحيى، سلوى. "ماذا تعرف عن السجون الاسرائيلية في دولة فلسطين." *ساسة بوست* (2015) (استخدم بتاريخ (2019/10/20) < https://www.sasapost.com/israeli-prisons-in-palestine/ >.

English Sourse

- Alford, C. Fred, “What Would It Matter If Everything Foucault Said About Prison Were Wrong? Discipline and Punsh, After Twenty Years.” *Theory and Sociology* 29, no 1 (2000): 125-146.
- Amie Cesaire. “From Discourse on Colonialism.” *In Colonial Discourse and Post-Colonial Theory*, Patrick Williams, and Laura Chrisman (ed.) New York: Colombia University Press, 1994: 172-180.
- Azaryahu, Moan and Aron Golan. *“*Re) Naming The Landscape: The Formation of the Hebrew Map of Israel 1949-1960*.”* *Journal of Historical Geography* 27. No 2 (2001): 178- 195.
- Berliner, Peter and Elisabeth Naima Mikkelsen, Anne Bovbjerg and Malin Wiking, “psychotherapy treatment of torture survivors,” *International journal of psychosocial rehabilitation* 8 (2004):85-96.
- Branch, Daniel. “Imprisonment and Colonialism in Kenya: 1930- 1952, Escaping The Careeral Archipelago.” *The International Journal if Africa Historical Studies38*, no 2 (2005):239- 265.
- Cohen, Stanley and Daphna Golan. *The Interrogation of Palestinians during the Intifada: Ill-treatment, "Moderate Physical Pressure" or Torture?* Jerusalem: B'TSELEM, 1991.
- Cunneen, Chris. “Indigenous Incarceration,”: In *The Violence of Colonial Law and Justice*. Scraton, P. and McCulloch, J. (eds) The Violence of Incarceration, London: Routledge (2009) pp. 209-224: 209
- Fernandez, Johanna. “Structure of Settler Colonial Domination in Israel and in The United States.” *Decolonization: Indigeneity, Education, Society* 6, no1, (2017) pp 29-44: 39-43
- Gordon Neve. *Israel's Occupation,* California: University of California, 2008
- Gugelberger, George and Michel Kearny. “Voices for The Voiceless.”. *Latin America Perspectives*18, no.3, (summer,1991): 3-14.
- Idir, Louani. “De la Selinquance a La Reinsertion Des Sortants De Prison: De Reintegration Et Impact De Lexperience Carceral.” *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*, no 28 (2017): 9-20.
- Jackson, Jessi Lee. “Sexual Necropolises and Prison Rape Elimation.” *Journals The University of Chicago Press* 39, no 1 (2013): 197-220.
- James, Miller. “Carnival of Atrocity Foucault, Nietzsche, Cruelty.” *Political Theory* 18, no 3 (1990): 470-491.

- Johnsen, Elise “Pain as Counterpoint to Culture: Toward an Analysis of Pain Associated with Infibulation among Somali Immigrants in Norway,” *Medical Anthropology Quarterly* 16 (3) (2002):312-340.
- Kramer, Daniel “The Effects of Psychological Torture,” *International Human Rights Law Clinic* (2010):1-9.
- Meari, Lena. *Sumud, A Philosophy of confronting interrogation*. Davis: University of California Davis,2011. (Phd Thesis).
- Meari, Lena> “Re/Signifying “Sexual” Colonial Power Techinques: The Experiences of Palestinian Women Political Prisoners,” In *Rethinking Gender in Revolutions and Resistance: Lessons from the Arab World,* Publisher: Zed Books Ltd, Editors: Maha El Said (2015):1-28.
- Nashif, Esmail. *Palestinian Political Prisoners: Identity and Community*. Routledge studies on the Arab- Israel Conflict. 2008
- Power, Michel. “Foucault and Sociology.” *Annual Review of Sociology* 37 (2011): 35- 56.
- Rivera-Fuentes, Consuelo and Lynda Birke, “Talking with/In Pain: Reflections on Bodes Under Torture*,” Women Studies International Form*, (2001): 653- 668.
- Santos, Madalena “Relation of Ruling in the Colonial Present’; An Intersectional View of the Israeli Imaginary,” *The Canadian Journal of Sociology* 4, No. 38 (2013) 509-532.
- Spivakovsky, Claire. “Negotiations of Space: The Indigenous Prisoner and Discourse,” *Enter Text,* Vol 6, No3 (2011)341- 361.
- Story, B. “Alone Inside: Solitary Confinement and The Ontology of the Individual in Modern Life,” Canada*: Department of Geography and Program in Planning Unuversity of Toronti*,2014: 355- 364.
- Toni Morrison. “The Site of Memory,” *In Inventing the Truth: The Art and Craft of Memoir*. 2d ed., ed. William Zinsser Boston; New York: Houghton Mifflin. 1995
- Turkel, Gerald. “Michel Foucault: Law, Power, and Knowledge.” *Journal of Law and Sociology* 17, No 2 (1990): 170-193.
- Vorbrüggen, Meike, MD, Hans U. Baer, “Humiliation: The Lasting Effect of Torture*,” Military Medicine*, Volume 172(2), (November 2007):29-33.
- Wolfe, Patrick. “Settler Colonialism and The Elimination of the Native.” *Journal of Genocide Research* (2006) 8(4), 387-409

Websites

- “Palestinian Political Prisoner in Israel Prisons.” *Adameer Prisoner Support and Human Right Association* (January, 2014), (1/4/2019). < http://www.addameer.org/files/Palestinian%20Political%20Prisoners%20in%20Israeli%20Prisons%20(General%20Briefing%20January%202014).pdf>
- Adam Barker and Emma Battell Lowman, “settler colonialism,” Global social theory (22/5/2019) < https://globalsocialtheory.org/concepts/settler-colonialism/>.
- Baderoon, Gabeba. “The Creation of Black Criminality in South Africa.” *Africa is a Country* (2018) (used:20/10/2019) < https://africasacountry.com/2018/12/the-creation-of-black-criminality-in-south-africa>